
روضة العقلاء ونزهة الفضلاء
للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البستي
المتوفى سنة ٣٥٤ من الهجرة وهو في عشر الثمانين
رحمه الله
بتحقيق
محمد حامد الفقي
رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية
مكتبة السنة المحمدية

روضة العقلاء ونزهة الفضلاء

للإمام الحافظ أبى حاتم محمد بن حِبَّان البُسْتى
المتوفى سنة ٣٥٤ من الهجرة وهو فى عشر الثمانين
رحمه الله

بتحقيق وتصحيح
محمد حامد الفقى
رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية

ترجمة الإمام ابن حبان [1]

أبو حاتم محمد بن حبان بن معاذ بن معبد بن سعيد بن شهيد التميمى - كذا نسبه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد البخارى ، المعروف بغُنْجار ، ووافقه غيره إلى معبد - ثم قال : ابن هدبة بن مُرَّة بن سعد بن يزيد بن مرة بن زيد بن عبدالله ابن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيدِ مَناة بن تميم بن مرّ بن أُدّ بن طابخة ابن إلياس بن مضر .

الإمام العلامة الفاضل المتقن ، كان مكثراً من الحديث والرِّحلة ، والشيوخ ، عالماً بالمتون والأسانيد ، أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره . ومن تأمل تصانيفه تأمُّلَ منصفٍ علم أن الرجل كان بحراً فى العلوم .

سافر ما بين الشاش والاسكندرية ، وأدرك الأئمة والعلماء ، والأسانيد العالية ، وأخذ فقه الحديث والفرض على معانيه : عن إمام الأئمة أبى بكر بن خزيمة ، ولازمه وتَلْمَذَ له ، وصارت تصانيفه عُدَّة لأصحاب الحديث ، غير أنها عزيزة الوجود .

سمع ببلدِهِ بُسْتَ : أبا أحمد إسحاق بن إبراهيم القاضى ، وأبا الحسن محمد بن عبد الله بن جنيد البستى .

وبِهَرَاة : أبا بكر محمد بن عثمان بن سعد الدارمى .

وبمرو : أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن عبد الله بن محمود بن سليمان السعدى ، وأبا يحيى محمد بن يحيى بن خالد المدينى .

---

(١) عن معجم البلدان لياقوت (ج ٢ ص ١٧١-١٧٨)

و بقرية سِنْج : أبا على الحسين بن محمد بن مصعب السنجى ، وأبا عبد الله محمد بن نصر بن تَرْقُل الهَوْرَقانى .

و بالصغد بما وراء النهر : أبا حفص عمر بن محمد بن يحيى الهمدانى .

وبنَسا : أبا العباس الحسن بن سفيان الشيبانى ، ومحمد بن عمر بن يوسف ، ومحمد بن محمود بن عدىٍّ النَّسَوِيِّينَ .

وبنيسابور : أبا العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم السراج الثقفى ، وأبا محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن شِيرويه الأذرى .

و بأرْغِيَانَ : أبا عبد الله محمد بن المسيب بن إسحاق الأرغيانى .

وبجرجان : عمران بن موسى بن مجاشع ، وأحمد بن محمد بن عبد الكريم الوزان الجرجانيين .

و بالرى : أبا القاسم العباس بن الفضل بن عاذان المقرىء ، وعلى بن الحسن ابن مسلم الرازى .

و بالكَرَج : أبا عمارة أحمد بن عمارة بن الحجاج الحافظ ، والحسين ابن إسحاق الأصبهانى .

و بعسكر مُكْرَم : أبا محمد عبد الله بن محمد موسى الجَواليقى ، المعروف بعَبَدان الأهوازى .

و بتُسْتَرَ : أبا جعفر محمد بن محمد بن يحيى بن زهير الحافظ .

و بالأهواز : أبا العباس محمد بن يعقوب الخطيب .

و بالأُبُلَّة : أبا يعلى محمد بن زهير ، والحسين بن بسطام الأبليين .

و بالبصرة : أبا خليفة الفضل بن الحباب الجمحى ، وأبا يعلى زكرياء بن يحيى الساجى ، وأبا سعيد عبد الكريم بن عمر الخطابى .

وبواسط : أبا محمد جعفر بن أحمد بن سنان القطان ، والخليل بن محمد الواسطى ابن بنت تميم بن المنتصر .

وبفم الصِّلْح : عبد الله بن قُحْطة بن مرزوق الصلحى .

وبنهر سابُسَ ، قرية من قرى واسط : خلاد بن محمد بن خالد الواسطى .

وببغداد : أبا العباس حامد بن محمد بن شعيب البلخى ، وأبا أحمد الهيثم خلف الدورى ، وأبا القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى .

وبالكوفة : أبا محمد عبد الله بن زيدان البجلى .

وبمكة : أبا بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابورى الفقيه ، صاحب كتاب الإشراف فى اختلاف الفقهاء ، وأبا سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم الجندى .

وبسامَرَّا : على بن سعيد العسكرى ـ عسكر سامرا .

وبالموصل : أبا يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى وهارون بن المسكين البلدى ، وأبا جابر زيد بن على بن عبد العزيز بن حيان الموصلى ، وروح بن عبد المجيد الموصلى .

وببلد سِنْجَار : على بن إبراهيم بن الهيثم الموصلى .

وبنَصِيبِينَ : أبا السرىّ هاشم بن يحيى النصيبينىّ ، ومسدد بن يعقوب بن إسحاق الفلوسى .

وبكفَرتوثَى ، من ديار ربيعة : محمد بن الحسين بن أبى معشر السلمى .

وبسَرغَامرطا ، من ديار مضر : أبا بدر أحمد بن خالد بن عبد الملك بن عبد الله بن مسرح الحرانى .

وبالرافقة : محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن فروخ البغدادى .

و بالرقة : الحسين بن عبد الله بن يزيد القطان .
و بمَنْبِج : عمر بن سعيد بن سنان الحافظ ، وصالح بن الأصبغ بن عامر التنوخي ،
و بحلب : على بن أحمد بن عمران الجرجانى .
و بالمصيصة : أبا طالب أحمد بن داود بن محسن بن هلال المصيصى .
و بأنطاكية : أبا على وصيف بن عبد الله الحافظ .
و بطرسوس : محمد بن يزيد الدورقى ، و إبراهيم بن أبى أمية الطرسوسى .
و بأَذَنَة : محمد بن علان الأذَنِي .
و بصَيْدَا : محمد بن أبى المعافى بن سليمان الصَّيْدَاوى .
و ببيروت : محمد بن عبد الله بن عبد السلام البيروتى المعروف بمكحول .
و بِحِمْصَ : محمد بن عبد الله بن الفضل الكلاعى الراهب .
و بدِمَشْقَ : أبا الحسن أحمد بن عمير بن حَوصاء الحافظ ، وجعفر بن أحمد ابن عاصم الأنصارى ، وأبا العباس حاجب بن أركين الفرغانى الحافظ .
و بالبيت المقدس : عبد الله بن محمد بن مسلم المقدسى الخطيب .
و بالرملة : أبا بكر محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلانى .
و بمصر : أبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على النسائى ، وسعيد بن داود ابن وردان المصرى ، وعلى بن الحسين بن سليمان المعدل .
وجماعة كثيرة من أهل هذه الطبقة سوى من ذكرناهم .
وروى عنه الحاكم أبو عبد الله الحافظ ، وأبو عبد الله بن مَنْدَه الأصبهانى ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الغنجار الحافظ البخارى ، وأبو على منصور بن عبد الله ابن خالد الذهلى الهروى ، وأبو مسلمة محمد بن محمد بن داود الشافعى ، وجعفر ابن شعيب بن محمد السمرقندى ، والحسن بن منصور الإسبيجانى ، والحسن بن محمد بن سهل الفارسى ، وأبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن هارون الزوزنى ،

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن خُنْشام الشُّروطى ، وجماعة كثيرة لا تحصى .

أخبرنا القاضى الإمام أبو القاسم عبدالصمد بن محمد بن أبى الفضل الأنصارى الحَرَسْتَانى ـ إذنا ـ عن أبى القاسم زاهر بن طاهر الشحامى عن أبى عثمان سعيد البحترى قال : سمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول :

أبو حاتم البستى القاضى كان من أوعية العلم فى اللغة والفقة والحديث والوعظ ، ومن عقلاء الرجال ، صنف ، فخرج له من التصنيف فى الحديث مالم يُسْبَق إليه ، وولى القضاء بسمرقند وغيرها من المدن . ثم ورد نيسابور سنة ٣٣٤ وحضرناه يوم الجمعة بعد الصلاة ، فلما سألناه الحديث نظر إلى الناس ، وأنا أصغرهم سناً ـ فقال : اسْتَمْلِ ، فقلت : نعم ، فاستمليت عليه ، ثم أقام عندنا ، وخرج إلى القضاء بنيسابور وغيرها ، وانصرف إلى وطنه ، وكانت الرحلة بخراسان إلى مصنفاته .

أخبرنا أبو اليمن زيد بن الحسن الكندى ـ شِفَاهاً ـ قال : أخبرنا القاضى أبو بكر محمد بن عبد الباقى ـ إذْناً ـ عن أبى بكر أحمد بن على بن ثابت ـ كتابة ـ قال : ومن الكتب التى تكثر منافعها ، إن كانت على قدر ماترجمها به واضعوها : مصنفات أبى حاتم محمد بن حبان البُسْتى التى ذكرها لى مسعود بن ناصر السِّجْزِى ، ووقفنى على تذكرة بأسمائها ، ولم يقدر لى الوصول إلى النظر فيها ، لأنها غير موجودة بيننا ، ولا معروفة عندنا ، وأنا أذكر منها ما استحسنته ، سوى ماعدلت عنه وطرحته .

فمن ذلك : كتاب الصحابة ، خمسة أجزاء ، وكتاب التابعين : اثنا عشر جزءا . وكتاب أتباع التابعين : خمسة عشر جزءا . وكتاب تبَع الأتباع : سبعة عشر جزءا . وكتاب تُبَّاع التبع : عشرون جزءا . وكتاب الفصل بين النقلة :

عشر أجزاء . وكتاب العلل، علل أوهام أصحاب التواريخ : عشرة أجزاء . وكتاب علل حديث الزهرى . عشرون جزءا . وكتاب علل حديث مالك : عشرة أجزاء . وكتاب علل مناقب أبى حنيفة ومثالبه : عشرة أجزاء . وكتاب علل ما استند إليه أبو حنيفة : عشرة أجزاء . وكتاب ماخالف الثورى [فيه] شعبة : ثلاثة أجزاء . وكتاب ما انفرد فيه أهل المدينة من السنن : عشرة أجزاء . وكتاب ما انفرد به أهل مكة من السنن : عشرة أجزاء . وكتاب ماعند شعبة عن قتادة ، وليس عند سعيد عن قتادة : جزءان . وكتاب غرائب الأخبار : عشرون جزءا ، وكتاب ما أغرب [فيه] الكوفيون عن البصريين : عشرة أجزاء ، وكتاب ما أغرب البصريون [فيه] عن الكوفيين : ثمانية أجزاء . وكتاب أسامى من يُعْرَف بالكنية : ثلاثة أجزاء . وكتاب كُنَى من يعرف بالأسامى : ثلاثة أجزاء . وكتاب الفصل والوصل : عشرة أجزاء . وكتاب التمييز بين حديث النضر الحُدَّانى ، والنضر الحزاز : جزءان . وكتاب الفصل بين حديث أشعث بن مالك وأشعث بن سوار : جزءان . وكتاب الفصل بين حديث منصور بن المعتمر ومنصور بن راذان : ثلاثة أجزاء . وكتاب الفصل بين مكحول الشامى ومكحول الأزدى : جزء . وكتاب موقوف مارفع : عشرة أجزاء . وكتاب آداب الرجال : جزءان . وكتاب ما أسند جُنادة عن عبادة : جزء . وكتاب الفصل بين حديث ثور بن زيد وثور بن يزيد : جزء . وكتاب ماجعل عبد الله بن عمر عبيد الله بن عمر : جزءان . وكتاب ماجعل شيبان سفيان ، أو سفيان شيبان : ثلاثة أجزاء . وكتاب مناقب مالك بن أنس : جزءان . وكتاب مناقب الشافعى : جزءان . وكتاب المعجم على المدن : عشرة أجزاء . وكتاب المقلِّين من الحجازيين : عشرة أجزاء ، وكتاب المقلين من العراقيين : عشرون جزءا ، وكتاب الأبواب المتفرقة : ثلاثون جزءا . وكتاب الجمع بين الأخبار المتضادة :

جزءان . وكتاب وصف المُعْدَل والمعدَّل : جزءان . وكتاب الفصل بين حدثنا وأخبرنا . جزء . وكتاب وصف العلوم وأنواعها : ثلاثون جزءا . وكتاب الهداية إلى علم السنن ، قصد فيه إظهار الصناعتين اللتين هما صناعة الحديث والفقه ، يذكر حديثاً ويترجم له ، ثم يذكر مَنْ ينفرد بذلك الحديث ، ومن مفاريد أىِّ بلد هو ؟ ثم يذكر كل اسم فى إسناده من الصحابة إلى شيخه بما يعرف من نسبته ومولده وموته وكنيته وقبيلته وفضله وتيقظه ، ثم يذكر مافى ذلك الحديث من الفقه والحكمة . فإن عارضه خبر ذكره وجمع بينهما . وإن تضادّ لفظه فى خبر آخر تلطف للجمع بينهما حتى يعلم مافى كل خبر من صناعة الفقه والحديث معاً . وهذا من أنبل كتبه وأعزها .

قال أبو بكر الخطيب : سألت مسعود بن ناصر ـ يعنى السِّجْزِى ـ فقلت له : أكلُّ هذه الكتب موجودة عندكم ، ومقدور عليها ببلادكم ؟ فقال : إنما يوجد منها الشىء اليسير ، والنّزْر الحقير . قال : وقد كان أبو حاتم بن حِبّان سَبّل كتبه ووَقَفَها ، وجمعها فى دار رسمها بها . فكان السببَ فى ذهابها مع تطاول الزمان ، وضعف السلطان ، واستيلاء ذوى العيْث والفساد ، على أهل تلك البلاد .

قال الخطيب : ومثل هذه الكتب الجليلة كان يجب أن يكثر بها النسخ ، ويتنافس فيها أهل العلم ويكتبوها ، ويجلدوها ، إحرازاً لها ، ولا أحسب المانع من ذلك إلا قلة معرفة أهل تلك البلاد بمحل العلم وفضله ، وزهدهم فيه ، ورغبتهم عنه ، وعدم بصيرتهم به . والله أعلم .

قال الإمام تاج الإسلام : وحصل عندى من كتبه بالإسناد المتصل سماعاً كتاب التقسيم والأنواع . خمس مجلدات ، قرأتها على أبى القاسم الشحامى عن أبى الحسن البَحّانى عن أبى هارون الزوزنى عنه . وكتاب روضة العقلاء

[وهو هذا] قرأته على حنبل السِّجْزِي عن أبي محمد التونى عن أبى عبد الله الشروطى عنه .

وحصل عندى من تصانيفه غير مسندة عدة كتب ، مثل كتاب الهداية إلى علم السنن ، من أوله قِدر مجلدين .

وله — وهو أشهر من هذه كلها — كتاب الثقات ، وكتاب الجرح والتعديل ، وكتاب شعب الإيمان ، وكتاب صفة الصلاة ، أدرك عليه فى كتاب التقاسيم . فقال : فى أربع ركعات يصليها الإنسان ستمائة سُنَّة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أخرجناها بفصولها فى كتاب صفة الصلاة ، فأغنى ذلك عن نظمها فى هذا النوع من هذا الكتاب .

قال أبو سعد : سمعت أبا بكر وجيه بن طاهر الخطيب ، بقصر الريح ، سمعت أبا محمد الحسن بن أحمد السمرقندى ، سمعت أبا بشر عبد الله بن محمد بن هارون ، سمعت عبد الله بن محمد الاستراباذى يقول : أبو حاتم بن حبان البستى كان على قضاء سمرقند مدة طويلة ، وكان من فقهاء الدين ، وحفاظ الآثار والمشهورين فى الأمصار والأقطار ، عالما بالطب والنجوم وفنون العلم . ألف كتاب المسند الصحيح والتاريخ والضعفاء والكتب الكثيرة من كل فن .

أخبرتنى الحرة زينب الشعرية — إذنا — عن زاهر بن طاهر ، عن أحمد بن الحسين الإمام ، سمعت الحافظ أبا عبد الله الحاكم يقول : أبو حاتم بن حبان داره التى هى اليوم مدرسة لأصحابه ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة ، ولهم جرايات يستنفقونها ، داره ، وفيها خزانة كتبه فى يدى وصى ، سلمها إليه ليبذلها لمن يريد نسخ شىء منها فى الصفَّة ، من غير أن يخرجه منها ، شكر الله له عنايته فى تصنيفها ، وأحسن مثوبته على جميل نيته فى أمرها بفضله ورأفته .

وأخبرنى القاضى أبو القاسم الحَرَسْتَانى فى كتابه ، قال : أخبرنى وجيه بن طاهر الخطيب بقصر الريح ـ إذنا ـ سمعت الحسن بن أحمد الحافظ ، سمعت أبا بشر النيسابورى يقول : سمعت أبا سعيد الإدريسى يقول : سمعت أبا حامد أحمد بن محمد بن سعيد النيسابورى ـ الرجل الصالح بسمرقند ـ يقول : كنا مع أبى بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة فى بعض الطريق من نيسابور ، وكان معنا أبو حاتم البستى ، وكان يسأله ويؤذيه ، فقال له محمد بن إسحاق بن خزيمة : يابارد تنح عنى ، لا تؤذينى ، أو كلمة نحوها ، فكتب أبو حاتم مقالته ، فقيل له : تكتب هذا ؟ فقال : نعم أكتب كل شىء يقوله .

أخبرنى الخطيب أبو الحسن السديدى ـ مشافهة بِمَرْوَ ـ قال : أخبرنى أبو سعد ـ إذنا ـ أخبرنا أبو على إسماعيل بن أحمد بن الحسين البيهقى ـ إجازة ـ سمعت والدى سمعت الحاكم أبا عبد الله يقول : سمعت أبا على الحسين بن على الحافظ ـ وذكر كتاب المجروحين لأبى حاتم البستى ، فقال : كان لعمر بن سعيد ابن سنان المَنْبَجِىّ ابنٌ رحَلَ فى طلب الحديث ، وأدرك هؤلاء الشيوخ ، وهذا تصنيفه ـ وأساء القول فى أبى حاتم .

قال الحاكم : أبو حاتم كبير فى العلوم ، وكان يُحسد لفضله وتقدمه .

ونقلت من خط صديقنا الإمام الحافظ أبى نصر عبد الرحيم بن النفيس بن هبة الله بن وهبان السلمى الحديثى ـ وذكر أنه نقله من خط أبى الفضل أحمد بن على بن عمر السليمانى البِيكَنْدى الحافظ من كتاب شيوخه ـ وكان قد ذكر فيه ألف شيخ فى باب الكذابين ـ قال : وأبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستى ، قدم علينا من سمرقند سنة ٣٣٠ أو سنة ٣٢٩ ، فقال لى أبو حاتم سهل بن السرى الحافظ : لا تكتب عنه ، فإنه كذاب . وقد صنف لأبى الطيب المصعبى كتاباً فى القرامطة حتى قلده قضاء سمرقند ، فلما أخبر أهل سمرقند بذلك أرادوا أن

يقتلوه ، فهرب ودخل بخارى ، وأقام دلاَّلاً فى البزازين ، حتى اشترى له ثياباً بخمسة آلاف درهم إلى شهرين وهرب فى الليل ، وذهب بأموال الناس .

قال : وسمعت السليمانى الحافظ بنيسابور قال لى كتبتَ عن أبى حاتم البستى؟ فقلت : نعم ، فقال : إياك أن تروى عنه ، فإنه جاءنى فكتب مصنفاتى ، وروى عن مشايخى ، ثم إنه خرج إلى سجستان بكتابه فى القرامطة . إلى ابن بابو ، حتى قبله وقلده أعمال سجستان فمات به .

قال السليمانى : فرأيت وجهه وجه الكذابين ، وكلامه كلام الكذابين .

وكان يقول : يابنى : اكتب : أبو حاتم محمد بن حبان البستى إمام الأئمة ، حتى كتبت بين يديه ، ثم محوته ، قال أبو يعقوب إسحاق بن أبى إسحاق القرَّاب : سمعت أحمد بن محمد بن صالح السجستانى يقول : توفى أبو حاتم محمد ابن أحمد بن حبان سنة ٣٥٤ .

وعن شيخنا أبى القاسم الحَرَسْتَانى عن أبى القاسم الشحامى عن أبى عثمان سعيد بن محمد البحترى سمعت محمد بن عبد الله الضبى يقول : تُوفِّى أبو حاتم البستى ليلة الجمعة لثمان ليالٍ بقين من شوال سنة ٣٥٤ .

ودفن بعد صلاة الجمعة فى الصُّفَّة التى ابتناها بمدينة بُسْتَ بقرب داره .

وذكر أبو عبد الله الغُنجار الحافظ فى تاريخ بخارى : أنه مات بسجستان سنة ٣٥٤ بُست معروف إلى الآن يزار ، فإن لم يكن نقل من سجستان إليها بعد الموت ، و إلا فالصواب أنه مات ببُست .

مسند الكتاب إلى المؤلف

أخبرنا الشيخ الإمام الحافظ أبو محمد عبد القادر بن عبد الله الرُّهاوى أدام الله تأييده ! وأجزل من كل خير مَزِيدَهُ ، فى شهور سنة اثنتين وستمائة .

قال : حدثنا الأمير القاضى الإمام عمدة الدين مُعين الإسلام ناصر السنة أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحسين بن محمد بن سعيد بن محمد بن سعيد بن محمد البُوسَنْجِيُّ من لفظه ببوسَنْجَ (١) فى شهور سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

قال : أخبرنا الشيخ الإمام العالم الزاهد عفيف الدين أبو جعفرٍ حنبلُ بن عليّ ابن الحسين البخاريّ الصوفى السُّنىّ رحمه الله .

قال : أخبرنا الشيخ أبو محمد أحمد بن محمد بن أحمد التونى (٢) سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

قال : أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله الشُّرُطىّ .

قال : أخبرنا أبو حاتم محمد بن حبان البُسْتّي رضى الله عنه قال :

---

(١) بالسين المهملة من قرى ترمذ ، والشين المعجمة بليدة من نواحى هراة .

(٢) التونى : نسبة إلى تون ، مدينة من ناحية قهستان قرب قائن ، حكاه ياقوت ونسب إليها أبا محمد هذا ، وذكر روايته عن شيخه الشروطى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفرد بوحدانية الألوهية ، المتعزز بعظمة الربوبية القائم على نفوس العالم بآجالها ، والعالم بتقلبها وأحوالها ، المانِّ عليهم بتواتر آلائه ، المتفضل عليهم بسوابغ نَعْمَائه الذى أنشأ الخلق حين أراد بلا مُعين ولا مشير ، وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير ، فمضت فيهم بقدرته مشيئتُه ، ونفذت فيهم بعزته إرادته ، فألهمهم حسن الإطلاق ، وركَّبَ فيهم تشعُّبَ الأخلاق ، فهم على طبقاتِ أقدارهم يمشون ، وعلى تشعب أخلاقهم يدورون ، وفيما قضى وقدر عليهم يهيمون و (٢٣ : ٥٣ كل حزب بما لديهم فرحون) .

وأشهد أن لا إله إلا اللهُ فاطر السموات العلا ، ومنشىء الأرضين والثرى ، لامُعَقِّبَ لحكمه ولا راد لقضائه (٢١ : ٢٣ لا يُسْأَلُ عمَّا يفعل وهم يسألون) .

وأشهد أن محمداً عبده الْمُجْتَبى ، ورسوله المرتضى ، بعثه بالنور المضيّ ، والأمر المرضيّ ، على حين فترة من الرسل . ودروس من السُّبُل ، فدمغ به الطغيان ، وأكمل به الإيمان ، وأظهره على كل الأديان ، وقمع به أهل الأوثان ، فصلى الله عليه وسلم مادار فى السماء فَلَكَ ، وما سبح فى الملكوت مَلَك ، وعلى آله أجمعين !

أما بعد ، فإن الزمان قد تبيَّن للعاقل تغيرُهُ ، ولاح للّبيب تبدلهُ ، حيث يبِسَ ضَرْعُهُ بعد الغزارة ، وذَبلَ فرعُهُ بعد النَّضارة ، ونَحِلَ عُوده بعد الرطوبة ، وبَشِعَ مذاقه بعد العذوبة ، فنبغ فيه أقوام يَدَّعُون التمكن من العقل باستعمال ضد ما يوجب العقل من شهوات صدورهم ، وترك مايوجبه نفس العقل بهجسات

قلوبهم ، جعلوا أساس العقل الذى يعقدون عليه عند المعضلات : النفاقَ والمداهنة ، وفروعَه عند ورود النائبات حُسْن اللباس والفصاحة ، وزعموا أنَّ مَنْ أحكم هـذه الأشياء الأربعَ فهو العاقل ، الذى يجب الاقتـداء به ، ومن تخلف عن إحكامها فهو الأنوك[١] الذى يجب الإزورار عنه[٢] .

فلما رأيت الرَّعاع[٣] من العالم يغترون بأفعالهم والهمجَ من الناس يقتدون بأمثالهم ، دعانى ذلك إلى تصنيف كتاب خفيف ، يشتمل متضمنه على معنى لطيف ، ممـا يحتاج إليه العقلاء فى أيامهم ، من معرفة الأحوال فى أوقاتهم ، ليكون كالتذكرة لذوى الحجى[٤] عند حضرتهم ، وكالمعينِ لأولى النُّهَى عند غيبتهم ، يفوق العالِمُ به أقرانه ، والحافظ له أترابه ، يكون النديمَ الصادق للعاقل فى الخلوات ، والمؤنَس الحافظَ له فى الفلوات ، إن خَصَّ به من يحب من إخوانه ، لم يفتقده من ديوانه ، وإن استبد به دون أوليائه ، فاق به على نظرائه .

أُبَيِّنَ فيه مايُحْسُنُ للعاقل استعماله من الخصال المحموده ، ويقبح به إتيانه من الخلال المذمومة ، مع القصد فى لزوم الاقتصار ، وترك الإمعان فى الإكثار ، ليخِفَّ على حامله ، وتَعِيَهَ أذن مستمعه ، لأن فنون الأخبار وأنواع الأشعار ، إذا استقصى المجتهد فى إطالتها ، فليس يرجو النهاية إلى غايتها ، ومن لم يرجّ التمـكن من الـكمال فى الإكثار ، كان حقيقاً أن يقنع بالاختصار .

والله الموفق للسداد ، والهادى إلى الرشاد ، وإياه أسأل إصلاح الأسرار ، وترك المعاقبة على الأوزار ، إنه جواد كريم ، رءوف رحيم .

---

(١) الأنوك : أى الأحمق

(٢) الإزورار : الانقباض والتباعد

(٣) الرعاع : أى الجهلة والدهماء (٤) الحجى ــ بالـكسر مقصوراً ــ العقل . والنهى : جمع نهية ــ بالضم ــ وهى العقل أيضاً

ذكر الحث على لزوم العقل

وصفة العاقل اللبيب

حدثنا محمد بن يوسف بن مطر حدثنا عبد الله بن أحمد بن شَبُّويه حدثنا أحمد بن يونس حدثنا فُضَيْل بن عياض عن محمد بن ثور عن مَعْمَرَ عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب مكارم الأخلاق ، و يكره سفسافَها [١] » .

قال أبو حاتم : لست أحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم خبراً صحيحاً فى العقل ؛ لأن أبانَ بن أبي عياش ، وسلَمة بن وَرْدَانَ ، وعُمَيْر بن عمران ، وعليّ ابن زيد ، والحسن بن دينار ، وعبَّاد بن كثير ، وميسرة بن عبد ربه ؛ وداود ابن المحبر ، ومنصور بن صفر وذويهم ، ليسوا ممن احتج بأخبارهم ، فأخرجَ ماعندهم من الأحاديث فى العقل [٢] .

و إن محبة المرء المكارمَ من الأخلاق وكراهته سفسافها هو نفس العقل .

فالعقل به يكون الحظ ، ويؤنس الغربة ، ويَنْفِي الفاقة ، ولا مال أفضلَ منه ، ولا يتمُّ دين أحد حتى يتم عقله .

والعقل : اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب ، والعلم باجتناب الخطأ . فإذا كان المرء فى أول درجته يسمى أديباً ، ثم أريباً ، ثم لبيباً ، ثم عاقلا ، كما أن الرجل إذا دخل فى أول حد الدهاء قيل له : شيطان ، فإذا عَتا فى الطغيان قيل : مارِد . فإذا زاد على ذلك قيل: عَبْقَرِىّ [٣] فإذا جمع إلى خُبثه شِدَّة شرٍّ قيل : عِفْريت

---

(١) سفسافها : أى دنيئها وخسيسها (٢) أى أن هؤلاء الضعفاء والمجروحين رووا أحاديث فى فضل العقل لايراها المؤلف حجة لسقوط رواتها

(٣) عبقرى : نسبة إلى عبقر ، وهو مسكن الجن فى زعم العرب ، وهم ينسبون كل مايتعاظمونه ويرونه فوق متناولهم إلى عبقر .

وكذلك الجاهل ، يقال له فى أول درجته : المائق ، ثم الرقيع ، ثم الأنْوَكُ ، ثم الأحمق .

وأفضلُ مواهِب الله لعباده العقلُ ، ولقد أحسن الذى يقول :

وأفضل قَسْم الله للمرءِ عقلُهُ ... فليسَ من الخيرات شيء يقاربه
إذا أكملَ الرحمنُ للمرءِ عقلُهُ ... فقدْ كملتْ أخلاقهُ ومآربه
يعيشُ الفتى فى الناس بالعقل ، إنه ... على العقل يَجْرِى علمهُ وتجَارِبُهْ
يزيد الفتى فى الناس جَوْدَةُ عقلِه ... وإن كانَ محظوراً عليه مكاسِبُهْ

أخبرنا محمد بن سليمان بن فارس حدثنا أحمد بن سَيَّار حدثنا حَبيب الجلاّب قال : قيل لابن المبارك « ماخير ما أُعطِىَ الرجل ؟ قال : غريزة عقل ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أدب حسن ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أخ صالح يستشيره ، قيل: فإن لم يكن ؟ قال : صَمْتٌ طويل ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل »

أخبرنا محمد بن داود الرازى حدثنا محمد بن حُمَيْدٍ حدثنا ابن المبارك قال « سئل عقيل: ما أفضل ما أعْطى العبد ؟ قال : غريزة عقل . قال : فإن لم يكن ؟ قال : فأدب حسن ، قال : فإن لم يكن ؟ قال: فأخ شقيق يستشيره ، قال: فإن لم يكن ؟ قال : فطولُ صَمْت ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فموت عاجل » .

قال أبو حاتم : العقل نوعان : مطبوع ومسموع ، فالمطبوع منهما كالأرض، والمسموع كالبذر والماء . ولا سبيل للعقل المطبوع أن يخلص له عمل محصول دون أن يرد عليه العقل المسموع ، فينبهه من رَقْدَته ، ويطلقه من مكامنه ، يستخرج البذر والماء مافى قعور الأرض من كثرة الرّيْع .

فالعقل الطبيعى من باطن الإنسان بموضع عروق الشجرة من الأرض ، والعقل المسموع من ظاهره كتدلّى ثمرة الشجرة من فروعها .

أنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطى :

رأيت العقل نوعين ... فمطبوع ومسموع(١)
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضَوْء العين ممنوع

أخبرنا القطان بالرقة حدثنا موسى بن مروان حدثنا بقية عن عبد الله بن حسان حدثنى ابن عامر ، قال : قلت لعطاء بن أبى رباح « يا أبا محمد ، ما أفضل ما أعطى العبد ؟ قال : العقل عن الله » .

أنشدنى أحمد بن عبدالله الصنعانى لعبد الله بن عكراش :

يَزِينُ الفتى فى الناس صحة عقله ... وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يَشِينُ الفتى فى الناس خفةُ عقله ... وإن كرمت أعراقه ومَنَاسبه

قال أبو حاتم : فالواجب على العاقل : أن يكون بما أحيا عقلَه من الحكمة أكلَفَ(٢) منه بما أحيا جسده من القوت ، لأن قوت الأجساد المطاعم ، وقوت العقل الحكم ، فكما أن الأجساد تموت عند فقد الطعام والشراب ، وكذلك العقول إذا فقدت قُوتَها من الحكمة ماتت .

والتقلب فى الأمصار والاعتبار بخلق الله مما يزيد المرء عقلا ، وإن عَدم المال فى تقلبه .

أنشدنى عبد الرحمن بن محمد المقاتلى :

إن ذا العقلِ يرى غنما له ... عدَمَ المال ، إذا ما العقلُ صح
ماعلى المرء بِعُدْم سُبّةٌ ... إنْ وَفَا العقلُ ، وإنْ دينٌ صلح

أخبرنا محمد بن المسيب حدثنا أحمد بن إسماعيل المدنى قال : سمعت حاتم ابن إسماعيل يقول « ماستودع الله عقلا عبداً إلا استنقذه به يوماً ما » .

قال أبو حاتم : العقل دواء القلوب ، ومَطِية المجتهدين ، وبذر حراثة الآخرة ،

---

(١) حفظى * رأت العقل عقلين *
(٢) أكلف : أى أشد كلفا ، والكلف : المحبة

وتاج المؤمن فى الدنيا ، وعُدَّته فى وقوع النوائب ، ومن عدم العقل لم يزده السلطان عزا ، ولا المال يرفعه قدراً ، ولا عَقْلَ لمن أغفله عن أخراه ما يجد من لذة دنياه ، فكما أن أشد الزَّمَانة الجهل ، كذلك أشد الفاقة عدم العقل .

والعقل والهوى متعاديان ، فالواجب على المرء : أن يكون لرأيه مُسْعِفاً[١] ، ولهواه مسوّفا[٢] . فإذا اشتبه عليه أمران اجتنب أقربهما من هواه ؛ لأن فى مجانبته الهوى إصلاح السرائر ، و بالعقل تصلح الضمائر .

أخبرنا عمرو بن محمد الأنصارى ثنا[٣] ثنا محمد بن عبيد الله الجشمى حدثنا المداينى ، قال : قال معاوية بن أبى سفيان لرجل من العرب عُمِّرَ دهراً « أخبرنى بأحسن شىء رأيته ، قال : عقل طُلِبَ به مروءة مع تقوى الله وطلب الآخرة » .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

إذا تم عقل المرء تمت أموره وتمت أياديه ، وتم بناؤه

فإن لم يكن عقل تبين نقصه ولو كان ذا مال كثيراً عطاؤه

أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا أبو كامل الجحدرى[٤] حدثنا عمران بن خالد الخزاعى قال : سمعت الحسن[٥] يقول « ماتم دينُ عبد قطُّ حتى يتم عقله » .

قال أبو حاتم : أفضل ذوى العقول منزلَةً أدومُهم لنفسه محاسبة ، وأقلهم عنها فترة .

فبالعقل تعمر القلوب ، كما أن بالعلم تستخرج الأحلام ، وعمود السعادة العقل ، ورأس العقل الاختيار ، ولو صور العقل صورة لأظلمت معه الشمس لنوره ، فقرب العاقل مَرجُو خيره على كل حال ، كما أن أقرب الجاهل مَخُوف شره على كل حال .

---

(١) مسعفا : معينا مساعدا (٢) التسويف : التأخير عن كسل (٣) بياض بالأصل (٤) اسمه : فضيل بن حسين (٥) هو ابن أبى الحسن البصرى

ولا يجب للعاقل أن يغتم ؛ لأن الغم لاينفع . وكثرته تُزْرِى بالعقل ، ولا أن يحزن ؛ لأن الحزن لايردُّ الْمَرْزِئَةَ[١] . ودوامه ينقص العقل .

والعاقل يحسم الداء قبل أن يبتلى به ، ويدفع الأمر قبل أن يقع فيه ، فإذا وقع فيه رضى وصبر ، والعاقل لايخيف أحداً أبداً ما استطاع ، ولا يقيم على خوف وهو يجد منه مَذْهَباً ، وإذا خاف على نفسه الهوان طابت نفسه عما يملك من الطارف والتالد[٢] ، مع لزوم العفاف ، إذ هو قُطْب شُعَب العقل .

أنشدنى المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصارى :

أولستَ تأمر بالعفاف وبالتقى   وإليه آل الأمر حين يؤول ؟

فإن استطعت فخذ بعقلك فضلة   إن العقول يُرى لها تفضيل

أخبرنا الحسين بن إسحاق الأصبهانى بالكرج حدثنا محمد بن على الطاحى حدثنا عمرو بن عثمان الخزاز الحرانى حدثنا مفضل بن صالح قال علىّ[٣] : « لما أهبط الله آدم من الجنة أتاه جبريل ، فقال : إنى أمرت أن أخيرك فى ثلاثة ، فاختر واحدة ، ودع اثنين . فقال آدم : وما الثلاث ؟ قال : الحياء والدين والعقل ، فقال آدم : فإنى قد اخترت العقل . قال : فقال جبريل للحياء والدين : انصرفا ودَعَاه ، فقالا : إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان . ثم عرج جبريل وقال : شأنكم »

قال أبو حاتم : من حَسُنَ عقله وقبح وجهه فقد أفقد فضائل نفسه قبائح وجهه ، ومن حسن وجهه وقل عقله فقد أذهب مَحَاسِن وجهه نقائص نفسه ، فلا يجب للعاقل أن يغتم إذا كان معدماً[٤] ، لأن العاقل قد يرجى له الغنى ، [ولا] يوثق للجاهل المكثر ببقاء ماله ؛ ومال العاقل عقله وما قدم من صالح عمله .

---

(١) المصيبة التى ترزأ : أى تثقل الكاهل فينوء بها   (٢) الجديد والقديم
(٣) أى ابن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين
(٤) أى فقيراً .

وآفة العقل الصَّلَف[١] والبلاء المُرْدِى ، والرخاء المفرط ؛ لأن البلايا إذا تواترت عليه أهلكت عقله ، والرخاء إذا تواتر عليه أبطره ، والعدو العاقل خير للمرء من الصديق الجاهل .

أنشدنى على بن محمد البَسَّامى :

عدوك ذو العقل أبقى عليك   من الجاهل الوَامِق الأحمق[٢]

وذو العقل يأتى جميل الأمور   ويقصد للأرشد الأرفق

أخبرنا محمد بن الحسين بن قتيبة بعسقلان حدثنا ابن أبى السري حدثنا داود بن الجراح وضمرة بن ربيعة عن خليد بن دعلج قال : سمعت معاوية بن قرة يقول « إن القوم ليحجون ويعتمرون ، ويجاهدون ويصلون ، ويصومون ، وما يُعْطَوْنَ يوم القيامة إلا على قدر عقولهم » .

سمعت محمد بن محمود بن عدى النسأى يقول : سمعت على بن خشرم يقول : سمعت حفص بن حميد الأكّاف يقول : « العاقل لايغبَن ، والورع لا يغبِن »

قال أبو حاتم : هذه لفظة جامعة ، تشتمل على معان شتى ، فكما لا ينفع الاجتهاد بغير توفيق ، ولا الجمال بغير حلاوة ، ولا السرور بغير أمن ، كذلك لا ينفع العقل بغير ورع ، ولا الحفظ بغير عمل ، وكما أن السرور تبع للأمن ، والقرابة تبع للمودة ، كذلك المروءات كلها تبع للعقل .

وعقول كل قوم قدر زمانهم ، فالعاقل يختار من العمر أحسنه وإن قل ، فإنه خير من الحياة النكدة وإن طالت ، والعقل الموعَى ـ غير المنتفع به ـ كالأرض الطيبة الخراب .

والعاقل لايبتدىء الكلام إلا أن يُسْأَل ، ولا يكثر التمارى[٣] إلا عند القبول ، ولا يسرع الجواب إلا عند التثبت .

---

(١) أى الكبر (٢) الوامق : المحب ، ومق يمق مقة : أحب .
(٣) التمارى : أى البحث والمحاورة .

والعاقل لايستحقر أحداً ؛ لأن من استحقر السلطان أفسد دنياه ، ومن استحقر الأتقياء أهلك دينه ، ومن استحقر الإخوان أفنى مروءته ، ومن استحقر العام[١] أذهب صيانته .

والعاقل لايخفى عليه عيب نفسه ؛ لأن من خفى عليه عَيبُ نفسه خفيتْ عليه محاسن غيره ، وإن من أشد العقوبة للمرء أن يخفى عليه عيبه ؛ لأنه ليس بمقلع عن عيبه من لم يعرفه ، وليس بنائل محاسن الناس من لم يعرفها ، وما أنفع التجارب للمبتدى .

أنشدنى المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصارى :

ألم تر أن العقل زين لأهله ... وأن كمال العقل طولُ التجارب
وقد وعظ الماضى من الدهر ذا النهى[٢] ... ويزداد فى أيامه بالتجارب

أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن الحكم ابن عبد الله قال « كانت العرب تقول : العقل التجارب ، والحزم سوء الظن »

قال أبو حاتم : لايكون المرء بالمصيب فى الأشياء حتى تكون له خبرة بالتجارب

والعاقل يكون حَسَنَ المأخذ فى صغره، صحيح الاعتبار فى صباه، حسن العفة عند إدراكه ، رضى الشمائل فى شبابه ، ذا الرأى والحزم فى كهولته يضع نفسه دون غايته برتوة[٣] . ثم يجعل لنفسه غاية يقف عندها ، لأن من جاوز الغاية فى كل شىء صار إلى النقص .

ولا ينفع العقل إلا بالاستعمال ، كما لاتنفع الأعوان إلا عند الفرصة ، ولاينفع الرأى إلا بالانتخال[٤] ، كما لاتتم الفرصة إلا بحضور الأعوان .

ومن لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه أخاف أن يكون حتفه[٥] فى أقرب الأشياء إليه .

---

(١) العام : أى العوام والجمهور (٢) النهى : جمع نهية : أى العقل .
(٣) فى القاموس ـ الرتوة : بالتاء المثناة ـ الخطوة (٤) الانتخال : الاستخلاص والتمحيص من نخل الطحين لأخذ حواره (٥) حتفه : أى هلاكه .

ورأس العقل : المعرفة بما يمكن كونه قبل أن يكون .

والواجب على العاقل أن يجتنب أشياء ثلاثة ، فإنها أسرع فى إفساد العقل من النار فى يَبِيس العَوْسَج : الاستغراق فى الضحك ، وكثرة التمنى ، وسوء التثبت ؛ لأن العاقل لايتكلف مالا يطيق ، ولا يسعى إلا لما يدرك ، ولا يَعِدُ إلا بما يقدر عليه ، ولا ينفق إلا بقدر مايستفيد ، ولا يطلب من الجزاء إلا بقدر ماعنده من الغَنَاء[1] ولا يفرح بما نال إلا بما أجدى[2] عليه نفعه منه .

والعاقل يبذل لصديقه نفسَه ومالَه ، ولمعرفته رِفْدَه ومحضره ، ولعدوه عدله وبره ، وللعامة بِشْره وتحيته ، ولا يستعين إلا بمن يحب أن يظفر بحاجته ، ولا يحدث إلا من يرى حديثه مغنما ، إلا أن يغلبه الاضطرار عليه ، ولا يدعى مايحسن من العلم لأن فضائل الرجال ليست ما ادَّعَوْها ولكن ما نسبها الناسُ إليهم ، ولا يبالى مافاته من حُطَام الدنيا ، مع مارزق من الحظ فى العقل .

أنشدنى عبد الرحمن بن محمد المقاتلى :

فمن كان ذا عقل ، ولم يك ذاغنى   يكون كذى رِجْلٍ ،وليست له نَعْلُ
ومن كان ذا مال ،ولم يك ذا حِجَى   يكون كذى نعل ،وليست له رجل

قال أبو حاتم : كفى بالعاقل فضلا و إن عدم المال : بأن تُصْرَف مساوى أعماله إلى المحاسن ، فتجعل البلادة منه حلماً ، والمكر عقلا ، والهذر[3] بلاغة ، والحدة ذكاء ، والعى صمتاً ، والعقوبة تأديباً ، والجرأة عزماً ، والجبن تأنياً ، والإسراف جوداً ، والإمساك تقديراً ، فلا تكاد ترى عاقلا إلا موقراً للرؤساء ، ناصحاً للأقران ، مواتياً للاخوان ، متحرزاً من الأعداء ، غير حاسد للأصحاب ، ولا مخادع للأحباب ، ولا يتحرش بالأشرار ، ولا يبخل فى الغنى ، ولا يَشْرَهُ فى الفاقة ، ولا ينقاد للهوى ، ولا يجمح فى الغضب ، ولا يمرح فى الولاية ، ولايتمنى مالايجد ، ولا يكتنز إذا وجد ، ولا يدخل فى دعوى ، ولا يشارك فى مِرَاء ،

---
(١) الغناء : النفع (٢) أجدى : أى عاد عليه بالنفع (٣) الهذر : كثرة الكلام

ولا يُدْلِي بحجة حتى يرى قاضياً ، ولا يشكو الوجع إلا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يمدح أحداً إلا بما فيه ؛ لأن من مدح رجلا بما ليس فيه فقد بالغ فى هجائه ، ومن قبل المدح بما لم يفعله فقد استهدف للسخرية .

والعاقل يكرم على غير مال كالأسد يُهاب وإن كان رابضاً[١] .

وكلام العاقل يعتدل كاعتدال جسد الصحيح ، وكلام الجاهل يتناقض كاختلاط جسد المريض .

وكلام العاقل وإن كان نَزْراً[٢] حظوة عظيمة ، كما أن مقارفة المأثم وإن كان نزراً مصيبة جليلة .

ومن العقل التثبت فى كل عمل قبل الدخول فيه .

وآفة العقل العجب ، بل على العاقل أن يوطِّن نفسه على الصبر على جار السوء ، وعشير السوء ، وجليس السوء ، فإن ذلك مما لايخطيه على ممر الأيام .

ولا يجب للعاقل أن يحب أن يسمَّى به ، لأن من عرف بالدهاء حذر ، ومِنْ عقل العاقل دفن عقله ما استطاع ، لأن البذر وإن خفى فى الأرض أياماً فإنه لابد ظاهر فى أوانه ، وكذلك العاقل لايخفى عقلُه وإن أخفى ذلك جهده .

وأول تمكن المرء من مكارم الأخلاق هو لزوم العقل .

أنشدنى على بن محمد البسامى :

إن المكارم أبوابٌ مُصَنَّفَة فالعقل أولُها والصمت ثانيها
والعلم ثالثها ، والحلم رابعها ، والجود خامسها ، والصدق ساديها[٣]
والصبر سابعها ، والشكر ثامنها واللين تاسعها ، والصدق عاشيها

أخبرنا عمر بن عبد الله بن عمر الهجرى بالأبلة حدثنا عبد الله بن خبيق حدثنا موسى بن طريف قال شعيب بن حرب : قال لى شعبة « عقولنا قليلة ، فإذا جلسنا مع من هو أقل عقلا منا ذهب ذلك القليل ، وإنى لأرى الرجل يجلس

(١) ربض الأسد : جثم (٢) نزراً : قليلا (٣) ساديها : لغة فى سادسها .

مع من هو أقل عقلاً منه فأمقته [١] » .

قال أبو حاتم : أول خصال الخير للمرء فى الدنيا العقل ، وهو من أفضل ماوهب الله لعباده فلا يجب أن يدنس نعمة الله بمجالسة من هو بضدها قائم .

والواجب على العاقل : أن يكون حسن السَّمْت [٢] طويل الصمت ، فإن ذلك من أخلاق الأنبياء ، كما أن سوء السَّمْت وترك الصمت من شِيَم الأشقياء .

والعاقل لا يطول أمله ؛ لأن من قوى أمله ضعف عمله ، ومن أتاه أجله لم ينفعه أمله .

والعاقل لا يقاتل من غير عُدة ، ولا يخاصم بغير حجة ، ولا يصارع بغير قوة ، لأن بالعقل تحيا النفوس ، وتنور القلوب ، وتمضى الأمور ، وتعمر الدنيا .

والعاقل يقيس مالم ير من الدنيا بما قد رأى ، ويضيف مالم يسمع منها إلى ماقد سمع ، ومالم يصِب منها إلى ماقد أصاب ، وما بقى من عمره بما فنى ، ومالم ينل منها بما قد أوتى ، ولا يتكل على المال وإن كان فى تمام الحال ، لأن المال يحل ويرتحل ، والعقل يقيم ولا يبرح ، ولو أن العقل شجرة لكانت من أحسن الشجر ، كما أن الصبر لو كان ثمرة لكان من أكرم الثمر .

والذى يزداد به العاقل من نماء عقله ، هو التقرب من أشكاله ، والتباعد من أضداده .

ولقد أخبرنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا أبو جعفر ابن ابنة أبى سعيد الثعلبى حدثنا محمد بن أبى مالك الغزى ، قال : سمعت أبى يقول « جالسوا الألباء [٣] . أصدقاء كانوا أو أعداء ؛ فإن العقول تلقح [٤] العقول » .

قال أبو حاتم : مجالسة العقلاء لا تخلو من أحد معنيين : إما تذكر الحالة

---

(١) المقت : أشد البغض (٢) السمت : أى الهيئة والمنظر .
(٣) الألباء : جمع لبيب ، واللبيب : ذو اللب وهو العقل .
(٤) أى : تفيدها وتنورها .

التى يحتاج العاقل إلى الانتباه لها ، أو الإفادة بالشىء الخطير الذى يحتاج الجاهل إلى معرفتها .

فقرب العاقل غُنْم لأشكاله وعِبْرة لأضداده ، على الأحوال كلها .

ولا يجب لمن تسمى به أن يتدلل إلا على من يحتمل دلاله ، ويقبل إلا على من يحب إقباله ، ولو كان للعقل أبوان لكان أحدهما الصبر ، والآخر التثبت .

جعلنا الله ممن رُكِّبَ فيه حسن وجود العقل ، فسلك بتمام النعم مسلك الخصال التى تقربه إلى ربه ، فى دارى الأمد والأبد ، إنه الفعال لما يريد .

ذكر إصلاح السرائر بلزوم تقوى الله

أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن زهير ـ بتُسْتَر ـ حدثنا عمر بن شَبَّة حدثنا مؤمل بن إسماعيل حدثنا شعبة عن زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما كَرِهَ اللهُ منك شيئاً فلا تفعله إذا خلوتَ »

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل الحازم أن يعلم أن للعقل شُعَباً من المأمورات والمزجورات ، لابد له من معرفتها ، واستعمالها فى أوقاتها ، لمباينة العامِّ ، وأوباش الناس بها .

وإنى ذاكر فى هذا الكتاب ـ إنِ اللهُ قضى ذلك وشاءه ـ خمسين شُعبة من شُعَب العقل من المأمورات والمزجورات ، ليكون الكتاب مشتملا على خمسين باباً ، بناء كل باب منها على سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نتكلم فى عقيب كل سُنَّة منها بحسب ما يَمُنُّ اللهُ به من التوفيق لذلك إن شاء الله .

فأول شعب العقل هو لزوم تقوى الله ، وإصلاح السريرة ، لأن من صَلُح جُوّانيه أصلح الله بَرّانيه ، ومن فَسَدَ جُوَّانيه أفسد الله برانيه .

ولقد أحسن الذى يقول :

إذا ماخلوتَ الدهر يوماً فلا تَقُلْ ... خلوتُ ، ولكن قُل : علىّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ الله يغفلُ ساعة ... ولا أَنَّ مايَخْفَى عليه يغيبُ

ألم تر أنَّ اليوم أسرعُ ذاهبٍ   وأنَّ غداً للناظرين قريبُ ؟

أخبرنا عبد الله بن محمود بن سليمان السعديّ حدثنا شعبة بن هبيرة حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال « اتخذْ طاعةَ الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة » .

قال أبو حاتم : قطبُ الطاعات للمرء فى الدنيا : هو إصلاح السرائر ، وترك إفساد الضمائر .

والواجب على العاقل الاهتمام بإصلاح سريرته ، والقيامُ بحراسة قلبه عند إقباله و إدباره ، وحركته وسكونه ؛ لأن تكدُّر الأوقات وتنغُّص اللذات لا يكون إلا عند فساده .

ولولم يكن لإصلاح السرائر سبب يؤدى العاقلَ إلى استعماله إلا إظهار الله عليه كيفيةَ سريرته ، خيراً كان أو شراً ، لكان الواجبُ عليه قِلةَ الإغضاء عن تعاهدها .

أنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

يُلبس اللهُ فى العلانية العبـ   ـدَ الذى كان يَختفِى فىالسريرهْ
حسنًا كان ، أوقبيحًا سَيُبْدَى   كلُّ مَا كان ثَمَّ من كلِّ سِيرهْ
فاستحِ اللهَ أن تُرَائِيَ للناس   فإنَّ الرياء بئسَ الذَّخيرهْ

أخبرنا أبو يَعْلى حدثنا شُريح بن يونس حدثنا عُبَيْدة بن حُمَيْد عن منصور عن عطاء بن أبى رباح عن أبيه قال : قال كعب « والذى فلقَ البحر لبنى إسرائيل ، إنى لأجد فى التوراة مكتوباً : ياابن آدم ، اتَّقِ ربَّكَ ، وصِلْ رحمك ؛ وبرَّ والديك ؛ يُمدَّ لك فى عُمُرِك ؛ ويُيَسِّر لك يُسرك . ويَصْرِفْ عنك عُسْرك » .

حدثنا محمد بن سليمان بن فارس حدثنا محمد بن على الشقيقى حدثنا أبى حدثنا جعفر بن سليمان الضبعى عن مالك بن دينار قال « إن القلب إذا لم يكن

فيه حزن خَرِبَ ، كما يَخرب البيت إذا لم يكن فيه ساكن ، وإن قلوب الأبرار تَغْلى بأعمال البِرِّ ، وإن قلوب الفُجَّار تغلى بأعمال الفجور . والله يرى همومكم ، فانظروا ماهمومكم ؟ رحمكم الله » .

أنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

وإذا أعلنتَ أمراً حَسَنا فليكنْ أحسنَ منه ماتُسِر

فمسرُّ الخير موسومٌ به ومسِرَّ الشرِّ موسوم بشَرْ

أخبرنا أبو يعلى حدثنا شريح بن يونس حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم قال « إن الرجل ليتكلم بالكلام ينوى فيه الخير . فيلقى الله فى قلوب العباد ، حتى يقولوا : ماأراد بكلامه هذا إلا الخير ، وإن الرجل ليتكلم بالكلام الشر لا ينوى فيه الخير ، فيلقى الله فى قلوب الناس حتى يقولوا : ماأراد بكلامه هذا إلا الشر » .

حدثنا محمد بن عمر الهَمْدانى حدثنا القَطَوانى حدثنا سَيَّار حدثنا حماد بن زيد عن أيوب قال : سمعت الحسن يقول « إنكم وقوفٌ هاهنا تنتظرون آجالكم وعند الموت تَلْقَوْنَ الخير ، فخذوا مما عندكم لما بعدكم » .

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل أن يأخذ مما عنده لما بعده من التقوى والعمل الصالح : بإصلاح السريرة ، ونَفْى الفساد عن خَلل الطاعات عند إجابة القلب وإبائه . فإذا كان صحة السبيل فى إقباله موجوداً أنفذه بأعضائه وإن كان عدم وجوده موجوداً كبحه عنها ، لأن بصفاء القلب تصفو الأعضاء .

وأنشدنى المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصارى :

وإنّ امرأً لم يَصْفُ لله قلبه لَفِي وَحْشَةٍ من كُلِّ نظرة ناظر

وإنَّ امرأً لم يرتحل ببضاعة إلى داره الأخرى فليس بتاجر

وإن امرأً ابتاع دنيا بدينه لمنقلبٌ منها بصَفْقَة خاسر

أخبرنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبار الصوفى ببغداد حدثنا أبو نصر التمار

حدثنا أبو الأشهب عن خالد الربعى قال « كان لقمان عبداً حبشياً نجارا ، فأمره سيده أن يذبح شاة ، فذبح شاة ، فقال : ائتنى بأطيب مُضْغَتين فى الشاة ، فأتاه باللسان والقلب ، ثم مكث أياما ، فقال : اذبح شاة ، فذبح ، فقال : ائتنى بأخبث مضغتين فى الشاة ، فألقى إليه اللسان والقلب ، فقال له سيده : قلت لك حين ذبحت ائتنى بأطيب مضغتين فى الشاة ، فأتيتنى باللسان والقلب ، ثم قلت لك الآن حين ذبحتَ الشاة : ائتنى بأخبث مضغتين فى الشاة ، فألقيت اللسان والقلب ؟ فقال : إنه لا أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا » .

وأنشدنى منصور بن محمد الكُرَيْزى :

وما المرء إلا قلبُه ولسانُه إذا حصلت أخبارُهُ ومَدَاخله
إذا ما رداءُ المرء لم يَكُ طاهراً فهيهات أن يُنقِيه بالماء غاسلُه
وما كلُّ من تخشى ينالُك شَرُّه وما كلُّ ما أَمَّلْتَه أنتَ نائلُه

أخبرنا أحمد بن عيسى بن السُّكَيْن ـ بواسط ـ حدثنا عبدالحميد بن محمد بن مُسْتام حدثنا مَخْلد بن يزيد حدثنا صالح بن حسان المؤذن قال « دخلت على عمر ابن عبد العزيز ، فسمعته يقول : لا يتقى الله عبدٌ حتى يجدَ طعم الذل » .

قال أبو حاتم : العاقل يفتش قلبه فى ورود الأوقات ، ويكبح نفسه عن جميع المزجورات ، ويأخذها بالقيام فى أنواع المأمورات ، ولزوم الانتباه عند ورود الفترة فى الحالات ، ولا يكون المرء يشاهد ما قلنا قائماً حتى يوجد منه صحة التثبت فى الأفعال .

أنشدنى على بن محمد البسامى :

وإذا بحثتَ عن التَّقِيِّ وجدته رجلاً يصدِّقُ قوله بفعال
وإذا اتَّقَى اللهَ امرؤ وأطاعه فيداهُ بين مكارمٍ ومَعَالِ
وعلى التقيِّ إذا تراسخ فى التقى تاجان : تاجُ سكينة ، وجمال
وإذا تناسبت الرجالُ ، فما أرى نسباً يكون كصالح الأعمال

أخبرنا القطان بالرقة حدثنا عبد الله بن رومى البزاز عن أبيه قال : قلّما دخلت على إسحاق بن أبي ربعى الرافقي إلا وهو يتمثل بهذا البيت :

خيرٌ من المال والأيامُ مقبلةٌ   جَيْبٌ نَقِيٌّ من الآثام والدَّنَس[1]

أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله عن عبد الله أخبرنا الربيع عن الحسن قال « أفضل العمل الورَعُ والتفكر »

قال أبو حاتم : العاقل يدبر أحواله بصحة الورع ، ويمضى لسانه بلزوم التقوى ، لأن ذلك أول شُعَب العقل ، وليس إليه سبيل إلا بصلاح القلب .

ومثل قلب العاقل إذا لزم رعايةَ العقلِ ـ على ما نذكرها فى كتابنا هـذا إن اللهُ قضى ذلك وشاءه ـ كأنّ قلبه شُرِّح بسكاكين التُّقْية ، ثم مُلِّح بِمِلْحِ الخَشْية ، ثم جُفِّف برياح العَظَمة ، ثم أحيي بماء القُربة ، فلا يوجد فيه إلاّ ما يُرضِي المولى جل وعلا ، ولا يبالى المرء إذا كان بهذا النعت أن يَتَّضع عند الناس ، ومحالٌ أن يكون ذلك أبداً .

سمعت أحمد بن موسى بواسط يقول « وجد [ت] على خف عطاء السُّلمى مكتوبا ، وكان حائكا » :

ألا إنما التقوى هو العز والـكرمْ   وحُبُّك بالدنيا هو الذلُّ والعَدمْ

وليس على عبد تقيٍّ نقيصةٌ   إذاصحح التقوى ، و إن حاكأوحجَمْ

أخبرنا محمد بن زنجويه القشـيرى حدثنا عمرو بن على حدثنا طريف بن سعيد حدثنا القاسم بن عبد الله الأنصارىّ عن محمد بن علىّ بن حسين قال « إذا بلغ الرجل أربعين سنة ناداه مناد من السماء : دنا الرحيلُ ، فأعدَّ زاداً » .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

إذا انتسب الناسُ كان التقىْ   بتقواه أفضلَ من ينتسب

ومن يتق الله يَكْسِب به   من الحظِّ أفضـلَ ما يكتسب

ومن يتخذ سبباً للنجـــــاة   فإنَّ تُقَى الله خيرُ السبب

---

(١) نقاء الجيب : كناية عن طهارة القلب .

وأنشدنى أحمد بن محمد بن عبد الله الصنعانى لابن عِكراش :

ومهما يُسِرّ المرء يَبْدُ لِرَبِّه   وما يَنْسَه الإنسان لا يَنْسَ كاتبه
ومن كان غَلَّابا بجهد ونَجْدَة   فذو الحظِّ فى أمر المعيشة غالبه

وأنشدنى أبو بدر أحمد بن خالد بن عبيد الله بن عبد الملك بحرّان :

يانفسُ ، ما هو إلا صبرُ أيامٍ   كأنّ لَذَّاتِها أضغاثُ أحلام
يانفس جُوزى عن الدنيا مبادِرَة   وخَلِّ عنها ، فإن العيش قُدّامى

أخبرنا الحسين بن إدريس الأنصارىّ أخبرنا سويد بن نصر أخبرنا عبدالله أخبرنا سفيان عن معن قال : قال عبد الله « إن لهذه القلوب شهوة و إقبالا ، و إن لها فَتْرةً و إدبارا ، فخذوها عند شهوتها و إقبالها ، ودَعُوها عند فترتها و إدبارها » .

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل أن لا ينسى تعاهد قلبه بترك ورود السبب الذى يُورث القساوة له عليه ؛ لأن بصلاح الملك تصلح الجنود ، و بفساده تفسد الجنود ، فإذا اهتم بإحدى الخصلتين تجنّب أقربهما من هواه ، وتَوَخَّى[(١)] أبعدهما من الردى .

ولقد أحسن الذى يقول :

و إذا تشاجر فى فؤادك مَرَّةً   أمران ، فاعْمَدْ للأعفِّ الأجمل
و إذا هممت بأمر سوءٍ ، فاتّئِدْ   و إذا هممتَ بأمر خير فافْعَلِ

أخبرنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحى بالبصرة ، حدثنا إبراهيم بن عَزْرة الشامى عن مِسْعر بن كُدام عن عَوْن بن عبد الله قال : قال عمر بن الخطاب « جالسوا التَّوابين ، فإنهم أرقُّ أفئدة » .

أخبرنا أبو يعلى حدثنا محمد بن عمرو بن جَبَلَة حدثنا محمد بن مروان حدثنا عطاء الأزرق قال : قال رجل للحسن « يا أبا سعيد ، كيف أنت؟ وكيف حالك؟

---

(١) توخى : قصد ، والردى : الهلاك .

قال : كيف حال مَنْ أمسى وأصبح ينتظر الموت ، ولا يدرى ما يُصْنَع به » .

وأنشدنى منصور بن محمد الـكريْزى :

تخيَّر قريناً من فِعالك ، إنما يَزينُ الفتى فى القبر ما كان يفعلُ
فإن كنتَ مشغولا بشىء، فلاتكن بغير الذى يَرْضَى به الله تُشْغَلُ
فلا بدَّ بعدَ القبرِ من أن تُعِدَّه ليوم ينادَى المرء فيه ، فيسألُ
فلن يصحب الإنسان مِنْ قبل موته ولا بعده إلا الذى كان يَعملُ
ألا إنما الإنسـان ضيفٌ لأهله يُقيم قليلا بينهم ثم يرحَلُ

أخبرنا على بن سعيد العسكرى حدثنا إبراهيم بن الجنيد حدثنا محمد بن الحسين حدثنا إسماعيل بن زياد قال « قدم علينا عبد العزيز بن سليمان عَبَّادَانَ فى بعض قَدَماته ، فأتيناه نُسَلِّم عليه ، فقال لنا : صَفوا للمنعِمِ قلوبكم ، يَـكفِكُم المؤنَ عند همِّـكم » ثم قال « لو خدمت مخلوقاً فأطلْتَ خِدْمته ، ألم يكنْ يَرْعَى لخدمتك حُرْمَةً ؟ فكيف بمن يُنعِم عليك وأنت مُسِىء إلى نفسك ، تَتقلّب فى نعمه ، وتَتَعَرَّض لغضبه ؟ هيهات هيهات ، همَّة البطالين ، ليس لهذا خلقتم ، ولا بذا أُمرتم ، الـكَيْسَ الـكَيْسَ رحمَكم الله » وكان يفطر على ماء البحر .

قال أبو حاتم : لن تصفو القلوب من وجود الدَّرن فيها حتى تكون الهمم فى الله همًّا واحداً ، فإذا كان كذلك كُفِىَ الهمَّ فى الهموم إلا الهم الذى يؤول مُتَعَقَّبُه [1] إلى رضا البارى جل وعز ، بلزوم تقوى الله فى الخلوة والملإ إذ هو أفضل زادِ العقلاء فى دارَيْهِـمْ وأجلُّ مَطِيَّة الحكماء فى حالَيْهم .

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطى :

عليك بتقوى الله فى كل أمره تجد غِبَّه يوم الحساب المطوَّل [2]

---

(١) متعقبه — بضم الميم وفتح التاء والعين ، وتشديد القاف مفتوحة — أراد عاقبته .

(٢) الغب بالـكسر : عاقبة الشىء كالمغبة ، بالفتح .

ألا إن تقوى الله خيرُ مغبةً وأفضل زادِ الطاعن المترحِّل

قال أبو حاتم : قد ذكرت هـذا الباب بكماله بالعلل والحكايات فى كتاب مَحَجَّة المبتدئين بما أرجو الغُنْيَة للناظر إذا ما تأملها ، فأغنى ذلك عن تكراره فى هذا الكتاب .

ذكر الحث على لزوم العلم والمداومة على طلبه

أخبرنا محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا محمد بن يحيى ومحمد بن رافع قالا : حدثنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن عاصم بن أبى النجود عن زِرِّ بن حُبَيش قال : « أتيت صفوان بن عَسَّال المرادى ، فقال : ماجاء بك ؟ قلتُ : جئت أنبُط العلم [(١)] قال : فإنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من خارج يخرج من بيته يطلب العلم إلا وضعت له الملائكةُ أجنحتها رِضاً بما يَصنع » .

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل إذا فرغ من إصلاح سريرته : أن يُثَنِّىَ بطلب العلم والمداومة عليه ، إذ لا وصول للمرء إلى صفاء شىء من أسباب الدنيا إلا بصفاء العلم فيه ، وحكم العاقل أن لا يُقَصِّرَ فى سلوك حالة توجب له بَسْطَ الملائكة أجنحتها رضاً بصنيعه ذلك .

ولا يجب أن يكون متأملا فى سعيه الدنو من السلاطين ، أوْ نوال الدنيا به ، فما أقبح بالعالم التذللَ لأهل الدنيا ! .

حدثنا محمد بن إبراهيم الخالدى حدثنا داود بن أحمد الدمياطى حدثنا عبد الرحمن بن عَفّان قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول « ما أقبح بالعالم يؤتى إلى منزله ، فيقال : أين العالم ؟ فيقال : عند الأمير ، أين العالم ؟ فيقال : عند القاضى ، ما للعالم وما للقاضى ؟ وما للعالم وما للأمير ؟ ينبغى للعالم أن يكون فى مسجده يقرأ فى مُصْحَفه » .

---

(١) نبط العلم : استخرجه ، والأصل فيه استنباط الماء من البئر ونحوه .

حدثنا أبو يعلى حدثنا غسان بن الربيع حدثنا سليم مولى الشعبى عن الشعبى قال « ياطلابَ العلم ، لا تطلبوا العلم بسفاهة وطَيْشٍ ، اطلبوه بسَكِينة ووَقارٍ وتُؤدَة » .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

وفى العلم والإسلام للمرء وازع   وفى ترك طاعاتِ الفؤاد المتيمِّ

بصائرُ رُشْدٍ للفتى مُسْتَبِينة   وإخلاص صدق علمها بالتعلم

أخبرنا إبراهيم بن نصر (١) حدثنا عبد بن حميد حدثنا سعيد بن عامر عن حميد بن الأسود عن عيسى بن أبى عيسى الخياط قال : قال الشعبى « إنما كان يطلب هذا العلم من اجتمعت فيه خَصلتان : العقل ، والنسك ، فإن كان عاقلا ولم يك ناسكا قيل : هذا أمر لاينالِه إلا النساك ، فلم يطلبه ، و إن كان ناسكا ولم يكن عاقلا قيل : هذا أمرٌ لاينالُه إلا العقلاء ، فلم يطلبه » قال الشعبى : « فلقد رهبت أن يكون يطلبه اليومَ من ليس فيه واحدة منهما ، لا عقلٌ ولا نسك » .

قال أبو حاتم : العاقل لا يبيع حظ آخرته بما قصد فى العلم لما يناله من حُطام هذه الدنيا ؛ لأن العلم ليس القصد فيه نفسه دون غيره ؛ لأن المبتَغَى من الأشياء كلِّها نفعُها لا نفسها ، والعلم ونفس العلم شيئان ، فمن أغضَى عن نفعه لم ينتفع بنفسه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، والعلم له أول وآخر .

كما حدثنا أحمد بن على بن المثنى حدثنا عمرو الناقد حدثنا يحيى بن اليمان قال : سمعت سفيان يقول « أول العلم الإنصات ، ثم الاستماع ، ثم الحفظ ، ثم العمل به ، ثم النشر » وأنشدنى الأبرش :

تعلَّمْ فليس المرء يولد عالماً   وليس أخو علم كمن هو جاهلُ

و إنَّ كبير القوم لا عِلمَ عنده   صَغيرٌ إذا التفَّت عليه المحافِلُ

---

(١) بياض بالأصل .

أخبرنا أبو يعلى حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطلقانى حدثنا جرير عن بُرْدِ بن سنان عن سليمان بن موسى قال: قال أبو الدرداء « لا تكونُ عالماً حتى تكونْ متعلماً ، ولا تكون بالعلم عالماً حتى تكون به عاملا » .

قال أبو حاتم : العاقل لا يشتغل فى طلب العلم إلا وقصدُه العملُ به ؛ لأن من سعى فيه لغير ماوصفنا ازداد فخراً وتجبراً وللعمل تركا وتضييعاً ، فيكون فسادُه فى المتأسِّين به فيه أكثرَ من فساده فى نفسه ويكون مَثَله كما قال الله تعالى (١٦ : ٢٥ وَمِنْ أوزارِ الذين يُضِلونهم بغير عِلم . ألا ساء ما يَزِرون) .

أخبرنا محمد بن إبراهيم الخالدى حدثنا داود بن أحمد حدثنا عبد الرحمن ابن عفان قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول « فى جهنم أرْحِيةٍ تَطْحن العلماء طَحْناً ، فقيل : من هؤلاء ؟ قال : قوم علموا فلم يعملوا » .

أخبرنا عبد الله بن محمد السعدى حدثنا محمد بن النضر بن مساور حدثنا جعفر ابن سليمان عن مالك بن دينار قال « إذا طلب الرجل العلم ليعمل به سَرَّه علمه ، وإذا طلب العلم لغير أن يعمل به زاده علمه فخراً » .

أخبرنا محمد بن عمر بن سليمان حدثنا محمد بن رافع حدثنا محمد بن بشر حدثنى سلمة بن الخطاب عن عبد الحميد بن أبى جعفر الفراء قال : قال الحسن « مَنْ أَحَبَّ الدنيا وسرته ذهب خوفُ الآخرة من قلبه ، ومن أراد علماً ثم ازداد على الدنيا حرصاً لم يزدد من الله إلا بعداً ، ولم يزدد من الله إلا بغضاً » .

أخبرنا محمد بن المنذر بن سعيد حدثنى أحمد بن إبراهيم الحدثى حدثنى إسماعيل بن الحارث حدثنى محمد بن الحسن المدينى حدثنا أبو العوام « أن إبراهيم سمع صوت هاتف ، وهو يقول :

يا طالب العلم باشِرِ الورعا ... وباين النوم ، واهجر الشِّبعاَ
ما ضر عبداً صحت إرادته ... أجاع يوماً فى الله أو شبعا

ما ضر عبداً صحت عزائمه   أين من الأرض ، أينما صقعا[1]
ما طمعت نفس عابد فنوى   سؤال قوم إلا لهم خضعا
ياأيها الناس ، مالعالمكم   فى بحر ماء الملوك قد كرعا[2]
ياأيها الناس ، أنتم زرع   يحصده الموت كلما طلعا

أخبرنا ابن سالم حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطى حدثنا يحيى بن اليمان العجلى عن سفيان الثورى قال « العالم طبيب الدين ، والدرهم داء الدين ، فإذا اجتر الطبيب الداء إلى نفسه ، فمتى يداوى غيره ؟ » .

أنشدنى أحمد بن محمد الصنعانى أنشدنى محمد بن عبد الله العراقى :

عُنوا يطلبون العلم فى كلِّ بلدة   شباباً ، فلما حَصَّلوه وحَشَّروا
وصحَّ لهم إسناده وأصوله   وصَاروا شيوخاً ضَيَّعوه وأدبروا
ومالوا على الدنيا ، فهم يحلبُونها   بأخلافها مفتوحُها لا يُصَرَّرُ[3]
فياعلماء السوء أين عقولكم ؟   وأين الحديثُ المسند المتخيِّر ؟

أخبرنا جعفر بن محمد الهمدانى ــ بصُورَ ــ حدثنا محمد بن عبد الله البعلبكى قال : سمعت عمى محمد بن زيد قال « كنتُ مع ابن المبارك ببغداد . فرأى إسماعيل ابن عُلَيَّةَ راكباً بَغْلَةً على باب السلطان ، فأنشأ يقول :

ياجاعل الدين له بازياً   يصطاد أموال السلاطين
لا تبع الدين بدنيا ، كما   يفعل ضُلَّال الرَّهابين
احتلت للدنيا ولَذاتها   بحيلة تذهب بالدين
وصرتُ مجنوناً بها بعد ما   كنتَ دواء المجانين

---

(١) أو « أينما وقع » والصقع : الوقوع على الأرض اليابسة المستحجرة

(٢) كرع من الماء : عب وشرب .

(٣) أخلاف : جمع خلف ، وهو ثدى الشاة ونحوها من كل حالب ، والتصرية : جمع اللبن واختزانه فى الضرع .

ففكر الناسُ جميعاً بأن   زَلّ حمار العلم فى الطِّين

أخبرنا عبدُ العزيز بن الحسن البرذعى حدثنا زكريا بن يحيى حدثنا أحمد بن عبد الله التسترى قال « لما ولى ابنُ عُلَيَّة صدقات الإبل والغنم بالبصرة ، كتب إليه ابن المبارك كتاباً ، وكتب فى أسفله .

يا جاعل الدين له بازياً   يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها   بحيلة تذهب بالدين
يا ناصح العلم ومن كان ذا   لبٍّ ومن عاب السلاطين[1]
أيْن رواياتُك فى سَرْدها   عن ابن عون وابن سيرين ؟

وزاد غير أحمد بن عبد الله :

إن قلتَ : أُكرهتُ ، فماذا كذا   زلَّ حمار العلم فى الطين

فلما قرأ ابن عُلَيَّةَ الكتاب بكى ، ثم كتب جوابه ، وكتب فى أسفله :

أفٍّ لدنيا أبتْ تواتينى   إلا بنقضى لها عُرَى دينى
عَيْنى لِحَيْنِى[2] تدير مقلتها   تطلب ماسَرَّها لتردينى

أخبرنا محمد بن على الصيرفى بالبصرة حدثنا العباس بن الوليد النَّرْسى حدثنا وهيب عن أيوب عن أبى قلابة عن ابن مسعود قال « عليكم بالعلم قبل أن يقبَضَ وَقَبْضَه أن يِذهب أصحابُه ، وإنكم ستجدون أقواماً يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله ، وقد نبذوه وراء ظهورهم ، وعليكم بالعلم ، فإن أحدكم لايدرى متى يفتقِر ، أو يُفْتَقَر إليه عنده ؟ وعليكم بالعلم ، وإياكم والبدع ، وعليكم بالعتيق » .

حدثنا محمد بن زنجُويَةَ القشيرى حدثنا عمرو بن على حدثنا أبو قتيبة حدثنا

---

(١) قد وقع هنا إقواء : قال فى القاموس : أقوى فى الشعر ، خالف فى قوافيه برفع بيت وجر آخر ، وقلت قصيدة لهم بلا إقواء ، وأما الإقواء بالنصب فقليل اهـ وقد تكرر فى هذا الكتاب ، فينبغى أن يتنبه له .

(٢) الحين ، بالفتح : الموت والهلاك .

قرة بن خالد عن عون بن عبد الله قال : قال ابن مسعود « ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم الخشية » .

حدثني إسحاق بن ابراهيم القاضي ، حدثنا الحارث بن مسكين حدثنا ابن القاسم قال : سمعت مالكا يقول « ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم الخشية »

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل : مجانبة مايدنس علمه من أسباب هذه الدنيا ، مع القصد في لزوم العمل بما قَدَرَ عليه ، ولو استعمال خمسة أحاديث من كل مائتي حديث ، فيكون كأنه قد أدي زكاة العلم ، فمن عجز عن العمل بما جمع من العلم فلا يجب أن يَعْجِزَ عن حفظه .

ولقد أنبأنا ابن قَحطبة حدثنا حسين بن محمد الكوفي قال : سمعت محمد بن بشير الخزاعي يقول :

أما لو أعِي كلَّ ما أسمَعُ ... وأحفظ من ذاك ما أجمع
ولم أستفد غير ماقد جمعـ ... ـت لقيل : هو العالم المقنع[1]
ولكنَّ نفسي إلى كل شيء ... من العلم تسمعه تنْزَعُ
وأحضرُ بالجهل في مجلسي ... وعلمي في الكتب مُستودَع
فلا أنا أحفظ ماقد جمعت ... ولا أنا من جَمْعه أشْبَعُ
ومَنْ يكُ في علمه هكذا ... يكن دَهرَهُ القَهْقَرى يرجع
إذا لم تكن حافظاً واعياً ... فَجمُعك للكُتْب لاينفع

وأنشدني محمد بن عبد الله المؤدب :

جامع العلم تراه أبداً ... غيرَ ذي حفظ ولكن ذا غلَط
وتراه حسَنَ الخطِّ إذا ... كتب الخط بصيراً بالنقط
فإذا فتشته عن علمه ... قال : علمي يا خليلي في السَفَط[2]

(١) شاهد مقنع كمقعد : أي رضى يقنع به .

(٢) السفط ـ محركة كما في القاموس : كالجوالق ، أو كالقفة .

فى كراريس جياد أُحكمتْ وبخطّ أىّ خط أى خط
فإذا قلت له : هاتِ لنا حَكَّ لَحْيَيْه جميعاً وامْتَخَط

أخبرنا محمد بن يعقوب الخطيب بالأهواز حدثنا حفص بن عمرو الرَّبَالى(١) حدثنا الحجاج بن نصير حدثنا عبد القدوس قال : سمعت وهب بن منبه يقول « من تعلم علماً فى حق وسُنَّة : لم يذهب الله بعقله أبداً » .

حدثنا عبد الله بن قحطبة حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان قال « كتب إلىَّ أبى ، وأنا بالكوفة : اشتر الصحف ، واكتب العلم ؛ فإن المال يفنى ، والعلم يبقى » .

حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا حبان بن موسى أنبأنا عبد الله بن المبارك قال « كتب حكيم من الحكماء ثلاثين صحيفة حِكَم ، فأوحى الله إليه : إنك قد ملأت الأرض نفاقا ، وإن الله لم يتقبل شيئاً من نفاقك » .

قال أبو حاتم : اقتناء المرء عمره بكثرة الأسفار ، ومباينة الأهل والأوطان فى طلب العلم دون العمل به ، أو الحفظ له ، ليس من شِيَم العقلاء ، ولا من زىّ الألباء ، وإن من أجرد مايستعين المرء به على الحفظ : الطبع الجيِّدَ ، مع الهِمَّة واجتناب المعاصى ، وأنشدنى الأبرش :

نِعمَ عون الفتى الطَّلوب لعلم أو لبعض العقول صحةُ طبع
فإذا الطبعُ فاته بطَلَ العلـ ـم وصار العناء فى غير نفع

سمعت إبراهيم بن نصر العنبرى يقول : سمعت على بن خشرم يقول : سمعت وكيعاً يقول « استعينوا على الحفظ بترك المعصية » .

قال أبو حاتم : يجب على العاقل أن لايطلب من العلم إلا أفضله ، لأن الازدياد من العلم آثَرُ عند العاقل من الذكر بالعلم ، والعلم زين فى الرخاء ، ومنجاة

---

(١) الربالى بالفتح ولام : نسبة إلى ربال اسم جده اهـ لباب الأنساب .

فى الشدة ، ومن تعلم ازداد ، كما أن من حَلُم ساد ، وفضل العلم[1] فى غير خير مهلكة ، كما أن كثرةَ الأدب فى غير رضوان الله مُوبقة ، والعاقل لايسعى فى فنونه إلا بمـا أجدى عليه نفعاً فى الدارين معاً ، وإذا رزق منه الحظَّ لا يبخل بالإفادة ، لأن أولَ بركة العلم الإفادة ، وما رأيتُ أحداً قط بخل بالعلم إلا لم ينتفع بعلمه ، وكما لاينتفع بالماء الساكن تحت الأرض مالم يَنْبَعْ ، ولا بالذهب الأحمر مالم يُستخرج من معدنه ، ولا باللؤلؤ النفيس مالم يخرج من بَحْره ، كذلك لاينتفع بالعلم مادام مكنوناً لاينشر ولا يفاد .

أنبأنا أحمد بن مضر الرباطى حدثنا محمد بن سهيل بن عسكر حدثنا أبو صالح الفراء قال : سمعت ابن المبارك يقول « من بخل بالحديث يبتلى بإحدى ثلاث : إما أن يموت فيذهب علمه ، أو ينسى ، أو يبتلى بالسلطان » .

حدثنا أبو يعلى حدثنا إسحاق بن اسماعيل حدثنا جرير عن بُرد عن سليمان ابن موسى قال : قال أبو الدرداء « الناس عالم ومتعلم ، ولا خير فيما بين ذلك »

وأنشدنى الكريزى :

أفد العلمَ ، ولا تبخل به ... وإلى علمك علماً فاستفد

استفدما استَطَعت من علم وكن ... عاملا بالعلم والناسَ أفِدْ

مَنْ يفُدهم يَجزِه الله به ... وسيغنى الله عمن لم يُفِد

ليس مَنْ نافَس فيه عاجزاً ... إنمـا العاجز من لايجتهد

حدثنا محمد بن اسحاق بن خزيمة حدثنا عمر بن حفص الشيبانى حدثنا حماد ابن واقد عن هشام بن حسان عن الحسن قال « لأن يتعلمَ الرجل باباً من العلم فيعبدَ به ربه ، فهو خير له من أن لو كانت الدنيا من أولها إلى آخرها له ، فوضعها فى الآخرة » .

---

(١) أى : الفاضل والزائد من العلم عن الحاجة

قال أبو حاتم : قد ذكرت أسباب المتعامين وأخلاق العلماء بعللها فى كتاب « العالم والمتعلم » ، بما أرجو أن يكون فيه غُنْية لمن أراد الوقوف على معرفتها ، فأغنى ذلك عن التكرار ؛ لأنا شرطنا فى هذا الكتاب الاختصار ، كراهية سلوك التطويل ، والإشارة إلى قصد نفس التحصيل .

ذكر الحث على لزوم الصمت وحفظ اللسان

أخبرنا حامد بن محمد بن شعيب البلخى ـ ببغداد ـ حدثنا منصور بن أبى مزاحم حدثنا أبو الأحوص عن أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » .

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل إذا ذكر المطِيَّتين ـ اللتين ذكرتهما قبل إصلاح السريرةِ ولزوم العلم : أن يبلغ مجهوده حينئذ فى حفظ اللسان حتى يستقيم له ، إذ اللسان هو المُورِدُ للمرء موارد العَطب . والصمتُ يكسب المحبةَ والوقار ، ومن حفظ لسانه أراح نفسه ، والرجُوع من الصمت أحْسنُ من الرجوع عن الكلام ، والصمت منام العقل ، والمنطق يقظته .

حدثنا محمد بن زنجويه حدثنا عبد الأعلى بن حماد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن لقمان قال « إن من الحُكْم الصمتَ ، وقليلٌ فاعله » .

وأنشدنى الكريزى :

أقللْ كلامك واستعذ من شره ... إن البلاء ببعضه مقرونُ [1]

واحفظ لسانك واحتفظ من غَيّه ... حتى يكون كأنه مسجون

وَكِّل فؤادَك باللسان ، وقل له ... إن الكلام عليكما موزون

فزِنَاهُ ولْيَكُ مُحْكمًا ذا قِلَّةٍ ... إن البلاغة فى القليل تكون

أخبرنا ابن قتيبة حدثنا جعفر بن نوح حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع قال :

---

(١) عجز هذا البيت من قولهم فى مثل « إن البلاء موكل بالمنطق » .

سمعت مالك بن أنس يقول « كل شيء ينتفع بفضله [1] إلا الكلامَ فإن فَضْله يَضُرُّ » .

أخبرنا القطان حدثنا أحمد بن أبي الحوارى حدثنا مروان بن محمد عن سعيد ابن عبد العزيز قال : قالْ أبو الدرداء « لاخير فى الحيــاة إلا لأحد رجلين : مُنْصتٍ واع ، أو متكلم عالم » .

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل أن لا يغالبَ الناس على كلامهم ، ولا يعترضَ عليهم فيه ؛ لأن الكلام و إن كان فى وقته حظوةً جليلة فإن الصمت فى وقته مرتبةٌ عالية ، ومن جُهِّلَ بالصمت عَىّ بالمنطق [2] والإنسان إنما هو صورة ممثَّلة أو صالَّةٌ مهملة ، لولا اللسان ، والله جل وعز رفع جارحةَ اللسان على سائر الجوارح ، فليس منها شيء أعظمُ أجراً منه إذا أطاع ، ولا أعظم ذنباً منه إذا جنى .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجىّ البغدادى .

لئن كان يجنى اللومَ ما أنت قائل ... ولم يك منه النفع فالصمت أيسرُ
فلا تُبْدِ قولا من لسانك لم يَرُض ... مواقعَه من قبل ذاك التفكُّرُ

أخبرنا ابن قتيبة حدثنا هرون بن محمد البكار قال : سمعت أبا مسهر ينشد هذا البيت :

قد أرى كثرة الكلام قبيحا ... كلُّ قول يشينه الإكثــارُ

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثنى محمد بن داود بن سليمان الرملى حدثنا المسيب بن واضح قال : سمعت ابن المبارك يقول :

تعــاهد لسانك إن اللسان ... سريع إلى المرء فى قتـله
وهــذا اللسان بَرِيدُ الفؤاد ... يدلُّ الرجال على عقــله

---

(١) الفضل ههنا : الزيادة

(٢) أى من وصفه الناس بالجهل لصمته كان منطقه عيا

أخبرنا محمد بن سليمان بن فارس حدثنا محمد بن على الشقيق أنبأنا إبراهيم بن الأشعث قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول « شيئان يقسيان القلب : كثرة الكلام ، وكثرة الأكل » .

أخبرنا أبو يعلى حدثنا عمرو بن محمد الناقد قال : سمعت يحيى بن اليمان يقول : قال سفيان الثورى : « أول العبادة الصمت ، ثم طلب العلم ، ثم العمل به ، ثم حفظه ، ثم نشره » .

حدثنا عمرو بن محمد الأنصارى حدثنا الغلابى حدثنا العتبى عن على بن جرير عن أبيه قال : قال الأحنف بن قيس « الصمت أمان من تحريف اللفظ ، وعصمة من زيغ المنطق ، وسلامة من فضول القول ، وهيبة لصاحبه » .

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم ، فما أكثر من ندم إذا نطق ، وأقل من يندم إذا سكت ، وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء من ابتلى بلسان مطلق ، وفؤاد مطبق .

واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها ، ويضع كل خصلة منها فى موضعها : هو أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وناطق يرد به الجواب ، وحاكم يفصل به الخطاب ، وشافع تدرك به الحاجات ، وواصف تعرف به الأشياء ، وحاصد تذهب الضغينة ، ونازع يجذب المودة ، ومُسَل يذكى القلوب ومُعَزٍّ تردّ به الأحزان .

ولقد أحسن الذى يقول :

إن كان يعجبك السكوت فإنه ... قد كان يعجب قبلك الأخيارا

ولئن ندمت على سكوت مرة ... فلقد ندمتَ على الكلام مرارا

إن السكوت سلامة ، ولربما ... زرع الكلام عداوة وضرارا

وإذا تقرّب خاسرٌ من خاسرٍ ... زادا بذاك خسارة وتبارا[1]

---

(١) التبار : الهلاك

أخبرنا محمد بن المنذر بن سعيد حدثنا كثير بن عبد الله التيمى حدثنا العلاء ابن سعيد الكندى حدثنى أبو حية قال « كنت أماشى إسماعيل بن سَهْل ، وكان أحد الحكماء ، فقال لى : ألا أخبرك ببيت شعر خيرٌ لك من عشرة آلاف درهم ؟ قال : نعم . قال : أيما أحبُّ إليك : نفسك أو عشرة آلاف درهم ؟ قال : قلت : نفسى ، فأنشأ يقول .

اخفض الصوت إن نطقت بليل   والتفت بالنهار قبل المقال

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل أن يكون ناطقا كَعَيِّىٍ وعالما كجاهل ، وساكتاً كناطق ؛ لأن الكلام لابد له من الجواب والجواب لو جعل له جواب لم يكن للقول نهاية ، وخرج المرء إلى ماليس له غاية ، والمتكلم لا يسلم من أن ينسب إليه[1] الصَّلَف والتكلف ، والصامت لايليق به إلا الوقار وحسن السمت ولقد أحسن الذى يقول :

حتف امرىء لسانه   فى جِدِّه أو لعبه
بين اللَّهَــا مقتلهُ   رُكِّبَ فى مركبه[2]

أخبرنا عمرو بن محمد الأنصارى حدثنا الغلابى حدثنا ابن عائشة حدثنا دريد ابن مجاشع عن غالب القطان عن مالك بن دينار عن الأحنف بن قيس قال : قال عمر بن الخطاب « يا أحنف ، مَنْ كثر كلامه كثر سَقَطه ، ومن كثر سقطه قَلَّ حياؤه ، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه ، ومن قلّ ورعه مات قلبه » .

وأنشدنى الأبرش :

ماذَلّ ذو صمت ، وما من مكثر   إلا يزَلُّ ، وما يُعاب صَمُوتُ
إن كان منطق ناطق من فضّة   فالصمتُ دُرٌّ زانه الياقوت

---

(١) الصلف : الكبر

(٢) اللها : جمع لهاة ، وهى لحمة فى سقف الحلق ، أى حتفه وهلاكه فى لسانه وهو مما ينسب إليه صلى الله عليه وسلم « مقتل المرء بين فكيه »

أنبأنا ابن قتيبة حدثنا المسيب بن واضح قال : سمعت عليّ بن بكار يقول « جعل الله لكل شيء بابين ، وجعل للسان أربعة : الشفتين مصراعين ، والأسنان مصراعين » .

أنبأنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحيّ بالبصرة حدثنا نصر بن عليّ الجهضمى أنبأنا محمد بن يزيد بن خنيس عن وهيب بن الورد « أن شاباً كان يحضر مجلس عمر بن الخطاب ، ويحسن الاستماع ، ثم ينصرف من قبل أن يتكلّم ، ففطِنَ له عمر ، فقال له : إنك تحضُر مجلسنا ، وتُحسِن الاستماع ، ثم تنصرِف من قبل أن تتكلم ، فقال الشاب : إنى أحضر فأتوفى وأتنقّى ، وأصمت فأسلم » .

قال أبو حاتم — رضى الله عنه — الواجب على العاقل أن يُنصف أذنيه من فيه ، ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر مما يقول ، لأنه إذا قال ربما ندم ، وإن لم يقل لم يندم ، وهو على رد مالم يقل أقدر منه على رد ما قال ، والكلمةُ إذا تكلَّم بها ملكته ، وإن لم يتكلم بها ملكها . والعجب ممن يتكلم بالكلمةَ ، إن هى رُفِعتْ ربما ضَرَّته ، وإن لم تُرفع لم تضره ، كيف لا يصمت ؟ وَرُبَّ كلمة سَلَبَتْ نعمة ! » .

أخبرنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز حدثنا إبراهيم بن علِيّ الذُّهلى قال : أنشدنى رجل من ربيعة :

لعمرك ماشيء علمت مكانه ... أحق بسجن من لسان مذَلَّل
على فيك مما ليس يعنيك شأنه ... بِقُفْلٍ وثيقٍ مااستطعت فأَقْفِلِ
فربَّ كلامٍ قد جرى من مُمَازح ... فساق إليه سَهْم حَتْفٍ معجَّل
ولَلصمتُ خيرٌ من كلام بمأثم ... فكن صامتاً تَسْلَمْ، وإن قُلْتَ فاعدِل

أخبرنا أبو يعلى حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا جرير عن برد عن سليمان ابن موسى قال : قال أبو الدرداء « كفى بك ظالماً أن لاتزال مخاصماً ، وكفى بك

آثماً أن لاتزال ممارياً ، وكفى بك كاذبا أن لا تزال محدثاً ، إلا حديثاً فى ذات الله تبارك وتعالى » .

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا معروف بن الحسن الكنانيّ حدثنا كثير ابن هشام عن عيسى بن إبراهيم عن سعيد بن أبى سعيد عن كعب قال « العافية عشرة أجزاء ، تسعة منها فى السكوت » .

أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقى حدثنا يحيى القطان عن شعبة قال « من الناس من عقله بفنائه ، ومنهم من عقله معه ، ومنهم من لا عقل له ، فأما الذى عقله معه فالذى يبصر مايخرج منه قبل أن يتكلم ، وأما الذى عقله بفنائه فالذى يبصر مايخرج بعد أن يتكلم ، ومنهم من لاعقل له . فحدثت به عبد الرحمن بن مهدى بعد مارجعنا من عند يحيى ، فقال : هذه صفتنا ، يعنى الذى عقله بفنائه ، واستحسن الكلام . وقال : لا ينبغى أن يكون هذا من كلام شعبة ، لعله سمعه من غيره » .

وأنشدنى البغدادى محمد بن عبد الله بن زنجى :

أنت من الصمت آمِنُ الزّلَلِ ومن كثير الكلام فى وَجَلِ (١)
لا تقل القول ثم تُتْبعه ياليتَ ما كنتُ قلتُ لم أَقل

سمعت محمد بن المسيب يقول : سمعت العباس بن الوليد بن زيد يقول : سمعت أبى يقول : سمعت الأوزاعى يقول « مابلى أحد فى دينه بلاء أضر عليه من طَلاَقة لسانه » .

سمعتَ محمد بن محمود النسأى يقول : سمعت أبا أحمد بن أبى فايد يقول : سمعت العباس بن عبد العظيم يقول : سمعت عارماً يقول : سمعت خالد ابن الحارث يقول « السكوت زين للعاقل ، وشين للجاهل » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لو لم يكن فى الصمت خصلة تحمد إلا تَزَيُّنُ

(١) الزلل : السقوط ، والوجل : الخوف ، وكلاهما بفتح أوله وثانيه .

لعاقل وتَشين الجاهل به لـكان الواجب على المرء أن لا يفارقه الصمتُ ما وجد إليه سبيلا ، ومَنْ أحب السلامة من الآثام فليقل ما يقبل منه ، وليُقِل مما يقبل منه ، لأنه لا يجترىء على الـكلام الـكثير إلا فائق أو مائق [١] .

وقد ثرك جماعة من أهل العلم حديث أقوام أكثروا الـكلام فيمالا يليق بهم .

ومن ذلك ماحدثنا به محمد بن الحسن بن مكرم بالبصرة حدثنا عمرو بن على حدثنا أميةُ بن خالد عن سعيد قال : قلت للحكم : مالكَ لا تـكتب عن زاذان ؟ قال : كان كثير الـكلام .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لسان العاقل يكون وراء قلبه ، فإذا أراد القول رجع إلى القلب ، فإن كان له قال ، وإلا فلا ، والجاهل قلبه من طرف لسانه ، ماأتى على لسانه تكلم به ، وما عَقَلَ دينه من لم يحفظ لسانه .

واللسان إذا صلح تبين ذلك من الأعضاء ، وإذا فسد فـكذلك .

أخبرنا محمد بن عبيد الله بن الجنيد حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله عن عبد الله أنبأنا سفيان عن رجل قال « إنى لأكذب الـكَذْبة فأعرفها فى عملى »

أنبأنا أبو عَوَانة يعقوب بن إبراهيم بن إسحاق حدثنا الفضل بن عبد الجبار حدثنا أبو إسحاق الطلقانى عن الوليد بن مسلم قال : قال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير أنه قال « ماصلح منطق رجل إلا عُرِف ذلك فى سائر عمله » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : والعاقل لا يبتدى الـكلام إلا أن يسأل ولايقول إلا لمن يقبل ، ولايجيب إذا شُوتم ، ولا يجازى إذا أُسمع ؛ لأن الابتداء بالصمت وإن كان حسناً ، فإن السكوت عند القبيح أحسن منه » .

---

(١) الفائق : المتفوق على القدرة على حسن التأنى وانتقاء القول من واسع ماعلم . فهذا يقدم على الـكلام واثقاً متثبتاً فيفيد . والمائق : الأحمق السفيه الذى لايهمه أن يلقى بنفسه فى كل ورطة ، وأن يزج بنفسه فى كل بلية لا خلاص له منها لانه لايقدر العواقب ، ولا يفكر فى المصائر .

وأنشدنى المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصارى :

الصمت عند القبيح يسمعه صاحبُ صدق لكل مصطحبِ
فآثرِ الصمتَ ما استطعت ، فقد يُؤْثَرُ قول الحكيم فى الكتب
لو كان بعضُ الكلام من وَرِق لكان جُلّ السكوت من ذهب

أخبرنا بكر بن محمد بن عبد الوهاب القزاز حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أبو بشر حدثنا أبى حدثنا المبارك بن فُضالة عن المغيرة بن مسلم الهَجيمى عن أسير ابن جابر قال « ما رضعت عنزاً قط ، ولو قلت : لا أرضعها خفت أن يصير بى البلاء إلى أن أرضعها ، إن البلاء مُوَكَّل بالقول »

وأنشدنى الكريزى :

استر العِيَّ ما استطعت بصمت إن فى الصمت راحةً للصَّمُوتِ
واجعل الصمت إن عييتَ جواباً رب قول جوابه فى السكوت

وأنبأنا محمد بن المنذر حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن منصور حدثنا عبدالرحمن ابن مهدى حدثنا سفيان عن يزيد بن حيان عن عيسى بن عقبة قال : سمعت ابن مسعود يقول « والله الذى لا إله غيره ، ماشىء أحق بطول سجْن من لسان »

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يحفظ أحواله من ورود الخلل عليها فى الأوقات ، وإن من أعظم الخلل المفسد لصحة السرائر والمُذْهب لصلاح الضمائر : الإكثار من الكلام ، وإن أبيح له كثرة النطق ، ولا سبيل للمرء إلى رعاية الصمت إلا بترك ما أبيح له من النطق .

كما أنبأنا الحسن بن سفيان حدثنا حبان بن موسى حدثنا عبد الله عن سفيان عن نسير بن دعلوق عن إبراهيم التيمى أخبرني من صحب الربيع بن خُثَيْم عشرين عاماً فلم يسمع منه كلمة تعاب .

أنبأنا الجنيدى حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله عن عبد الله أنبأنا سفيان

عن أبى طعمة عن رجل من الحى قال : أتيت الربيع بن خثيم بنعى[1] الحسين ، وقالوا : اليوم يتكلم مقالة ، فتأوّه ومدَّ بها صوته ، ثم قال : اللهم فاطرَ السموات والأرض عالمَ الغيبِ والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك بالحق فيما كانوا فيه يختلفون » .

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارى حدثنا الغلابى حدثنا إبراهيم بن عمرو بن حبيب حدثنا الأصمعى قال « بينا أنا أطوف بالبادية إذا أنا بأعرابية تمشى وحدها على بعير لها ، فقلت : يا أمَةَ الجبار من تطلبين ؟ فقالت : مَنْ يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، قال : فعلمت أنها قد أضلت أصحابها ، فقلت لها: كأنك قد أضللت أصحابك ؟ قالت : ففهمناها سليمان ، وكُلاًّ آتينا حكماً وعلماً ، فقلت لهـا : ياهذه من أين أنت ؟ قالت : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، فعلمت أنها مقدسية ، فقلت لها : كيف لاتتكلمين ؟ فقالت : مايلفظُ من قولٍ إلا لديه رَقيبٌ عَتيد ، فقال بعض أصحابى : ينبغى أن تكون هذه من الخوارج ، فقالت : ولا تَقْفُ ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤلا ، فبينما نحن نماشيها إذ رفعت لنا قباب وخيم ، فقالت : وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، قال : فلم أفطن لقولها ، فقلت ، ماتقولين ؟ فقالت : وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام ، قلت : بمن أصوت وبمن أدعو ؟ فقالت : يايحيى خذ الكتاب بقوة ، يا زكريا إنا نبشرك ، يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، قال : فإذا نحن بثلاثة أخوة كاللآلىء ، فقالوا : أمنا ورب الكعبة أضللناها منذ ثلاث ، فقالت : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، فأومأت إلى أحدهم فقالت : فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظر أيُّها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه ، فقلت : إنها أمرتهم أن يزودونا، فجاءوا بخبز وكعك،

(١) النعى ـ بفتح النون وكسر العين ـ الخبر بالموت .

فقلت : لاحاجة لنا فى ذلك ، فقلت للفتية : من هـذه منكم ؟ قالوا : هذه أمنا ما تكلمت منذ أربعين سنة إلا من كتاب الله مخافة الكذب ، فدنوت منها ، فقلت : يا أمة الله ، أوصنى ، فقالت : ما أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ، فعلمت أنها شيعية [1] ، فانصرفت .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قد ذكرت ما شاكل هذه الحكايات فى كتاب حفظ اللسان فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب .

فالواجب على العاقل أن يروض نفسه على ترك ما أبيح له من النطق ، لئلا يقع فى المزجورات ، فيكون حَتْفه فيما يخرج منه ؛ لأن الكلام إذا كثر منه أورث صاحبه التلذذ بضد الطاعات ، فإذا لم يوفَّق العبد لاستعمال اللسان فيما يُجْدِي عليه نفعُه فى الآخرة ، كان وجودُ الإمساك عن السوء أولى به .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى :

ولن يَهْلِكَ الإنسانُ إلا إذا أتى من الأمر ما لم يرضهُ نصحاؤه

وأقلل إذا ما قلتَ قولاً ، فإنه إذا قَلَّ قولُ المرء قَلَّ خطاؤه

أنبأنا محمد بن الحسين بن الخليل حدثنا عبد الله بن أبى زياد القطْوانى حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا المعلى بن زياد قال : قال : قال مُوَرِّق العِجْلى « أمرٌ أنا فى طلبه منذ عشر سنين ، ولست بتاركٍ طلبه : قال : وما هو يا أبا المعتمر ؟ قال : الصمت عما لا يعنينى » .

أنبأنا إبراهيم بن نصر العنبرى حدثنا على بن الأزهر الرازى حدثنا إبراهيم

---

(١) إن صحت ــ فلها مقصد غير مافهم : وهى إنما توصيه أن يقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يؤذيه أهله ، وهو يبرهم ويحسن إليهم ، ويبلغهم رسالة ربه ، رجاء نجاتهم من عذاب الله ، ورجاء سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، لما كان بينهم وبينه من القربى .

ابن رستم قال : سمعت خارجة يقول « صحبت عبد الله بن عون خمس عشرة سنة فما أظن الملائكة كتبت عليه شيئاً » .

ذكر الحث على لزوم الصدق ومجانبة الكذب

أخبرنى أحمد بن محمد بن حبيب الجنيدى قال : حدثنا حميد بن زنجويه حدثنا محاسن بن المودع حدثنا الأعمش عن أبى سفيان قال : قال عبد الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البرِّ ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدُق حتى يُكتَبَ عند الله صِدِّيقاً ، وإيا كم والكذبَ ، فإن الكذبَ يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن الله جل وعلا فَضَّلَ اللسان على سائر الجوارح ، ورفع درجتَه ، وأبان فضيلته ، بأن أنطقه من بين سائر الجوارح بتوحيده ، فلا يجب للعاقل أن يُعَوِّدَ آلة خَلَقَهَا الله للنطق بتوحيده بالكذب ، بل يجب عليه المداومة برعايته بلزوم الصدق ، وما يعود عليه نفعه فى داريه ، لأن اللسان يقتضى ماعوِّد : إن صدقاً فصدقاً ، وإن كذباً فكذباً .

ولقد أحسن الذى يقول :

عَوِّد لسانك قول الخير تَحْظَ بِهِ ... إن اللسان لما عَوَّدْتَ معتادُ
موكَّل بتقاضى ماسننت لهِ ... فاختر لنفسك ، وانظر كيف ترتاد

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا الفضل بن العباس البغدادى حدثنا الهيثم ابن خارجة حدثنا الهيثم بن عمران قال : سمعت إسماعيل بن عبيد الله يقول : « كان عبد الملك بن مروان يأمرنى أن أجنِّبَ بنية السِّمن ، وكان يأمرنى أن لا أطعم طعاماً حتى يخرجوا إلى البراز ، وكان يقول : عَلِّم بنىَّ الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم الكذب ، وإن فيه كذا وكذا يعنى القتل » .

وأنشدنى الأبرش :

الـكِذْبُ مُرديك ، و إن لم تخف   والصِّدْقُ منجيك على كل حال
فانطق بما شئت تجد غِبَّه   لم تُبْتَخَسْ وزنه مثقال (١)

أخبرنا أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سليم ابن حيان عن قتادة عن حميد بن عبد الرحمن الحميرى أن عمر بن الخطاب قال « إن أبا بكر قام فينا عام أول ، فقال : إنه لم يقسم بين الناس شيء أفضل من المعافاة بعد اليقين ، إلا أن الصدق والبرَّ فى الجنة ، ألا و إن الـكذب والفجور فى النار »

أخبرنا أبو خليفة حدثنا أبو الوليد الطيالسى حدثنا عكْرمة بن عمار حدثنى طيسلة بن على البهدلى قال « كنت مع ابن عمر يوماً فى أصول الأراك يوم عرفة ، و بين يديه رجل من أهل العراق ، فقال له الرجل : ياابن المنافق ، قال : المنافق ، ـ و يحك ـ الذى إذا حدث كذب ، و إذا وعد لم ينجز ، و إذا اؤتمن لم يؤدِّ »

سمعت أحمد بن محمد بن الأزهر يقول : سمعت محمد بن خلف بن أبى الأزهر يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول « مامن مُضْغَة أحبُّ إلى الله من لسان صدوق ، وما من مضغة أبغض إلى الله من لسان كذوب » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : كل شيء يستعار ليتجمَّلَ به سَهْلٌ وجودُه ، خلا اللسان ، فإنه لا ينبيء إلا عما عُوِّدَ ، والصدق ينجى والـكذب يُرْدِى ، ومن غلبَ لسانَه أمَّره قومه ، ومن أكثر الـكذب لم يترك لنفسه شيئاً يصدق به ، ولا يكذب إلا من هانت عليه نفسه .

حدثنا أحمد بن محمد بن زنجو يه حدثنا جعفر بن أبى عثمان الطيالسى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا أنس بن عياض عن صالح بن حسان عن محمد بن كعب القرظى قال « إنما يكذب الـكاذب من مَهَانة نفسه » وأنشدنى الـكريزى :

كذبت ، ومن يكذب فإن جزاءه   إذا ماأتى بالصدق أن لا يُصدَّقا
إذا عرف الـكذاب بالـكذب لم يزل   لدى الناس كذاباً ، و إن كان صادقا
ومن آفة الـكذاب نسيان كذبه   وتَلقاهُ ذا فقهٍ إذا كان حاذقا

---

(١) غب الشيء : عاقبته ، ولم تبتخس : معناه لم تنقص .

قال أبو حاتم : لو لم يكن للـكذب من الشَّين إلا إنزاله صاحبه بحيث إن صَدَقَ لم يُصَدَّق ، لـكان الواجب على الخلق كافَّة لزوم التثبت بالصدق الدائم ، وإن من آفة الـكذب أن يكون صاحبه نسياً ، فإذا كان كذلك كان كالمنادى على نفسه بالخزى فى كل لحظة وطرفة .

سمعت أحمد بن محمد بن الأزهر يقول : سمعت نصر بن على الجهضمى يقول : « إن الله أعاننا على الـكذابين بالنسيان » وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

إذا ما المرء أخطأه ثلاث فبعه ، ولو بكَفٍ من رمَاد
سلامة صدره ، والصدق منه ، وكتمان السرائر فى الفؤاد

أنبأنا بكر بن أحمد الطاحى بالبصرة حدثنا إبراهيم بن عزرة حدثنا سفيان ابن عيينة عن معمر قال : قال الزهرى « لو رأيت طاووساً لعلمت أنه لا يكذب »

قال أبو حاتم رضى الله عنه : اللسان سَبُع عَقُور ، إن ضبطه صاحبه سلم ، وإن خلَى عنه عقره ، و بفمه يفتضح الـكذوب ، فالعاقل لا يشتغل بالخوض فيما لا يعلم فيُتَّهَم فيما يعلم ؛ لأن رأس الذنوب الـكذب ، وهو يبدى الفضائح ويكتم المحاسن ، ولا يجب على المرء إذا سمع شيئاً يعيبه أو يحدث به لأن من حدث عن كل شيء أَزْرَى برأيه ، وأفسَد صدقه .

وقد أنبأنا أبو خليفة حدثنا ابن كثير أنبأنا سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن الأحوص عن عبد الله قال « حَسْبُ المؤمن من الـكذب أن يحدث بكل ماسمع » .

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا حبان بن موسى ، أنبأنا عبد الله ، أنبأنا سفيان عن منصور عن سالم بن الجَعْد قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام « طوبَى لمن خَزَنَ لسانه ، ووسِعَه بيته ، و بكى على خطيئته » .

أنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

وإذا الأمور تزوجت فالصدق أكرمها نتِاَجا

الصـدق يعقد فوق رأ س حَليفه بالصدق تاجا
والصـدق يقـدح زَنده فى كل ناحية سراجا

أنبأنا القطان بالرقة حدثنا نوح بن حبيب حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن منصور عن رِبْعِيّ قالوا « من ذكرت ياأبا سفيان ؟ قال : ذكرت ربعياً ، وتَدْرون مَنْ كان ربعى ؟ كان رجلاً من أشجع زَعَم قومُه أنه لم يكذب قط ، فسعى به ساع إلى الحجاج ، فقال : هاهنا رجل من أشجع ، زعم قومه أنه لم يكذب قط ، وأنه يكذب لك اليوم ، فإنك ضربت على ابنيْه البعث فَعَصَياَ ، وهما فى البيت ، وكان عقوبة الحجاج للعاصى ضرب السيف ، قال : فدعاه فإذا شيخ منحن ، فقال له : أنت ربعى ؟ قال : نعم ، قال : مافعل ابناك ؟ قال : هاهما ذان فى البيت ، قال : فحمله وكساه وأوصى به خيراً » .

أنبأنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابى حدثنا عبيد الله بن محمد التيمى عن أبيه قال « كان عمر بن الخطاب بمنًى فعطش ، فانتهى إلى عجوز ، فاستسقاها ماء . فقالت : ماعندنا ، فقال : لبناً ، فقالت : ماعندنا ، فبدرت جارية ، فقالت لها : تـكذبين وما تستحين ؟ ثم قالت لعمر : هذا السقاء فيه لبن « فسـأل عمر عن الجارية فإذا أبوها ثقفى فخطبها على عاصم بن عمر ، فزوجها منه ، فولد له منهـا أم عاصم ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان ، فولدت له عمر بن عبد العزيز بن مروان ، رحمة الله عليه ! » .

قال أبوحاتم رضى الله عنه : الصدق يرفع المرء فى الدارين ، كما أن الـكذب يهوى به فى الحالين ، ولولم يكن الصدق خصلة تحمد إلا أن المرء إذا عرف به قُبِل كذبه ، وصار صدقا عند من يسمعه ــ لـكان الواجب على العاقل أن يبلغ مجهوده فى رياضة لسانه ، حتى يستقيم له على الصدق ومجانبة الـكذب والعيّ فى بعض الأوقات خير من النطق ، لأن كل كلام أخطأ صاحبه موضعه فالعيّ خير منه .

أنشدنى المنتصر بن بلال :

تحدث بصدق إن تحدثت ، وليكن لـكل حديث، من حديثك حينُ

فما القول إلا كالثياب ، فبعضها عليك ، و بعض فى التخوت مضونُ (١)

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

كم من حسيب كريم كان ذا شرف

قد شانه الـكذب وسط الحىّ إن عمدا

وآخر ، كان صُعْلوكا ، فشَرّفه

صدقُ الحديث وقولٌ جانب الفَنَدَا

فصار هـذا شريفاً فوق صاحبه

وصار هذا وضيعاً تحتـــه أبدا

أنبأنا أبو خليفة حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا سفيان الثورى عن حبيب ابن أبى ثابت ، عن ميمون بن أبى شبيب ، قال : قال عمر « لايجد عبد حقيقة الإيمان حتى يَدعَ المرء وهو مُحقٌّ ، و يدع الـكذب فى المزاح وهو يرى أنه لو شاء لغلب » .

أنبأنا ابن سعيد القزاز ، حدثنى يوسف بن سعيد بن مسلم حدثنا على بن بكار عن يونس بن عبيد ، عن حميـد بن هلال ، عن عبد الله بن عمرو قال : « ذَرْ مالستَ منه فى شىء ، ولاتنطق فيما لايعنيك ، واخْزُنْ لسانك كما تخزن دراهمك »

وأنشدنى محمد بن سعيد الهروى :

القول كاللبن المحلوب ، ليس له رَدٌّ وكيف يردُّ الحالبُ اللبن ؟

فى ضرعه ، وكذاك القول ليس له فى الجوف ردٌّ قبيحاً كان أو حسناً

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل ترك الإغضاء عن تعهد اللسان ، لأن من كثر كلامه كثر سقَطه ، والسقَط ربما تعدى غيره فيهلـكه

(١) التخوت : جمع تخت ، وهو كل مايحفظ فيه الثياب .

فى ورطة لاحيلة له فى التخلص منها ، لأن اللسان لاينفمل جرحه ولايلتئم ما قطع به ، وكَلْمُ القول إذا وصل إلى القلب لم ينزع إلا بعد مدة طويلة ، ولم يستخرج إلا بعد حيلة شديدة ، ومن الناس من لايُكْرَم إلا للسانه ، ولا يهان إلا به ، فالواجب على العاقل أن لا يكون ممن يهان به .

أنبأنا عبد الله بن محمد الأنماطى الهمدانى ، حدثنا محمد بن عمير ، حدثنا عبد الله بن الحسين العقيلى ، حدثنا أبو سلمة الخزاعى ، حدثنا شبيب بن شبة ، قال : سمعت ابن سيرين يقول « الكلام أوسع من أن يكذب فيه ظريف » .

ذكر الحث على لزوم الحياء وترك القحة (١)

أنبأنا الفضيل بن الحباب الجُمَحى ، حدثنا القَعْنَبى عن شعبة عن منصور ، عن ربعى ، عن ابن مسعود : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى : إذا لم تَستَحِ فاصنع ماشئت » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزوم الحياء ، لأنه أصل العقل و بذر الخير ، وتركه أصل الجهل و بذر الشر ، والحياء يدل على العقل كما أن عدمه دال على الجهل ، ومن لم ينصف الناس منه حياؤه ، لم ينصفه منهم قحته ، ولقد أحسن الذى يقول :

وليس بمنسوب إلى العلم والنُّهى ... فتًى لاتُرَى فيه خلائق أربعُ
فواحدة : تقوى الإله التى بها ... يُنال جسيمُ الخير والفضل أجمع
وثانية : صدق الحياء فإنه ... طباع عليه ذو المروءة يطبع
وثالثة : حلم إذا الجهل أطلعت ... إليه خبايا من فجور تَسَرَّعُ
ورابعة : جود بملكِ يمينه ... إذا نابه الحق الذى ليس يدفع

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

(١) القحة ـ بكسر القاف وفتحها ـ مصدر قولهم . وقح الرجل ـ بالضم ـ إذا قل حياؤه .

إذا قلَّ ماء الوجه قلَّ حياؤه   فلا خير فى وجه إذا قلَّ ماؤه
حياءكَ فاحفظه عليك ، فإنما   يدل على وجه الكريم حياؤه

أنبأنا أبو خليفة حدثنا ابن كثير حدثنا سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال « ألأم شىء فى المؤمن الفحْشُ » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الحياء اسم يشتمل على مجانبة المكروه من الخصال والحياء حياءآن :

أحدهما : استحياء العبد من الله جل وعلا عند الاهتمام[1] بمباشرة ماحظر عليه.

والثانى : استحياء من المخلوقين عند الدخول فيما يكرهون من القول والفعل معاً .

والحياءآن جميعاً محمودان ، إلا أن أحدهما فرضٌ والآخرَ فضل ، فلزوم الحياء عند مجانبة مانهى الله عنه فرض ، ولزوم الحياء عند مقارفة ما كره الناس فضل .

وأنشدنى محمد بن المنذر بن سعيد عن محمد بن خلف التيمى قال : أنشدنى رجل من خزاعة :

إذ لم تخش عاقبةَ الليالى   ولم تستحى فاصنع ماتشاء
فلا والله ، مافى العيش خير   ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير   ويبقى العود مابقِى اللِحاء

حدثنا إسحاق بن ابراهيم القاضى حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث بن سعد عن عقيل عن الزهرى : أن أبا بكر الصديق قال يوماً وهو يخطب « أيها الناس ، استحيوا من الله ، فوالله ماخرجتُ لحاجة منذ بايعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد الغائط إلا وأنا مُقنِّع رأسى حياءً من الله » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الحياء من الإيمان ، والمؤمن فى الجنة ، والبَذاء من الجفاء ، والجافى فى النار ، إلا أن يتفضل الله عليه برحمته فيخلصه منه .

(١) الاهتمام : أراد به الهم بالشىء والعزم على فعله .

فإذا لزم المرء الحياء كانت أسبابُ الخير منه موجودة ، كما أن الواقِح إذا لزم البذاء كان وجود الخير منه معدوماً وتواتر الشر منه موجوداً ؛ لأن الحياء هو الحائل بين المرء و بين المزجورات كلها فبقوّة الحياء يضعف ارتكابه إياها ، و بضعف الحياء تقوى مباشرته إياها .

ولقد أحسن الذى يقول :

وربَّ قبيحةٍ ماحال بينى   و بين ركوبِها إلا الحياء
فكان هو الدواء لها ، ولكن   إذا ذهب الحياء فلا دواء

وأنبأنا محمد بن المنذر بن سعيد حدثنا عمر بن شبة حدثنا عبد الأعلى ابن عبد الأعلى حدثنا هشام عن محمد عن كثير بن أفلح عن زيد بن ثابت قال : « من لايستحيي من الناس لايستحيي من الله » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يعوّد نفسه لزوم الحياء من الناس ، و إن من أعظم بركته تعويدَ النفس ركوبَ الخصال المحمودة ومجانبتَها الخلالَ المذمومة ، كما أنَّ من أعظم بركة الحياء من الله الفوزَ من النار بلزوم الحياء عند مجانبة مانهى الله عنه ؛ لأن ابن آدم مطبوع على الكرم واللؤم معاً فى المعاملة بينه و بين الله والعِشْرة بينه و بين المخلوقين ، و إذا قوى حياؤه قوى كرمه ، وضعف لؤمه ، و إذا ضعف حياؤه قوى لؤمه وضعف كرمه ،ولقد أنشدنى على بن محمد البسامى :

إذا رُزِق الفتى وَجْهاً وَقَاحاً   تقلّب فى الأمور كما يشاء
ولم يك للدواء ولا لشيء   يعالجه به فيه غَناء
فما لك فى معاتبة الذى لا   حياء لوجهه إلا العناء

قال أبو حاتم : إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عِرضه ، ودفن مساويَه ، ونشر محاسنه ، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سروره هان على الناس ومُقِتَ ، ومن مُقِتَ أوذى ، ومن أوذى حزِن ، ومن حزن فقد عقله ، ومن أصيب فى عقله كان أكثرُ قوله عليه لا له ، ولا دواء لمن لاحياء له ،

ولا حياء لمن لا وفاء له ، ولا وفاء لمن لا إخاء له ، ومن قل حياؤه صنع ماشاء وقال ما أحب .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

إذا لم تَصُن عرضاً ولم تخش خالقاً   وتستحِى مخلوقاً فما شئت فاصنع

إذا كنت تأتى المرء تعظِمُ حَقَّه   ويَجهل منك الحقَّ فالصرم أوسع

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز حدثنى عبد الله بن مسعود الثعلبى باليمن حدثنا أحمد بن زيد بن السكن الجندى عن سفيان بن عيينة قال : قال يحي بن جعدة « إذا رأيت الرجلَ قليل الحياء فاعلم أنه مدخول فى نسبه » .

ذكر الحث على لزوم التواضع ومجانبة الـكِبْر

أنبأنا أبو خليفة حدثنا موسى بن إسماعيل التبوذكى حدثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مانقصت صدقة من مال ، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عِزًّا ولا تواضع أحد لله إلا رفعه الله » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزوم التواضع ومجانبة التـكبر ، ولو لم يكن فى التواضع خصلة تحمد إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعةً لـكان الواجب عليه أن لايتزيًّا بغيره .

والتواضع تواضعان : أحدهما محمود ، والآخر مذموم . والتواضع المحمود : ترك التطاول على عباد الله ، والإزراء بهم . والتواضع المذموم . هو تواضع المرء لذى الدنيا رغبةً فى دنياه .

فالعاقل يلزم مفارقة التواضع المذموم على الأحوال كلها ، ولا يفارق التواضع المحمود على الجهات كلها .

ولقد أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن ابن عجلان عن بُـكير بن عبد الله، عن عبيد الله بن عدى أن عمر بن الخطاب قال « إن

الرجل إذا تواضع لله رفع الله حكمتَهُ ،[١] وقال : انتعش نعشك الله ، فهو فى نفسه صغير ، وفى أعين الناس كبير ، وإذا تكبر العبد وعدا طَوْره وهصَه الله إلى الأرض ، وقال : اخسأ ! اخسأك الله ، فهو فى نفسه كبير،وفى أعين الناس صغير»

قال أبو حاتم رضى الله عنه : التواضع يرفع المرء قدراً ، ويعظم له خطراً ، ويزيده نُبلا .

والتواضع لله جل وعز على ضربين :

أحدهما . تواضع العبد لربه عند مايأتى من الطاعات غير معجب بفعله ، ولا راء له عندهُ حالةً يوجب بها أسباب الولاية ، إلا أن يكون المولى جل وعز هو الذى يتفضل عليه بذلك،وهذا التواضع هو السبب الدافع لنفس العُجب عن الطاعات

والتواضع الآخر : هو ازدراء المرء نفسه واستحقاره إياها عند ذكره ماقارف من المآثم حتى لايرى أحداً من العالم إلا ويرى نفسه دونه فى الطاعات وفوقه فى الجنايات .

كما أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفى ببغداد ، حدثنا يحيى بن معين حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث عن عبد الله بن بكر بن عبد الله المزنى قال : قال أبى « يابنى لو لم أحضر الموسم لرجوت أن يغفر لهم » .

أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى بن معاذ البزاز ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا ابن صُميع ، حدثنا زهير بن محمد عن ابن جريج عن مجاهد فى قوله (كانوا لنا خاشعين) قال « متواضعين » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يلزم مجانبة التكبر ، لما فيه من الخصال المذمومة .

---

(١) الحكمة ـ بفتحات ـ حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه ومنه حديث عمر « إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته » ورفعها كناية عن الاعزاز ، لأن من صفة الذليل تنكيس رأسه .

إحداها : أنه لايتكبر على أحد حتى يعجب بنفسه ، و يرى لها على غيرها الفضل؟

والثانية : ازدراؤه بالعالم ، لأن من لم يستحقر الناس لم يتكبر عليهم ، وكفى بالمستحقر لمن أكرمه الله بالإيمان طغيانا .

والثالثة : منازعة الله جل وعلا فى صفاته ، إذ الكبرياء والعظمة من صفات الله جل وعلا ؛ فمن نازعه إحداهما ألقاه فى النار ، إلا أن يتفضل عليه بعفوه .

ولقد أحسن الذى يقول :

التيهُ مَفْسدة للدين ، منقصة　　للعقل ، مهتكة للعرض ، فانتبه

لا تَشْرَهَنَّ ؛ فإن الذل فى الشره　　والعزُّ فى الحلم لافى البطش والسفه

سمعت محمد بن محمود النسائى يقول : سمعت أبا داود السنجى يقول سمعت الأصمعى يقول : سمعت يحيى بن خالد البرمكى يقول « الشريف إذا تقرأ [1] تواضع ، والدنىء إذا تقرأ تكبر »

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا يمتنع من التواضع أحد ، والتواضع يكسب السلامة ، و يورث الألفة ، و يرفع الحقد ، و يذهب الصد ، وثمرة التواضع المحبة ، كما أن ثمرة القناعة الراحة ، و إن تواضع الشريف يزيد فى شرفه ، كما أن تكبر الوضيع يزيد فى ضعته ، وكيف لا يتواضع من خُلقَ من نطفة مَذِرَةٍ ، وآخره يعود جيفة قذرة ، وهو بينهما يحمل العذرة ؟

سمعت أبا يعلى يقول : سمعت إسحاق بن أبى إسرائيل يقول : سمعت ابن عيينة يقول : لو قيل : أخرجوا خيار هذه القرية لأخرجوا من لا نعرف .

وأنشدنى الكريزى :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا　　فكم تحتها قوم هُمُ منك أرفع

فإن كنت فى عز وخير ومَنْعة　　فكم مات من قوم هم منك أمنع ؟

---

(١) تقرأ : تنسك .

أنشدنا أبو عروبة أو ابن قتيبة ، أنشدنا المسيب بن واضح عن يوسف بن أسباط :

وكفى بمتلمس التواضع رفعةً وكفى بملتمس العلو سفالا

أنبأنا ابن خزيمة ، حدثنا محمد بن هشام المروزى ، حدثنا حفص بن غياث عن جعفر بن محمد ، عن أبيه قال « حج الحسين بن على عشر حجج ماشياً ونُجُبه[1] تقاد إلى جنبه » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أفضل الناس مَنْ تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة ، وأنصف عن قوة ، ولا يترك المرء التواضع إلا عند استحكام التكبر ، فلا يتكبر على الناس أحد إلا بإعجابه بنفسه ، وعجب المرء بنفسه أحد حساد عقله ، وما رأيت أحداً تكبر على مَنْ دونه إلا ابتلاه الله بالذلة لمن فوقه .

وأنشدنى محمد بن أبي على الخلادى :

ودع التيه والعبوس على النا س فإن العُبُوس رأس الحماقة

كلما شئت أن تعادىَ عاديـ ـتِ صديقا وقد تغر الصداقة

قال أبو حاتم رضى الله عنه : ما استُجلبت البغضة بمثل التكبر ، ولا اكتسبت المحبة بمثل التواضع ، ومَن استطال على الاخوان فلا يثقن منهم بالصفاء ولا يجب لصاحب الكبر أن يطمع فى حسن الثناء ، ولا تكاد ترى تائها إلا وضيعاً .

فالعاقل إذا رأى من هو أكبر سناً منه تواضع له ، وقال: سبقنى إلى الإسلام ، وإذا رأى من هو أصغر سناً تواضع له ، وقال : سبقته بالذنوب ، و إذا رأى من مثله عده أخا ، فكيف يحسن تكبر المرء على أخيه ، ولا يجب استحقار أحد ، لأن العود المنبوذ ربما انتفع به فحكَّ الرجل به أذنه .

أخبرنا محمد بن المسيب بن إسحاق ، حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد ، قال : سمعت محمد بن شعيب بن شابور يقول « دخل رجل الحمام وزيد بن أبى حبيب

---

(١) نجب ـ بضم النون والجيم ـ جمع نجيب ، وهو الجمل .

فيه ، وكان أسود ، فقال له : يا أسود قم فاغسل رأسي قال : فقام فشد عليه إزاره فغسل رأسه ، ودلك جسده ، فلما فرغ قال له الرجل: كثر الله فى السودان مثلك ، قال : أحببتَ أن يكثر مَنْ يخدمك » .

أنبأنا محمد بن زنجويه القشيرى ، حدثنا عبد عبد العزيز بن الله المدائنى ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال « لو بغى جبل على جبل لدك الله الباغى منهما » .

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا نصر بن على ، حدثنا نوح بن قيس عن أخيه عن قتادة قال : « مانسيت شيئاً قط » ثم قال لغلامه « ناولنى نَعْلى ، قال : نعلك فى رجلك »[1] .

أنبأنا عبد الله بن محمد بن عمر ، أنبأنا على بن خَشْرم ، قال : سمعت الفضل بن موسى يقول « كان مالك ينسى ، فقال لقهرمانه[2] : اشتر لى غلاما وسَمِّه باسم خفيف حتى لا أنساه ، قال فاشترى له غلاماً ، وأدخله عليه . فقال: اشتريت لك هذا الغلام ، وسميته باسم خفيف ، قال : ماسميته ؟ قال : فَرْقَد ، قال : فنظر إلى الغلام ، وقال : اجلس يا واقد »

ذكر استحباب التحبب إلى الناس من غير مقارفة المأثم[3]

أنبأنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبار ببغداد ، حدثنا يحيى بن مَعين ، حدثنا عَبدَةُ بن سليمان عن هشام بن عروة ، عن موسى بن عقبة ، عن عبد الله بن عمرو الأزدى ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يحرم على النار كلُّ هيِّن لَيِّن قريبٍ سَهْل »[4] .

---

(١) العبرة فى هذا : أنه أنسى مالا يصح أن ينسى ، فكان دليلا على فساد دعواه

(٢) القهرمان : الخادم . ومالك : هو ابن أنس إمام دار الهجرة .

(٣) أى مع التحفظ والحذر أن يدنو مما فيه إثم وخطيئة لغضب الله .

(٤) هين : ليس نافراً مستعصياً . لين الجانب : ليس خشناً قريب الخلق ليس شكساً

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يتحبب إلى الناس بلزوم حسن الخلق : وترك سوء الخلق ؛ لأن الخلق يذيب الخطايا ، كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخلق السىء ليفسد العمل ، كما يفسد الخلُّ العسل ، وقد تكون فى الرجل أخلاقٌ كثيرة صالحة كلها ، وخلق سىء ، فيفسد الخلق السىء الأخلاق الصالحة كلها . وأنشدنى البغدادى :

خالق النـاس بخلق حسن لا تكنْ كلباً على النـاس يَهِرْ
والْقَهُمْ منك ببشر ، ثم صُنْ عنهمُ عرضك عن كل قَذِرْ

أنبأنا حامد بن شعيب البلخى ببغداد ، حدثنا سريج بن يونس ، حدثنا سفيان عن إبراهيم عن ميسرة عن طاوس قال : سمعت ابن عباس يقول « إن الرحم تُقْطَع ، وإن النعم تُكْفَرَ ، ولم أرَ مثل تقارب القلوب » .

أنبأنا الخلادى ، حدثنا محمد بن المغيرة النوفلى ، حدثنا عبد العزيز بن منيب حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول « إذا خالطتَ فخالط حَسَنَ الخلق ، فإنه لايدعو إلا إلى خير ، وصاحبه منه فى راحةٍ ولا تخالط سيِّءَ الُخلق فإنه لا يدعو إلا إلى شر ، وصاحبه منه فى عناء ، ولَأَنْ يصحَبنى فاجرٌ حَسَنُ الخلُقِ أحبُّ إلى من أن يصحبنى قارىء سىء الخلق ، إن الفاسق إذا كان حَسن الخلق عاش بعقله وخف على الناس وأحبوه ، وإن العابد إذا كان سىء الخلق ثقل على الناس ومَقَتوه » .

وأنشدنى محمد بن المهاجر المعدل ، أنشدنى محمد بن إبراهيم اليعمرى :

حافظ على الخلق الجميلِ ومُرْ به ما بالجميـل وبالقبيح خفاء
إن ضاق مالُكَ عن صديقك فالْقَهُ بالبشر منـك إذا يحين لقاء

أنبأنا الحسين بن إسحاق الأصبهانى ، حدثنا يحيى بن حكيم المقومى ، حدثنا الخليل بن عبد العزيز ، قال : سمعت حماد بن سلمة يقول « الصوم

فى البستان من الثقل »[1] .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : حسن الخلق بَذْر اكتساب المحبة ، كما أن سوء الخلق بَذْر استجلاب البِغْضة ، ومن حَسُنَ خُلقه صان عرضه ، ومن ساء خُلُقه هَتك عرضه ؛ لأن سوء الخلق يورث الضغائن ، والضغائن إذا تمكنت فى القلوب أورثت العداوة ، والعداوةَ إذا ظهرت من غير صاحب الدين أهوت صاحبها إلى النار ، إلا أن يتداركه المولى بتفضل منه وعفو .

أنبأنا محمد بن المنذر ، حدثنا أبو حاتم الرازى ، حدثنا أبو عمير النخاس ، حدثنا ضَمُرة ، عن رجاء بن أبى سلمة عن الزهرى قال « وهل يُنتفع من السَّيِّء الخلق بشىء ؟ » .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

للخير أهــــلٌ لاتزا ل وجوههم تدعو إليه
طوبى لمن جَرت الأمو ر الصـــالحات على يديه
مالَمْ يضق خُلُق الفتى فالأرض واسعة عليــه

أنبأنا أبو يعلى ، حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء ، حدثنا مهدى بن ميمون عن موسى بن عبيد ، عن ميمون بن مِهْران قال « التودُّد إلى الناس نصفُ العقل، وحسن المسألة نصفُ العلم ، واقتصادك فى معيشتك يُلْقِى عنك نصف المؤونة » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : التحبب إلى الناس أسهل ما يكون وجهاً ، وأظهر ما يكون بشْرا ، وأحصر ما يكون أمراً ، وأرفق ما يكون نهيــاً ، وأحسن ما يكون خُلُقا ، وألين ما يكون كَنَفا ، وأوسع ما يكون يداً ، وأدفع ما يكون أذًى ، وأعظم ما يكون احتمالا ، فإذا كان المرء بهذا النعت لا يَحْزَنُ من يحبهُ

---

(١) أى صوم التنفل مع وجود الرفقة الذين خرجوا للنزهة والتفرج فى بستان كثير الفاكهة التى قلما ينالها طلاب العلم ، فمن صام كذلك كان متنطعا .

ولا يَفْرَحُ من يحسُده ؛ لأن من جعل رضاه تبعاً لرضا الناس[١] ، وعاشرهم من حيث هم استحق الكمال بالسؤدد . وأنشدنى على بن محمد البسامى :

أعاشر مَعْشَرى فى كل أمرٍ   بأحسن ما أُريتُ وما رأيتُ
واجتنب المقابح حيث كانت   واترك ماهويتُ وما فَرَيْتُ[٢]

قال أبو حاتم رضى الله عنه : حاجة المرء إلى الناس مع محبتهم إياه خير من غناه عنهم مع بغضهم إياه ، والسبب الداعى إلى ضَدّ محبتهم له : هو التضايق فى الأخلاق ، وسوء الخلق ؛ لأن من ضاق خلقه سئمه أهله وجيرانه ، واستثقله إخوانه ، فحينئذ تمنَّوا الخلاص منه ، ودعوا بالهلاك عليه .

سمعت عمر بن سعيد بن سنان الطائى يقول : سمعت أبا الحسن الرهاوى يقول : سمعت يزيد بن هارون يقول :

فقَدت ثقالَ الناس فى كل بلدةٍ   فياربِّ لا تغفر لكل ثقيل

أنبأنا أَحمد بن محمد بن الحسن البلخى حدثنا محمد بن إدريس الحافظ حدثنا محمد بن عبد الله بن إسماعيل قال : سمعت عمرو بن الحارث يقول : تسخين العين النظر إلى من تكره[٣] .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الاستثقال من الناس يكون سببه شيئين :

أحدها : مقارفة المرء مانهى الله عنه من المآثم ؛ لأن من تعدى حرمات الله أبغضه الله ، ومن أبغضته الله أبغضه الملائكة ، ثم يوضع له البغض فى الأرض ،

---

(١) على شرط أن لايرضيهم بما يغضب الله ، ويعنى بذلك أن يكون موطأ الكنف يألف ويؤلف .

(٢) وما فريت : أى ما أتيت من الأعمال العجيبة . يقال: «وفلان يفرى الفرا» . إذا كان يأتى بالعجب . اهـ من لسان العرب .

(٣) من قولهم « أسخن الله عينه » أى أحزنه ، كما قالوا « أقر الله عينه » إذا دعوا بأن يسره ويفرحه .

فلا يكاد يراه أحد إلا استثقله وأبغضه .

والسبب الآخر : هو استعمال المرء من الخصال ما يكره الناس منه ، فإذا كان كذلك استحق الاستثقال منهم . وأنشدنى الكريزى :

ليتنى كنت ساعةً ملَكَ المـــوت ، فأُفنى الثقال حتى يَبيدوا
وَلَوْ أنى وأنت فى جنة الخـــلد لَقلت : الخروجَ منها أريد
لدخولُ الجحيم أهون من جنـــة خلدٍ ، أراك فيهـا تزود

أنبأنا عمر بن حفص البزاز بجنديسابور حدثنا إسحاق بن الضيف حدثنا أبو مسهر حدثنا هشام بن يحيي قال « كان نقش خاتم أبيك — يعنى أبا أبى مسهر — أَبْرَمت [1] فقم ، قال : فكان إذا جلس إليه الرجل فتثاقل حرك خاتمه ، وقال : اقرأ نقش خاتمى ، وكان إذا قرأ قام » .

أنبأنا أحمد بن محمد بن الحسن حدثنا محمد بن إدريس حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا موسى بن رباح قال : سمعت مخلداً أبا أبي عاصم يقول : إذا أبغضت الرجل أبغضت شِقِّي الذى يليه .

سمعت محمد بن السرى البغدادى يقول : سمعت أبا بكر المروذى يقول : سألت أحمد بن حنبل عن الثقلاء ، فقال : سألت عنهم بشراً الحافى ، فقال : النظر إليهم سُخْنة العين ، قلت لأحمد : من الثقلاء ؟ قال : أهل البدع .

قال أبو حاتم رضى الله عنه . هذا الذى قال أحمدُ بن حنبل رحمة الله عليه هو استثقال الخاص : إذا عرَف أحدهم من بعض الناس ثلْماً فى السُّنة [2] أبغضه على بدعته ، فأما العام [3] فلا يكادون يعادُون ويوالون إلا على المحبوب من

---

(١) تقول : أبرم الرجل إبراما : أى أضجره وأمله وأسأمه .
(٢) الثلمة : فرجة المكسور والمهدوم ، ويعنى به التجافى عن السنة
(٣) أى العامة والجمهور من الناس

الخصال ، والمكروه من الفعال ، ألا ترى المقنَّع الكِندى حيث يقول لبعض من صحبه :

ألا يا مَرْكبَ المقت الـــذى أرسَى ، فلا يبرحْ
ويا من سكراتُ المو ت من طلعته أروحْ (١)
لقد صُوِّرت فى فكرى فلا أدرى لما تصلحْ ؟
فلا تصلح أن تهجَى ولا تصلح أن تمدحْ
بلى ، تصلح أن تُقتـــل أو تصلب أو تُذبحْ

سمعت أحمد بن محمد البلخى الذهبى يقول : قال محمد بن أبى الورد قال يحيى ابن ماسويه : النظر إلى الثقيل حُمَّى تعترى بين الجلدين .

حدثنا أحمد بن عمر بن يزيد يقول . سمعت سلمة بن شبيب يقول : سمعت أبا أسامة يقول : ائتونى بمسْتَمْلٍ خفيف على الفؤاد ، و إيایَ والثقلاء ، و إيايَ والثقلاء .

أنبأنا أحمد بن محمد بن الحسن حدثنا عباس بن أبى طالب حدثنا إبراهيم ابن المنذر حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن سيرين قال : سمعت رجلا من أهل البادية يقول : نظرت إلى ثقيل مرة فغُشى علىّ .

وأنشدنى المنتصر بن بلال :

وأنت على مَوَدَّتنا حريص ولكن لاتخفُّ على الفؤاد
وأثقل من رحا بَزْر علينا (٢) كأنك من بقايا قوم عاد

حدثنا إبراهيم بن مضر بن عنبر حدثنا يوسف بن عيسى حدثنا وكيع حدثنا أبو سهل عن إبراهيم بن بكير قال : كان أبو هريرة إذا إستثقل جليساً له قال « اللهم اغفر لنا وله ، وأرحنا منه فى عافية » .

---

(١) من الراحة : أى أكثر راحة
(٢) أى الرحى إذا طحن حب البزر الرطب بخلاف الرحا يطحن بها ما يعد بالتجفيف للطعام .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل مجانبة الخصال التى تورثه استثقال الناس إياه ، وملازمة الخصال التى تؤديه إلى محبتهم إياه .

ومن أعظم ما يُتوسل به إلى الناس ويستجلب به محبتهم : البذلُ لهم مما يملك المرء من حُطام هذه الدنيا ، واحتماله عنهم ما يكون منهم من الأذى .

فلو أن المرء صحبه طائفتان : إحداهما تحبه ، والأخرى تبغضه ، فأحسن إلى التى تبغضه ، وأساء إلى التى تحبه ، ثم أصابته نكبة فاحتاج إليهما ، لكان أسرعهما إلى خلانه وأبعدهما عن نصرته الطائفة التى كانت تحبه ، وأسرعهما إلى نصرته وأبعدهما عن خذلانه الطائفة التى كانت تبغضه ، لأن الكلب إذا شبع قوى ، وإذا قوى أمَّل ، وإذا أمل تبع المأمول ، وإذا جاع ضعف ، وإذا ضعف أيس ، وإذا أيس ولى عن المتبوع .

فمن عدم المال فليبسُط وجهه للناس(١) . فإن ذلك يقوم مقام بذْل المعروف ، إذ هو أحد طرفيه .

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل حدثنا هارون بن عبد الخالق المازنى قال : سئل ابن المبارك عن حسن الخلق ، فقال « هو بسط الوجه ، وبذل المعروف » .

أنبأنا الحسن بن سفيان حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث حدثنا محمد بن القاسم الأسدى عن منحة بن عمرو قال « خرج غلام لنا بقمامة الدار ، أو بكناسة الدار عُريان ، وسعيد بن جبير على الباب ، فقال : يا خبيث ارفع إزارك » .

أنبأنا محمد بن إبراهيم البدورى بالبصرة حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادى حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : إذا لقى المسلم أخاه فصافحه وكشَر(٢) فى وجهه تحاتت ذنوبه ، كما تحاتّ العِذق من النخْلة . فقال

---

(١) أى يسعهم ببشره وحسن أخلاقه ، حيث لم يسعهم بماله ، فإن فى الأثر « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » .

(٢) كشر : تبسم وضحك ، لأنه يقال : كشر عن أسنانه أى أبداها .

رجل لمجاهد : يا أبا الحجاج ، إن هذا من العمل اليسير . فقالَ مجاهد : (٨ : ٦٢ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) أفيسير هذا ؟ .

ذكر استعمال لزوم المداراة ، وترك المداهنة مع الناس

أنبأنا محمد بن قتيبة اللخمى بعسقلان وعمرو بن سعيد بن سنان الطائى بمنبج قالا : حدثنا ابن واضح حدثنا يوسف بن أسباط حدثنا سفيان عن محمد ابن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مدارة الناس صدقة » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يلزم المداراة مع من دفع إليه فى العشرة من غير مقارفة المداهنة ، إذ المداراة من المدارى صدقة له ، والمداهنة من المداهن تكون خطيئةً عليه ، والفصل بين المداراة والمداهنة : هو أن يجعل المرء وقته فى الرياضة لإصلاح الوقت الذى هو له مقيم بلزوم المداراة من غير ثَلْم فى الدين من جهة من الجهات ، فمتى ما تخلَّق المرء بخلق شابهُ[1] بعض ما كره الله منه فى تخلقه ، فهذا هو المداهنة ، لأن عاقبتها تصير إلى قُلٍّ ويلازم المدارة ؛ لأنها تدعو إلى صلاح أحواله ، ومن لم يدار الناس مَلُّوه كما أنشدنى على بن محمد البسَّامى :

دار من الناس مَلالاتِهم ... مَنْ لم يدارِ الناسَ مَلُّوه
وَمُكرِمُ الناس حبيب لهم ... من أكرم الناس أحبوه

أنبأنا محمد بن أحمد بن أبى عون الريانى حدثنا أحمد بن منيع حدثنا ابن المبارك عن الحسن بن عمرو عن منذر الثورى عن ابن الحنفية قال « ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لايجد من معاشرته بُدًّا ، حتى يأتيه الله منه بالفرج أو المخرج» .

---

(١) أى : خالطه . يقال : شاب اللبن ماء ، أى خلطه .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يدارى الناس مداراة الرجل السابح فى الماء الجارى ، ومن ذهب إلى عِشرة الناس من حيث هو كدَّر على نفسه عيشه ، ولم تصفُ مودّته ؛ لأن وداد الناس لا يستجلب إلا بمساعدتهم على ما هُمْ عليه إلا أن يكون مأثماً ، فإذا كانت حالة معصية فلا سمع ولا طاعة ، والبَشَر قد رُكِّب فيهم أهواء مختلفة وطبائع متباينة ، فكما يَشُقُّ عليك ترك ما جُبِلت عليه ، فكذلك يَشُقُّ على غيرك مجانبة مثله ، فليس إلى صفو ودادهم سبيل ، إلا بمعاشرتهم من حيث هم ، والإغضاء عن مخالفتهم فى الأوقات ، أنشدنى الأبرش :

وقالت وهزت رأسها وتضاحكت على الود تُجْفَى ، أم على العهد تُوصَلُ؟
فقلت : فلم أفعل ، فقالت : تُريده فقلت : فلم أفعل ، فقالت : ستفعل

أنبأنا ابن قحطبة حدثنا أحمد بن المقدام حدثنا حرم [1] قال : سمعت حبيب ابن الشهيد يقول : سمعت الحسن يقول « ياابن آدم ، اصحب الناس بأى خُلق شئت يَصحبوك عليه » وأنشدنى الكريزى :

تُجَنىّ على بما قد جنى ويُغْلِظ فى القول إن لِنتُ له
ويسبق بالعذل لى ظالماً كأنّ الصواب له لا لِيَهْ
كما قال فى مَثَلٍ عالمٌ خذِ اللص بالذنب لا تُغْفِله [2]

قال أبو حاتم رضى الله عنه : من التمس رضا جميع الناس التمس ما لا يُدْرَكْ ، ولكن يقصد العاقل رضا من لا يجد من معاشرته بُدًّا ، وإن دفعه الوقت إلى استحسان أشياء من العادات كان يستقبحها ، واستقباح أشياء كان يستحسنها ، ما لم يكن مأثماً ؛ فإن ذلك من المداراة ، وما أكثَرَ من دارى فلم يسلم ، فكيف

---

(١) فى الخلاصة فى ترجمة أحمد بن مقدام : وروى عن حماد بن زيد ، وجزم القطيعى ــ بالجيم والزاى .

(٢) من أمثال العرب « خذ اللص قبل أن يأخذك » .

توجد السلامة لمن لايدارى ؟ أنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

ياذا الذى أصبح لا والدٌ له على الأرض ولا والده
قد مات من قبلهما آدم فأى نفس بعده خالدة ؟
إن جئتَ أرضاً أهلَها كلهم عُورٌ فغمض عينكَ الواحده

أنبأنا أبو يعلى ، حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء ، حدثنا مهدى بن ميمون ، حدثنا معاذ بن سعد الأعور قال « كنت جالساً عند عطاء بن أبى رباح فحدث رجل بحديث ، فعرَّض رجل من القوم فى حديثه ، قال : فغضب ، وقال : ماهذه الطباع ؟ إنى لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به ، فأُريه كأنِّى لاأحسن منه شيئاً » .

أنبأنا محمد بن المهاجر حدثنا محمد بن محمد الصيداوى حدثنا حماد بن إسحاق عن المدائنى ، قال : قال معاوية « لو أن بينى و بين الناس شعرة ماانقطعت ، قيل : وكيف ؟ قال : لأنهم إن مَدُّوا خَلَّيتُها ، و إن خَلَّوْا مددتها » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : من لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما يأتون من المكروه ، وترك التوقُّع لما يأتون من المحبوب ، كان إلى تكدير عيشه أقربَ منه إلى صفائه ، و إلى أن يدفعه الوقت إلى العداوة والبغضاء أقرب منه إلى أن ينال منهم الوداد ، وترك الشَّحناء ، ومن لم يدارِ صديق السوء كما يدارى صديق الصّدق ليس بحازم ، ولقد أحسن الذى يقول :

تجنب صديق السوء واصرِمْ حباله وإن لم تجد عنه محيصاً فدارِهِ
وأحبب حبيب الصدق واحذر مراءه تَنَلْ منه صَفْو الوُدِّ مالم تماره

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا إبراهيم الحورانى ، حدثنا أبو مسهر ، حدثنا سهل بن هاشم عن إبراهيم بن أدهم قال : قال أبو الدرداء لأم الدرداء « إذا غضبتُ فرضِّينى ، و إذا غضبت رضَّيتك ، فإذا لم نكن هكذا ماأسرعَ مانفترق »

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل إذا دفعه الوقت إلى صحبة من لايثق

بصداقته ، أو صداقة من يثق بأخوته ، فرأى من أحدهما زَلّةً فرَفَضَه لزلته ، بقي وحيداً لا يجد مَن يعاشر ، فريداً لا يجد من يخادن ، بل يُغْضى على الأخ الصادق زلاته ، ولا يناقش الصديق السيء على عثراته ؛ لأن المناقشة تلزمه فى تصحيح أصل الوداد أكثر مما تلزمه فى فرعه .

ومن أنواع المداراة : ماحدثنى الحسن بن سفيان ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن شَبّويه ، حدثنا الحسن بن واقع ، حدثنا ضمرة عن ابن شَوْذَب قال « كانت لرجل جارية ، فوطئها سراً ، فقال لأهله : إن مريم كانت تغتسل فى هذه الليلة ، فاغتسلوا ، فاغتسل هو واغتسل أهله ، قال ابن شوذب : وكانت مريم تغتسل فى كل ليلة » .

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

أُغَمِّضُ عينى عن صديقى ، كأننى ... لديه بما يأتى من القبح جاهلُ
وما بيَ جهل ، غير أن خليقتى ... تطيق احتمال الكُره فيما أحاول
متى مايَرِبنى مَفْصِل فقطعتُه ... بقيت ومالى فى نهوضى مفاصل (١)
ولكن أداريه ، وإن صَحَّ شدَّنى ... فإن هو أعيا كان فيه تحامل (٢)

أنبأنا محمد بن أبى على الخلادى ، حدثنا محمد بن الحسن الذهلى عن أبى السائب قال : قال على « لا تعامل بالخديعة ، فإنها خُلق اللئام ، وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أم قبيحة ، وساعده على كل حال ، وزُل معه حيث زال »

(١) يقول : لو أنى كلما رابنى من صديق أمر يسبب فصل مابيننا من مودة لم أجد عند احتياجى إلى من ينهض بى عند عثرتى صديق ، كما قال بشار بن برد :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه

(٢) يقول : إن من الحكمة أن أدارى صديقى وأغض عن زلاته ، حتى إذا صح وده قويت به ، وأعطانى شدة فى أمرى ، وإن ضعف وعجز وجدت منه بعض مايتحامل به من قوة أنتفع بها .

ذكر استحباب إفشاء السلام، وإظهار البشر والتبسم

أنبأنا أحمد بن صالح الطبرى حدثنا الفضل بن سهل الأعرج ، حدثنا محمد ابن جعفر المدائنى ، حدثنا وَرْقاء عن الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن السلام اسم من أسماء الله ، وضعه فى الأرض ، فأفشوه بينكم ؛ فإن الرجل المسلم إذا مَرَّ بالقوم فسلَّم عليهم فردُّوا عليه كان له عليهم فَضْل درجة بتذكيره إياهم بالسلام ، فإن لم يردوا عليه رَدَّ عليه مَنْ هو خير منهم وأطيب » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يلزم إفشاء السلام على العام ؛ لأن من سَلَّم على عشرة كان له عِتق رقبة ، والسلام مما يَذْهبُ إمشاؤه بالمكتنِ من الشحناء [١] ، وما فى الخلد من البغضاء ، ويقطع الهجران ، ويصافى الإخوان :

والبادىء بالسلام بين حسنتين : إحداهما : تفضيل الله عز وجل إياه على المسلم عليه بفضل درجة ، لتذكيره إياهم بالسلام ، وبين رَدِّ الملائكة عليه عند غفلتهم عن الرد .

ولقد أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارى ، حدثنا الغلابى ، حدثنا شعيب بن واقد حدثنا جرير ، قال : قال زبيد اليامى [٢] « إن أجود الناس من أعطى مالا لا يريد جزاءه ؛ وإن أحسن الناس عفواً من عفا بعد قدرة ، وإن أفضل الناس من وصل من قطعه ، وإن أبخل الناس من بخل بالسلام » .

أخبرنا أبو خليفة حدثنا محمد بن كثير أنبأنا سفيان عن أبى إسحاق عن

---

(١) المكتن: ما أكنه الضمير فأخفاه . والشحناء : الخصومة . والخلد ـ بفتح الخاء واللام ـ البال والقلب والنفس . وجمعه : أخلاد . يقال « وقع ذلك فى خلدى » أى فى روعى وقلبى . (٢) هو زبيد ـ مصغرا ـ بن الحارث اليامى ، ويقال : الإيامى .

صلةَ بن زُفر العَبْسى ، قال : حدثنا عمار بن ياسر قال « ثلاثٌ من جمعهن جمع الإيمان : الإنفاق من الإقتار ، والإنصاف من نفسك ، و بذل السلام للعالم » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على المسلم إذا لقى أخاه المسلم أن يسلم عليه متبسما إليه فإنَّ من فعل ذلك تحاتَّ عنهما خطاياهما كما تحاتَّ (١) وَرَقُ الشجر فى الشتاء إذا يَبِسَ ، وقد استحق المحبة من أعطاهم بشر وجهه .

ولقد أخبرنى محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا إبراهيم بن عبدالسلام العنبرى ، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنا إسماعيل بن حماد عن سعيد بن الخمس قال : قيل له « ما أبشَّك ؟ قال : إنه يقوم علىَّ برِخيص » (٢) وأنشدنى الأبرش :

أخو البشر محبوب على حسن بشره   ولن يَعدِم البغضاء من كان عابسا
و يسرع بُخلُ المرء فى هَتْكِ عِرْضه   ولم أرَ مثل الجود للمرء حارسا

قال أبو حاتم : البشاشة إدام العلماء وسَجِية الحكماء ، لأن البشر يطفىء نار المعاندة ، ويحرق هيجان المباغضة ، وفيه تحصينٌ من الباغى ، وَمَنجاة من الساعى (٣) ، ومن بَشَّ للناس وجهاً لم يكن عندهم بدون الباذل لهم ما يملك .

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا إبراهيم بن محمد العبادى حدثنا سُويد عن على بن مسْهر عن هشام بن عروة عن أبيه قال « أخبرت أنه مكتوب فى الحكمة : يابنى ، لِيَكُنْ وجهك بَسْطاً ، ولْتَكُنْ كلمُتك طَيِّبَةً ـ تكن أحبَّ إلى الناس من أن تعطيهم العطاء .

وأنشدنى الخلادى أنشدنا أحمد بن بكر بن خالد اليزيدى لسعيد بن عبيَد الطائى :

---

(١) تحات : سقط لجفافه ويبسه .
(٢) يقول : إن البشاشة رخيصة لا تكلفه مالا ولا جهداً ، وإنها غالية وقيمة ، لأنها تجذب القلوب ، وتقتلع أسباب البغضاء .
(٣) الذى يسعى بالوقيعة ليفرق بين الأحبة .

إلقَ بالبشر من لقيت من النـــاس جميعاً ولاقِهمْ بالطلاقهْ
تجْنِ منهمُ جَنَي ثمار، فخذها طيباً طعمُه لذيذَ المذاقهْ

أخبرنا محمد بن صالح الطبرى حدثنا محمد بن حميد حدثنا حَكَّام بن مسلم عن سعيد بن عبد الرحمن الزبيدى قال « يعجبنى من القراء كل سَهلٍ طَلْق مِضْحاك فأما من تلقاه ببشر ويلقاك بعبُوس يَمُنُّ عليك بعمله ، فلا أكثر الله فى القراء ضربَ هذا (١) » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا يجب على العاقل إذا رزق السلوك فى ميدان طاعة من الطاعات إذا رأى من قَصَّر فى سلوك قَصْده أن يُعَبِّس عليه بعمله وجهَه ، بل يُظهر البِشْر والبشاشة له ، فلعله فى سابق علم الله أن يرجع إلى صحة الأوبة إلى قصده مع ما يجب عليه من الحمد لله والشكر له على ما وفقه لخدمته ، وحرَمَ غيره مثله :

أخبرنا محمد بن أبى على الخلادى أخبرنى محمد بن موسى السمرى أن حماد ابن إسحاق أنشدهم :

فتىً مثـــل صفو الماء ، أما لقاؤه فبِشرٌ ، وأما وَعْده فجميلُ
يسرُّك مُفْتَرًّا ، ويشرق وجهُه إذا اعتلَّ مذموم الفعال بخيل
عَيِيٌّ عن الفحشاء ، أما لسانه فعَفٌّ ، وأما طَرفُه فكليل

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

لن تستتم جميـلاً أنت فاعُله إلا وأنت طليقُ الوجه بهلولُ
ما أوسطَ الخيرَ فابسُطْ راحتيك به وكن كأنك دون الشَّرِّ مغلول

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل حدثنا الدارمى حدثنا موسى بن إسماعيل

---

(١) الضرب والضريب . مثيل فى الشكل والقد والخلق . ويقال « فلان ضريب فلان » أى نظيره وشبيهه . والجمع ضروب وضرائب .

حدثنا أبو عوانة عن اسماعيل بن سالم عن حبيب بن أبي ثابت قال « من حسن خلق الرجل أن يحدث صاحبه وهو يتبسم » .

ذكر ما أبيح من المزاح للمرء ، وما كره له منه

أنبأنا أحمد بن على بن المثنى حدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام بن يحيى حدثنا قتادة عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان له خادم يقال له : أنجَشَة ، وكان حَسَنَ الصوت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أنجشة لا تكسر القوارير[1] » قال قتادة : يعنى ضَعَفَةَ النساء .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يستميل قلوب الناس إليه بالمزاح ، وترك التعبّس .

والمزاح على ضربين : فمزاح محمود ، ومِزاح مذموم .

فأما المزاح المحمود : فهو الذى لايَشُوبه[2] ما كَره الله عز وجل ، ولا يكون بإثم ولا قطيعة رحم .

وأما المزاح المذموم : فالذى يُثير العداوة ، ويُذهب البهاء ، ويقطع الصداقة ، ويُجرِّىء الدنىء عليه ، ويُحقد الشريف به .

أخبرنا محمد بن المنذر حدثنا إبراهيم بن محمد الرقى حدثنا أبو موسى الأنصارى حدثنا بكر بن سليم قال : سمعت ربيعة يقول « إياكم والمزاح ، فإنه يُفسد المودة ، ويُغِلُّ الصدر » .

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا الفضيل بن الخضر التميمى حدثنا عبد الله ابن حُبيق قال : كان يقال « لاتمازح الشريف ، فيحقِدَ عليك ، ولا تمازح الوضيع ، فيجترىء عليك » .

وأنشدنى محمد بن عبد الله :

---

(١) كان أنجشة رضى الله عنه يحدو الإبل وينشطها فى السير بجميل صوته ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم « يا أنجشة رفقاً بالقوارير » (٢) يشوبه : يخالطه

أكرم جليسك ، لا تمازح بالأذى　　إن المزاح تُرَى به الأضغانُ[١]

كم من مزاح جَذَّ حَبْلَ قرينه　　فتجذَّمت من أجله الأقران[٢]

قال أبو حاتم رضى الله عنه : المزاح فى غير طاعة الله مَسْلَبة للبهاء مَقْطَعة للصداقة ، يورث الضِّغْن ، وينبت الغِلَّ .

وإنما سمى المزاح مزاحاً لأنه زاح عن الحق ، وكم من افتراق بين أخوين ، وهجران بين متآلفين ، كان أولَ ذلك المزاحُ .

أنبأنا محمد بن أحمد بن الحسين القرشى حدثنا الأسود بن عامر عن أبى إسرائيل عن الحكم قال : كان يقال « لاتمارِ صديقك ولا تمازحه ، فإن مجاهداً كان له صديق ، فمازحه ، فأعرض كلٌّ واحد منهما عن صاحبه ، فما زاده عن السلام حتى مات » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : وإن من المزاح ما يكون سبباً لتهييج المراء ، والواجب على العاقل اجتنابه ؛ لأن المراء مذموم فى الأحوال كلها ، ولا يخلو المارى من أن يفوته أحد رجلين فى المراء : إما رجلٌ هو أعلم منه ، فكيف يجادل من هو دونه فى العلم ؟ أو يكون ذلك أعلم منه ، فكيف يمارى من هو أعلم منه ؟ .

ولقد سمعت حفص بن عمر البزار يقول : سمعت إسحاق بن الضيف يقول: سمعت جعفر بن عون يقول : سمعت مسعر بن كُدام يقول لابنه كُدام :

إنى نخلتك[٣] يا كدام نصيحتى　　فاسمع مقال أبٍ عليك شفيق

---

(١) ترى : إما من الرؤية ، فمعناه : تنكشف وتظهر به الأضغان ، وإما من الورى . ومعناه : تقدح به نار العداوة ، وتشتعل به نار البغضاء .

(٢) جذ الحبل وجذمه : قطعه ، غير أن الجذ يستعمل كثيراً فى الثمار والزروع، لأن فيه معنى الاستئصال : والجذم فى القطع مع سرعة .

(٣) إما أن يكون بالخاء المعجمة ، من نخل الدقيق : صفاه ، واستخلص نقيه ، يقصد أنى استخلصت لك أصدق نصيحة وأصفلها ، وإما من النحلة ـ بالحاء المهملة ـ وهى العطية الخالصة على ود وتكريم .

أما المزاحة والمراء فَدَعْهما ... خُلُقان لا أرضاهما لصديق
إنى بَلَوتهما فلم أحمدهما ... لمجاور جاراً ، ولا لشقيق
والجهل يُزْرِى بالفتى فى قومه ... وعروقه فى الناس أىُّ عروق

قال أبو حاتم رضى الله عنه : المراء أخو الشنآن[1] ، كما أن المناقشة أخت العداوة ، والمرء قليل نفعه كثير شره ، ومنه يكون السباب ، ومن السباب يكون القتال ، ومن القتال يكون هراقة الدم[2] وما مارى أحد أحداً إلا وقد غيّر المراء قلبيهما ، وقد أحسن الذى يقول :

وإياك من حلو المزاح ومرِّه ... ومِنْ أن يراك الناس فيه ممار يا
وإن مراء المرء يُخلِق[3] وجهه ... وإن مزاح المرء يبدى التشاكيا
دعاه مزاح أو مراء إلى التى ... بها صار مَقْلِىَّ الإخاء وقاليا[4]

أخبرنى محمد بن المنذر حدثنى كثير بن عبد الله التميمى حدثنى إسماعيل بن محمد الطلحى حدثنا أبو الأخفش الكنانى أنه قال لابن له :

أبُنَىَّ لاتكُ ماحَيِيت ممارياً ... ودع السفاهة إنها لاتنفعُ
لا تَحمِلَنَّ ضغينة لقرابةٍ ... إن الضغينة للقرابة تقطع
لا تَحسِبَنَّ الحلم منك مَذَلَّةً ... إن الحليم هو الأعَزُّ الأمنع

أخبرنا محمد بن إبراهيم الخالدى الهروى حدثنا العباس بن الوليد بن مَزْيَد قال : سمعت أبى عن الأوزاعى قال : قال بلال بن سعد « إذا رأيتَ الرجلَ لجوجاً ممارياً معجباً برأيه ، فقد تمت خسارته » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : المزاح إذا كان فيه إثم فهو يُسَوِّد الوجه ،

---

(١) الشنآن : شدة البغض والعداوة .

(٢) « هراقة » أصله إرواقة ، ويقال : أراق ، وهراق ، وأهراق ، بمعنى سفح وأسال (٣) أخلقت الثوب : أبليت جدته ، وأذهبت رونقه وبهجته .

(٤) «المقلى» اسم مفعول ، من قليت ، بمعنى : هجرت وأبغضت .

ويُدمى القلبَ ويورث البغضاء ، ويحيى الضغينة ، وإذا كان من غير معصية يسَلِّى الهمَّ ويرقع الُخلَّة(١) ، ويحيى النفوس ، ويذهب الحِشْمَة ، فالواجب على العاقل أن يستعمل من المزاح ماينْسُب بفعله إلى الحلاوة ، ولا ينوى به أذى أحد ولا سرور أحد بمساءة أحد .

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عائذ ـ كان بِهَراة ـ حدثنا أحمد بن عبد الله ابن حكيم العرياناني ـ قرية من قرى مَرْوْ ـ حدثنا سهل بن يحيى عن أبيه عن الأعمش عن إبراهيم قال « لايمازحك إلا من يحبك » .

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا إبراهيم بن الجنيد حدثنا الصَّلْتُ بن مسعود حدثنى ابن عيينة قال : أظننى سمعته من داود بن شابور ، عن محمد ابن المنكدر قال : قالت لى أمى وأنا غلام « لاتمازح الغلمان ، فتهونَ عليهم ، أو يجترئوا عليك » .

حدثنا عمرو حدثنا الغَلاَّبى حدثنا ابن عائشة حدثنا دريد بن مجاشع عن غالب القطان عن مالك بن دينار قال : قال عمر بن الخطاب « من كثر ضحكه قَلَّت هَيْبَته ، ومن مزح استُخِفَّ به ، ومن أكثر من شىء عُرِف به » .

أنبأنا الحسن بن سفيان حدثنا أبو الدرْداء حدثنا أبو إسحاق الطالقانى عن مُبَشِّر بن إسماعيل عن راشد بن أبى قبال قال « استسقى سعيد بن جبير ، فأتيته بسويق مُحَلًّى ، فقال : ياراشد شَكَر أزْدَسْت شيرين(٢) » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : من مازح رجلا من غير جنسه هان عليه واجترأ

---

(١) الخلة ـ بضم الخاء ـ : الصداقة ، ى يرقع ويصلح من الصداقة والمحبة مامزقته الملالة والسأم .

(٢) بالفارسية ـ الشكر : السكر . أز : من . دست : يد . شيرين : حلو . ومعناه : السكر يكون من يدك حلوا .

عليه ، وإن كان المزاح حقًّا ، لأن كل شيء لا يجب أن يسلك بهغير مَسْلكه ، ولا يظهر إلا عند أهله .

على أنى أكره استعمال المزاح بحضرة العام ، كما أكره تركه عند حضور الأشكال .

ولقد أخبرنا كامل بن مكرّم حدثنا ربيعة بن الحارث الجيلانى حدثنا عبد الله ابن عبد الجبار الجابرى قال : قال أبو عبد الرحمن الأعرج « كان إبراهيم بن أدهم يحدثنا ويضاحكنا ، وإذا رأى غيرنا قال : هذا جاسوس » .

ذكر استحباب الاعتزال عن الناس عامًّا

أنبأنا عبد الله بن محمد بن سَلْم ـ ببيت المقدس ـ حدثنا عبد الرحمن ابن إبراهيم حدثنا الوليد حدثنا الأوزاعى عن الزهرى عن عطاء بن يزيد الليثى عن أبي سعيد الخدرى قال « قيل : يارسول الله ، أىُّ الأعمال أفضل ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله ، قال : ثم ماذا ؟ قال رجل فى شِعْبٍ من الشِّعاب يتقى الله ، ويدعُ الناس من شَرِّه » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزوم الاعتزال عن الناس عامًّا مع توقى مخالطتهم ؛ إذ الاعتزال من الناس لولم يكن فيه خَصْلَةٌ تُحمد إلا السلامة من مقارفة المآثم لكان حقيقاً بالمرء أن لا يُكَدِّر وجود السلامة بلزوم السبب المؤدى إلى المناقشة .

ولقد أخبرنى الحسن بن سفيان حدثنا جبان بن موسى ، أنبأنا عبد الله ، أخبرنا شعبة عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص عن عاصم عن عمر بن الخطاب قال : خذوا بحظِّكم من العزلة » .

أنبأنا عمرو بن سعيد بن سنان الطائى حدثنا حامد بن يحيى البلخى قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول « رأيت الثورى فى المنام ، فقلت له : أوصنى ، فقال : أَقِلَّ معرفة الناس ، أقل معرفة الناس ، أقل معرفة الناس » .

أنبأنا القطان بالرَّقَّة حدثنا المروزى قال : سمعت أحمد بن حنبل يقول : رأيت ابن السمَّاك يكتب إلى أخ له : إن استطعت أن لا تكون لغير الله عبداً ماوجدت من العبودية بُدًّا ، فافعل » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لايستعبد نفسه لأمثاله بالقيام فى رعاية حقوقهم ، والتصبر على ورود الأذى منهم ، ماوجد إلى ترك الدخول فيه سبيلا ، لأنه إذا حسم عن نفسه ترك الاختلاط بالعالم ، والمخالطة بهم تمكّن من صفاء القلب ، وعدم تكدُّر الأوقات فى الطاعات :

ولقد استعمل العُزْلَة جماعة من المتقدمين مع العام والخاص معاً .

كما أخبرنا محمد بن إبراهيم الخالدى حدثنا داود بن أحمد بن سليمان الدمياطى حدثنا عبد الرحمن بن عفان قال : سمعت ابن المبارك يقول « عادَ فُضَيلٌ داودَ الطائى فأغلق داودُ الباب ، وجلس فضيل خارج الباب يبكى ، وداود داخل البيت يبكى » .

أنبأنا الحسين بن محمد السنجى حدثنا على بن المنذر حدثنا الحسن بن مالك قال : سمعت بكر محمد العابد يقول : قال لى داود الطائى « يابكر ، استوحش من الناس كما تستوحش من السبع » .

أنبأنا محمد بن أحمد بن الفرج البغدادى بالأُبلة حدثنا إبراهيم بن حماد بن زياد حدثنا عبد العزيز بن الخطاب قال « رؤى إلى جنب مالك بن دينار كلب عظيم ضخم أسود رابض ، فقيل له : ياأبا يحيى ، ألا ترى هذا الكلب إلى جنبك ؟ قال : هذا خير من جليس السوء » [1] .

---

(١) إنمايمدحونه من العزلة والاختباء عن الحياة العامة لايجوز أن يكون حال أهل الخير جميعاً ، وإنما هو حال الضعيف ، الذى لايقدر عن أن يدفع عن نفسه مايصاب به من شرور المجتمع ، ومن ثم لم يكن حال الأنبياء ، ولا حال ورثتهم الصادقين كبار النفوس أولى العزم والاحتمال . وفى الحديث الصحيح : « المؤمن =

قال أبو حاتم رضى الله عنه : هذا الذى ذهب إليه داود الطائى وضُرباؤه من القراء من لزوم الاعتزال من الخاص ، كما يلزمهم ذلك من العـام ـ أرادوا بذلك عند رياضة الأنفس على التصـبر على الوحدة ، وإيثار ضِدِّ الُخلطة على المعاشرة ؛ فإن المرء متى لم يأخذ نفسه بترك ماأبيح له فأنا خائف عليه الوقوع فيما حظر عليه .

وأما السبب الذى يوجب الاعتزال عن العالم كافة : فهو ماعرفتهم به من وجود دَفْن الخير ، ونشر الشر ، يدفنون الحسنة ، ويظهرون السيئة . فإن كان المرء عالماً بَدَّعوه ، وإن كان جاهلا عَيَّروه ، وإن كان فوقهم حسدوه ، وإن كان دونهم حَقَّروه ، وإن نطق قالوا : مهذار ، وإن سكت قالوا : عَيِيٌّ ، وإن قَدَرَ قالوا : مُقَتِّر ، وإن سمح قالوا : مبذر ، فالنادم فى العواقب المحطوط عن المراتب ، من اغتر بقوم هذا نَعْتُهم ، وغره ناس هذه صفتهم .

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل أخبرنى أحمد بن محمد بن بكر الأبناوى عن داود بن رشيد ، قال : حدثنى إبراهيم بن شماس قال : قال لى الأكَّاف حفص بن حميد صاحب ابن المبارك بمرو « ياإبراهيم ، صحبتُ الناس خمسين سنة ، فلم أجد أحداً سـتر لى عورة ، ولا وصلنى إذا قطعته ، ولا أمنته إذا غضب ، فالاشتغال بهؤلاء حمق كثير » .

= القوى خير من المؤمن الضعيف » خير لنفسه ، لأنه يزداد إيماناً وتقوى بأمرهم ونهيهم ، ويزداد يقظة وقوة وصلاحا بتجنب مايرى ويعلم من فسادهم وتحكم أهوائهم فى عقولهم ودينهم ، فإن التزم أهل الخير جميعاً العزلة فمن للناس يبلغهم عن الله إذا انـكمش الذين يقولون عن أنفسهم إنهم صالحون ؟ ومن ينكر المنكر إذا هرب من الميدان من يزعمون أنفسهم أنهم المتقون ؟ أليس بهذه العزلة والانـكماش يجد شياطين الفساد الميدان خالياً ، فيتغلبوا حتى على من زعموا أنفسهم هاربين وفارين بالعزلة من الميدان ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم .

وأنشدني محمد بن المهاجر المعدل لعلى بن حجر السعدى :

زمانك ذا زمانُ دخول بيت ... وحفظِ اللسان ، وخفض صوت
فقد مَرَجَتْ عهود النـاس إلا ... أَقلَّهم ، فبـادر قبل فَوْتِ[١]
فمـا يبقى على الأيام شيء ... وما خُلِقَ امرؤ إلا لموت

أخبرنا يعقوب بن إسحاق القاضى حدثنا محمد بن يحيى قال : وفيما قرأت عن نافع عن مالك عن أنس « أنه بلغه عن أبى ذر قال : كان الناسُ وَرَقاً لاشوكَ فيه ، فهم اليوم شَوْكٌ لاوَرَقَ فيه » .

أنبأنا محمد بن أبى على الخلادى حدثنا جنيد بن حكيم الدقاق حدثنا سليمان ابن أبى شيخ قال : كان القَحْذَمى ينشد كثيراً :

ذَهَبَ الُحسنُ والجمال من النـــاس ، ومات الذين كانوا مِلاحا
وبَقِيَ الأسمجون من كل صِنف ... إنَّ فى الموت من أُولئك راحا[٢]

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يعلم أن البَشَر مجبولون على أخلاق متباينة ، وشِيَم مختلفة ، فكل واحد يُحب اتِّبَاع مسـاعدته ، وترك مباعدته ، فمتى رام من أخيه ضِدَّ ماوطَّن نفســه عليه قَلَاه[٣] ، وإذا تبين له منه خلاف ما أضمَر عليه قلبه مَلّه ، ومن الملال يكون الاستثقالُ ، ومن الاستثقال يكون البغض ، ومن البغض تهيج العداوة ، فالاشتغال بمن هذا نعته للعاقل حمق .

ولقد أحسن النَّبَاجى حيث يقول :

أرفُضِ الناس ، وكلٌّ مَشْغَلَهْ ... قد بَخِـــلَ الناس بمثل خَرْدَلَهْ
* لا تسأل النـاس وسَلْ من أنتَ له *

(١) مرجت : اختلطت . فلم يدر صادق العهد من مائنه .

(٢) بقى : هذه لغـة طيىء ، يفتحون ما انكسر قبل الآخر من المعتل فتنقلب ياؤه ألفاً ، فيقولون : رَضَى ، وبَقَى ، وفَنَى ، وما أشبه ذلك .

(٣) قلاه : كرهه ، ومضارعه يقلوه ، ويقليه .

وأنشدنى ابن أبى علي قال : أنشدنى محمد بن يعقوب العبدى :

إذا قلت : هذا صاحب قد رضيتهُ وقَرَّتْ به عيناىَ بُدِّلْت آخرا ،

وذلك : أنى لا أصاحبُ صاحباً من الناس إلا خاننى وتغيّرا

أخبرنا عبد الله بن محمد بن مسلم حدثنا أحمد بن أبى الحوارى حدثنا أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز قال : قال مكحول « إن كان فى مخالطة الناس خير فالعزلة أسلم » .

أنبأنا على بن سعيد العسكرى حدثنا شعيب بن يحيى حدثنا أحمد النسائى حدثنا يحيى بن عبد الأعلى أن مالك بن دينار كان يقول « من لم يأنس بحديث الله عن حديث المخلوقين فقد قَلَّ علمه وعَمِيَ قلبه ، وضيع عمره » .

أنبأنا القطان حدثنا أحمد بن أبى الحوارى حدثنا محمد بن روح قال : سمعت إبراهيم البخارى يقول : دخلت المسجد الحرام بعد المغرب ، فإذا فُضيل جالس ، فجئت فجلست إليه ، فقال : من هذا ؟ فقلت : إبراهيم ، قال : ماجاء بك ؟ قلت رأيتك وحدك ، فجلست إليك ، قال : تحب أن تغتاب ، أو تتزين ، أو ترائى ؟ قلت لا ، قال : قم عنى » .

ذكر استحباب المؤاخاة للمرء مع الخاص

أنبأنا أحمد بن على بن المثنى بالموصل حدثنا قطن بن نسير حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن أنس قال « آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء ، وآخى بين عوف بن مالك و بين الصَّعْب بن جَثّامة (١)

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن لا يغفُل عن مؤاخاة الإخوان ، و إعداده إياهم للنوائب والحدثان ، لأن من تَعَزَّى عن موضع سَلْوته

---

(١) روى البخارى ومسلم وأبو داود عن أنس قال « حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فى دارنا مرتين أو ثلاثا »

بأخيه عند الهموم والغموم ، كان عقله إلى التقديح أقرب ، ومن النماء أنقص .

ولقد أنبأنا محمد بن المنذر حدثنا الفضل بن عبد الصمد الأصبهانى حدثنا يزيد بن خالد الرملى حدثنا سهيل أبو عمرو قال : قال محمد بن واسع « لم يبق من العيش إلا ثلاث : الصلاة فى الجماعة ، ترزق فضلها ، وتكفى سهوها . وكفاف من معاش ليست لأحد من الناس عليك فيه مِنَّة ، ولا لله عليك فيه تَبعة [1] . وأخ محسن العشرة ، زُغْتَ قَوْمكَ » .

أنبأنا عبد الرحمن بن عبد المحسن بجرجان حدثنا محمد بن عبد الله القصار أنبأنا عبد الرزاق عن ابن المقفع قال « ثلاث من اللذات : محادثة الإخوان ، وأكل القَديد ، وحَكُّ الجرب [2] » .

أنبأنا محمد بن أبى على حدثنا محمد بن هريم الشيبانى أنشدنا محمد بن عمران الضَّبي :

وما المرء إلا بإخوانه كما تقبض الكفُّ بالمعَصم
ولا خير فى الكَفِّ مقطوعةً ولا خير فى الساعدِ الأجذم

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن لايعد فى الأدْواء إخاء من لم يُواته الضَّراء ، ولم يشاركه فى السراء ، ورُبَّ أخى إخاء خيرٌ من أخى ولادة ، ومن أتمِّ حِفاظ الأُخوة تفقُّدُ الرجلِ أمورَ من يَوَده .

والوُدُّ الصحيح هو الذى لا يميل إلى نفع ، ولا يفسده منع ، والمودة أمنٌ ، كما أن البغضاء خوف .

---

(١) أى : تبعة كثيرة وإلا فكل نعمة من نعم الله مهما رأيتها صغيرة ، فإن الله يحاسب عليها (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

(٢) أما محادثة إخوان الصفاء والصدق فنعم ، وأما أكل القديد فلا يكون لذيذاً إلا عند المخمصة والفقر ، ونعوذ بالله من الفقر ، وأما الجرب : فنسأل الله العافية ، فماذا فى هذين من لذة ؟

والعاقل لايُواخى إلا من خَالَفه على الهوى ، وأعانه على الرأى ، ووافق سره علانيته ، لأن خير الإخوان مَنْ لم يناقش ، كما أن خير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، والمستوخَمُ[١] لايُؤلف كما أن غيرَ الثقة لايُود ، فمتى ما آخى المرء من لم يصافِه بالوَفاء يجبُ الاستظهار عليه بمن يُسَلِّيه عنه ، لأن التودد ممن لايود يُعَدُّ مَلَقاً ، ولا يفوت الإنسانَ فى الأخوة أحدُ رجلين : إما أريب قَصَّر فى حقوقه فاغتاله بمكر ، و إما جاهل لم يصافه فيؤذيه بسوء معاشرته ، وصيانة الأخوة ليست إلا فى الاستغناء عن الإخوان .

ولقد أحسن العباس بن عبيد بن يَعيش حيث يقول :

كم من أخٍ لكَ لم يلده أبوكا ... وأخ أبوه أبوكَ قد يجفوكا
صافِ الكرام إذا أردت إخاءهم ... واعلم بأن أخا الحِفَاظِ أخوكا
كم إخوةٍ لك لم يلدكَ أبوهُم ... وكأنما آباؤهم ولدوكا
لو كنت تحملهم على مكروهة ... تخشى الُحتوف[٢] بها لما خذلوكا
وأقاربٍ لو أبصروكَ معلَّقاً ... بنياط قلبك ثُمَّ ما نصروكا
الناسُ ما استغنيتَ كنتَ أخاً لهم ... وإذا افتقرتَ إليهمُ فضحوكا

أخبرنا القطان بالرقة حدثنا أحمد بن إسماعيل السنى حدثنا عبد الرزاق عن معمر قال «دخلت على قتادة وأنا ظمآن ، وفى الحجرة حِبٌّ[٣] ماء ، فقلت : أشرب من مائكم هذا ؟ قال : أنت لنا صديق » .

قال أحمد : قال عبد الرزاق : يتأول القرآن (أوصديقكم) يقول : لايَستأذن

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا عِلاَّن بن المغيرة البصرى حدثنا عمرو

(١) الأرض الوخيمة والوخمة : الرديئة المناخ السبخة التربة التى لاينجع كلؤها . ورجل وخيم : ردىء الطبع ثقيل النفس ، سيىء الخلق .

(٢) الحتوف : المنايا والمهالك ، واحدها : حتف ، بفتح فسكون .

(٣) الحب ــ بكسر الحاء المهملة ــ الجرة الكبيرة .

الناقد حدثنا ابن عيينة عن أيوب السختياني أنه قال « يزيدني حرصاً على الحجِّ لقاء إخوانٍ لى لا ألقاهم بغير الموسم » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يعلمَ أن الغرض من المؤاخاة ليس الاجتماع والمؤاكلة والمشاربة ، والسُّرّاق يداخلون الرجال على التقارف[١] ، ولا يزدادون بذلك مودة ، ولكنَّ من أسباب المؤاخاة التى يجب على المرء لزومُها مَشْيَ القَصْد[٢] وخَفْضَ الصوت ، وقلة الإعجاب ، ولزوم التواضع وترك الخلاف .

ولا يجب للمرء أن يكثر على إخوانه المؤونات فيبرمهم[٣] ، لأن المرضَع إذا كثر مَصُّه ربما ضَجِرَت أمه فتلقيه .

ولا ينبغى لمن قدر أن يمنع أخاه شيئاً إليه ليجبر به مصيبته ، أو يفرج به كربته .

والعاقل لايؤاخى لئيما ، لأن اللئيم كالحية الصماء[٤] لايوجد عندها إلا اللدغ والسُّم ، ولا يصلُ اللئيم ، ولا يؤاخى إلا عن رغبة أو رهبة ، والكريم يَوَد الكريم على لَقْية واحدة[٥] ، ولو لم يلتقيا بعدها أبدا .

ولقد أخبرنا محمد بن المنذر حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن يونس حدثنا إسماعيل

---

(١) التقارف : أى على قصد الإثم والعدوان .

(٢) أى الوسط ، الذى وصف الله به عباد الرحمن بقوله (٢٥ : ٦٣ الذين يمشون على الأرض هوناً) والذى ذكره الله من وصايا لقمان بقوله (٣١ : ١٩ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك) والذى حذر الله من ضده فى وصايا الحكمة بقوله (١٧: ٣٧ ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا)

(٣) يبرمهم : يملهم ويسئمهم .

(٤) الصماء : التى لاتستجيب لرقية الراقى .

(٥) اللقية : المرة من اللقاء .

ابن محمود عن ابن المبارك عن سفيان عن يونس بن عبيد « أنه أصيب بمصيبة فقيل له : ابنُ عوف لم يأتك ؟ فقال : إنا إذا وثقنا بمودة أخينا لم يَضُرَّه أن لايأتينا » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يتفقد ترك الجفاء مع الإخوان ، ويراعى محوها إن بدت منه ، ولا يجب أن يستضعف الجفوة اليسيرة ، لأن من استصغر الصغير يوشك أن يجمع إليه صغيراً ، فإذا الصغير كبير ، بل يبلغ مجهوده فى مَحْوها ، لأنه لاخير فى الصدق إلا مع الوفاء ، كما لاخير فى الفقه إلا مع الورع ، وإن من أخْرَقِ الخرْقِ التماسَ المرء الإخوان بغير وفاء ، وطلب الأجر بالرياء ، ولاشىء أضيع من مودة تمنحُ مَنْ لاوفاء له ، وصنيعة تصطنع عند مَنْ لايشكرها .

وأنشدنى الخلادى قال : أنشدنى محمد بن محمد البكرى :

احذر مودة ماذِق[1] ... خَلَط المراره بالحلاوة
يُحصى الذنوب عليك أيـــام الصداقة للعداوة

وأنشدنى محمد بن إبراهيم البصرى ــ بصُورَ ــ لنفسه :

لا يَغرَّنْكَ صديق أبدا ... لك فى المنظَر ، حتى تَخْبُره
كم صديق كنتُ منه فى عَمًى ... غَرَّنى منه زماناً مَنْظَرُه
كان يلقانى بوجه طلق ... وكلام كاللآلى ينثره
فإذا فتشته عن غيبه ... لم أجد ذاك لودٍّ يُضمره
فَدَعِ الإخوان إلا كلَّ من ... يضمر الود كما قد يظهره
فإذا فزتَ بمن يجمع ذا ... فاجْعَلَنْهُ لك ذُخْراً تَذْخَره

أنبأنا القطان بالرقة حدثنا هشام بن عمار حدثنا إبراهيم بن موسى المكى عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب قال « وضع عمر بن الخطاب

---

(١) الماذق : الذى لايخلص الود ، بل يمزجه بغايات ومقاصد شخصية .

رضى الله عنه للناس ثمانية عشر كلمة ، كلها حكم ، قال : ما كافأتَ من يَعصى الله فيك بمثل أن تطيعَ الله فيه ، وضَعْ أمرَ أخيك على أحسنه ، حتى يأتيك منه مايغلبك ، ولا تظُنَّنَّ بكلمة خرجت من مسلم شَرًّا ، وأنت تجد لها فى الخير مَحْمَلا ومن تَعَرَّض للتهمة فلا يلومنَّ من أساء به الظن ، ومن كتم سِرَّه كانت الخِيَرَة[١] فى يديه ، وعليك بإخوان الصدق فعش فى أكنافهم[٢]، فإنهم زينة فى الرخاء ، وعُدَّة فى البلاء ، وعليك بالصدق وإن قتلك الصدق ، ولا تعرضْ لما لا يَعنيك ، ولا تسأل عما لم يكن . فإن فيما كان شغلا عما لم يكن ، ولا تطلبن حاجتك إلى من لايحب لك نجاحها ، ولاتصحبَنَّ الفاجر فتتعلم فجورَه ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خَشِيَ الله ، وتخشَّعْ عند القول، وذِلَّ عند الطاعة ، واعتصم عند المعصية ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله ، فإن الله يقول (٣٥ : ٢٨ إنما يخشى الله من عباده العلماء) » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لايواخى إلا إذا فضل فى الرأى والدين والعلم والأخلاقِ الحسنة ، ذا عقل نشأ مع الصالحين ، لأن صحبة بليد نشأ مع العقلاء خير من صحبة لبيب نشأ مع الجهال .

ورأس المودة الاسترسال ، وآفتها الملالة ، ومن أضاع تعهد الود من إخوانه حرم ثمرة إخائهم ، وآيس الإخوان من نفسه ، ومن ترك الإخوان مخافة تعاهد الود يوشك أن يبقى بغير أخ ، كما أن من ترك نزع المـاء إشفاقاً على رشائه[٣] يوشك أن يموت عطشاً .

والعـاقل يستخبر أمور إخوانه قبل أن يؤاخيهم ، ومن أصح الخبرة للمُرء

---

(١) الخيرة ـ بوزن عنبة ـ مايختاره بمشيئته ، يقصد : أنه إذا أفشى سره كان أمره بيد من أفشاه إليه ، لا بيده هو ، فلم يكن له مشيئة .

(٢) الأكناف : جمع كنف ، وهو الجانب والناحية .

(٣) الرشاء : الحبل الذى يخرج به الدلو من البئر .

وجود حالته (١) بعد هيجان الغضب .

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارى حدثنا الغلابى حدثنا عبد الله بن الضحاك الهدادى حدثنا هشام بن محمد عن عوانة بن الحكم قال : قال لقمان لابنه « يابنى إذا أردت أن تواخى رجلا فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه و إلا فدعه » .

أنبأنا محمد بن صالح الطبرى حدثنا أبو هشام الرفاعى حدثنا داود بن يحيى ابن اليمان عن أبيه عن سفيان قال « اصحب من شئت ، ثم اغضبه ، ثم دس إليه من يسأله عنك » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : من لم ينصفك عند غضبه لم تودك (٢) أيامه ، وليس الصديق كالمرأة يطلقها المرء إذا شاء (٣) ، والجارية يبيعها متى أحب ، لكنه عرضه ومروءته ؛ فالتثبت والاتئاد أولى به من التهاجر والانقطاع ، ومن غاب عنه أخوه فلا يغب عما يجب له عليه ، وليكثر منهم عدة للشدائد ، لأن

---

(١) يعنى وجود حالته فى الود بعد هيجان الغضب كحالته فيه عند الرضا .

(٢) كذا بالأصل : ولعله يقصد لم يأتك من أيامه ماتوده وتريده من الإخاء .

(٣) غالى الشيخ فى الحط من منزلة الزوج ، وكيف ومن لم يتخذ الزوجة على الصداقة والمودة ، فلم يتزوج كما شرع الله ، فإنه سبحانه يقول (٣٠:٢١ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة) وأكد فى كثير من آى الذكر الحكيم من حق الزوج مالم يؤكد من حق الصديق ، وأين الصديق من الزوج التى يقول فيها (٢:١٨٧ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) ويقول (٤ : ٢١ وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا !) والزوج أحق أن تكون عرض الرجل ومروءته ، ويسير عليك أن تستبدل صديقاً بصديق ، وأعسر العسر أن تستبدل زوجاً مكان زوج ـ وقد ارتبطتما بعلائق من الأولاد وغيرها ، مالا يوجد مثلها ولا بعضها فى الصديق ـ فواجب العاقل : أن يتأنى ويتفحص ويتثبت فى اختيار الزوج مالا يلزم بعضه فى اختيار الصديق ، والسعادة بالزوجة الوفية الصالحة القانتة الحفيظة للغيب أضعاف أضعاف السعادة بأوفى الأصدقاء وأخلص الأوداء

الشعر مع دقته إذا جمع عمل منه الحبل الغليظ الذى يقهر الفيل المغتلم[١] ، ولا يصلح أن يكون رفيقاً من لم يزدرد ريقاً .

وأنشدنى الخلادى قال : أنشدنى محمد بن محمد البكرى لصالح بن عبد القدوس[٢] :

إذا كان ودّ المرء ليس بزائد   على «مرحباً» أو «كيف أنت؟» وحالكا
أو القولِ «إنى وامق لك ، حافظ»   وأفعاله تُبدى لنا غير ذلكا
ولم يك إلا كاشِراً أو محدثا   فأفٍّ لودٍّ ليس إلا كذلكا
ولكن إخاء المرء من كان دائما   لذى الودِّ منه حيثما كان سالكا

أخبرنا أبو يعلى حدثنا على بن الجعد حدثُنا سفيان الثورى عن شعبة قال : خرج عبد الله بن مسعود على أصحابه فقال «أنتم جِلاء حزنى» .

أخبرنى محمد بن سعيد القزاز حدثنا هلال بن العلاء حدثنا إسحاق بن الضيف عن شيبة بن أبى مسهر عن الحكم بن هشام قال خالد بن صفوان «لم يبق من لذات الدنيا إلا ثلاث : مجالسة النسوان ، وشَمُّ الوُلدان ، ولُقى الإخوان» .

حدثنا محمد بن المنذر حدثنا مسعدة بن حازم المصرى حدثنا خالى هارون ابن سعيد حدثنا خالد بن نزار حدثنا سفيان عن موسى بن عقبة قال «إن كنت لَأَلْقَى الأخ من إخوانى فأكون بلُقِيه عاقلا أياماً» .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات فى كتاب «مراعاة العشْرَة» فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب .

فالواجب على العاقل أن يعلم أنه ليس من السرور شىء يَعْدِل صحبة الإخوان ، ولا غَمَّ يعدل فقدهم ، ثم يتوق جَهْدَهُ مُفاسدَةَ مَنْ صافاه ، ولا يسترسل إليه

---

(١) الاغتلام : شدة ثوران الشهوة فى الفحل للضراب ، وتشتد شراسة الفيل وغيره من الفحول عند ذلك .

(٢) سيعيد أولها وثالثها مع بيتين آخرين فى ص ١١١ .

فيما يَشينه ، وخير الإخوان مَنْ إذا عَظَّمْته صانك ، ولا يعيب أخاه على الزَّلة ؛ فإنه شريكه فى الطبيعة ، بل يصفح ، ويتنكب محاسدة الإخوان ؛ لأن الحسد للصديق مِن سَقَم المودة كما أن الجود بالمودَّة أعظم البذل ، لأنه لا يظهر ود صحيح من قلب سقيم ، وليحذر المرء فى إخائه ألمَ التَّثقيل على أخيه ؛ لأن من ثقل على صديقه خف على عدوه ، و إن من أعظم المعونة على تسلية الهم الرضا بالقضاء ، ولُقِي الإخوان .

أنبأنا محمد بن هلال العقبى حدثنى يونس بن إبراهيم العزى حدثنا إبراهيم ابن عبد الله العدَنى عن سفيان أنه قيل له « ما ماء العيش ؟ قال : لقاء الإخوان »

حدثنا القطان حدثنا أحمد بن أبى الحوارى حدثنا المسيب بن واضح عن ابن المبارك قال : قال سفيان : « لربما لقيتُ الأخ من إخوانى ، فأقيم شهراً عاقلا بلقائه » .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

استكثرنَّ من الإخوان إنهمُ   خير لكانزهم كنزاً من الذهب
كم مِنْ أخ لك لو نابتك نائبة   وجدته لك خيراً من أخى النسب

وأنشدنى الكريزى :

من خير ما حُزْته وُدّ لذى كرم   يجزيك ماعشت بالإحسان إحسانا
تلقى بَشَاشته فى قربه ، وإذا   أنَالَ نَالَكَ منه البر ما كانا

أنبأنا القطان حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال: سمعت أبا سليمان يقول « كنت أنظر إلى أخ من إخوانى بالعراق ، ، فأعمل على رؤيته شهراً » .

حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا سويد بن سعيد حدثنا مسلم بن عبيد أبو فراس قال : قال ربيعة « المروءة مروءتان : فللسفر مروءة ، وللحضر مروءة ؛ فأما مروءة السفر : فبذل الزاد ، وقلة الخلاف على أصحابك ، وكثرة المزاح فى

غير مساخط الله ، وأما مروءة الحضر : فالإدمان إلى المساجد ، وكثرة الإخوان فى الله ، وتلاوة القرآن » .

ذكر كراهية المعاداة للناس

أنبأنا محمد بن عبد الله بن عبد السلام ـ ببيروت ـ حدثنا محمد بن محمد بن مصعب وحدثنى ابن المبارك عن عمرو بن واقد عن إسماعيل بن عبيد الله عن أم الدرداء عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أول شىء نهانى عنه ربى ـ بعد عبادة الأوثان ـ لعنُ الحمير ، ومُلاَحاة الرجال » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يعلم أن من يَوَدُّه لم يحسده ، ومن لم يحسده لم يعاده ؛ فيكون للعدو المكاتم أشَدَّ حَذراً منه للعدو المبارز ، ومن وجد عنده مغتراً ، وكان ممن لا يعفو ، ثم لا ينتصف منه ؛ أصابته الندامة ، والرأى إذا كان من الأريب كان أبلغ فى هلاك العدو من العدد الكثير من الجنود ، وترك العداوة على الأحوال كلها أحوط للعاقل من الخوض فى سلوكها .

أنبأنا الحسن بن سفيان حدثنا حبان بن موسى أخبرنا عبد الله بن هارون هو الأعور عن إسماعيل قال « لا تشترين عداوة رجل بمودة ألف رجل » .

وأنشدنى عمرو بن محمد قال : حدثنا الغلابى ، قال : أنشدنى مهدى ابن سابق :

تكثر من الإخوان ما اسْطَعْتَ إنهمْ . عماد إذا استنجدْتَهمْ وظهور
وليس كثيراً ألفُ خِلٍّ لصاحب وإن عدوًّا واحداً لكثيرُ

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا يجب على العاقل أن يكافىء الشر بمثله ، وأن يتخذ اللعن والشتم على عدوه سلاحاً ؛ إذ لا يستعان على العدو بمثل إصلاح العيوب ، وتحصين العورات ، حتى لا يجد العدو إليه سبيلا .

والعاقل لايرحم مَنْ يخافه ، ولا يترك إحصاء معائب العدو ، و يتفقد عثراتهم مع السكوت عن ثلبه ، ولا يستضعف عدواً بحيلة ؛ فإن من استضعف الأعداء اغتر ، ومن اغتر لم يسلم ، اللهم إلا أن يكون العدو ذليلا فإذا كان كذلك عطف عليه بالإغضاء ؛ لأن العدو الذليل أهلٌ أن يرحم ، كما أن المستجير الخائف أهلٌ أن يؤمن ، والمعاداة للعاقل خير من المصافاة للجاهل .

وأنشدنى الخلادى أنشدنى أحمد بن محمد البكرى :

وَلَمن يعادى عاقلاً خيرٌ له ... من أن يكون له صديق أحمقُ

فارغب بنفسك أن تصادق أحمقاً ... إن الصديق على الصديق مُصَدَّقُ

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

أخْلِقْ بذى الصبر أن يَحظى بحاجته ... ومدمن القَرْع للأبواب أن يَلِجَا

أبْصر لرجلك قَبْلَ الخَطو موضعها ... فمن عَلا قُلَّة عن غِرَّة زلجا(١)

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يبصر موضع خطواته قبل أن يضعها ، ثم يقارب عدوه بعض المقاربة ، لينال حاجته ، ولا يقاربه كل المقاربة فيُجترأ عليه ، والعاقل لايعادى ماوجد إلى المحبة سبيلا ، ولا يعادى من ليس له منه بد ، ولا العدوّ الحنِق الذى لايطاق ؛ فإنه ليس له حيلة إلا الهرب منه ، وحيلةُ السبيل إلى القدرة على العدو وجودُ الغِرَّة فيه ، وأن يرى العدو أنه لايتخذه عدواً ، ثم يصادق أصدقاءه ، فيدخل بينه و بينهم .

وأحزم الأمور فى أمر العدو : أن لايذكره بسوء إلا عند الفرصة ، و إن من أيسر الظفر بالأعداء اشتغال بعضهم ببعض ، و إن مما يستعين به المرء على عدوه : مجانبةَ من يعاشره ، و يصحب عدوه .

---

(١) يقول : إن من يمشى على غير تبصر ، فمهما بلغ من العلو ولو إلى قلة الجبل وهى قمته ، فلا بد أن تزل قدمه ، فيجر ، فلعله أن يتحطم .

أخبرنى محمد بن سعيد القزاز حدثنى أحمد بن زهير بن حرب قال : سمعت يحيي بن معين يقول : قال ابن السماك « لاتَخَفْ ممن تحذر ، ولكن احذر ممن تأمن » .

وأنشدنى على بن محمد البسامى :

تمنيتُ أن أبقى معافى ، وأن أرى   على من يُناوينى تدور الدوائر[١]
فيصبح مخذولاً ، وأمسى سالماً   إلى الله داع بالكفاية ناصرُ

سمعت محمد بن محمود يقول : سمعت على بن خشرم يقول : سمعت الفضل ابن موسى الشيبانى يقول « كان صياد يصطاد العصافير فى يوم ريح ، قال: فجعلت الرياح تُدخلُ فى عينيه الغبار ، فتذرِفان ، فكلما صاد عصفوراً كسر جناحه وألقاه فى ناموسه . فقال عصفور لصاحبه : ما أرقَّه علينا ، ألا ترى إلى دموع عينيه ؟ فقال له الآخر : لاتنظر إلى دموع عينيه ، ولكن انظر إلى عمل يديه »

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لايأمن عدوه على كل حال ، إن كان بعيداً لم يأمن مغادرته ، وإن كان قريباً لم يأمن مواثبته ، والعاقل لايخاطر بنفسه فى الانتقام من عدوه : لأنه إن هلك فى قصده قيل : أضاع نفسه ، وإن ظفر قيل : القضاء فعله .

والمعاداة بعد الخُلَّةُ فاحشة عظيمة ، لاتليق بالعاقل ارتكابها فإن دفعه الوقت إلى ركوبها ترك للصلح موضعاً .

وأنشدنى بعض أهل الأدب لأبى الأسود الدؤلى :

وأَحْبِبْ إذا أحببت حُبًّا مُقارباً   فإنك لاتدرى : متى أنت نازع ؟

---

(١) يناوينى : يناوئنى . والمناوأة المخاصمة . يقول : إنه طالما تمنى أن يعيش معافى وأن يرى دوائر الهلاك تدور على أعدائه ومناوئيه . والخليق بالمؤمن : أن يتمنى الخير والعافية والصلاح لنفسه وأحبابه وأعدائه ومناوئيه . كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى شأن أعدائه ـ وهم حريصون على قتله ـ «اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون»

وأبغض إذا أبغضت غيرَ مجانب   فإنك لا تدرى متى أنت راجع ؟
وكن معدناً للحلم واصْفَحْ عن الأذى   فإنك راءٍ ما عملت وسامع

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

إذا أنت عاديت امرءاً بعد خُلة   فدع فى غدٍ للعَوْد والصلح موضعا
فإنك إن نابذت مَنْ زَلَّ زَلَّةً   ظللت وحيداً لم تجد لك مفزعا

أنبأنا محمد بن إسحاق الثقفى حدثنا أبو همام حدثنا ابن وهب أخبرنى يونس ابن يزيد عن ابن شهاب قال « اجتمع مروان بن الحكم وابن الزبير يوماً عند عائشة ، فجلسا فى حجرتها وبينها وبينهما الحجاب ، فسألا عائشة شعراً وحديثاً » ثم قال مروان :

ومن يشإ الرحمن يخفِضْ بقدره   وليس لمن لم يرفع الله رافعُ

وقال ابن الزبير :

وفَوِّضْ إلى الله الأمورَ إذا اعترت   وبالله لا بالأقربين تُدافع [(١)]

وقال مروان :

وداو ضمير القلب بالبِرِّ والتُّقى   ولا يستوى قلبان قاسٍ وخاشعُ

وقال ابن الزبير :

ولا يستوى عبدان : عبدٌ مكلَّم   عُتلٌّ ، لأرحام الأقارب قاطع

وقال مروان :

وعبد يجافى جنبه عن فراشه   يبيت يناجى ربه وهو راكع

وقال ابن الزبير :

وللخير أهل يعرفون بهديهم   إذا اجتمعت عند الخطوب المجامع

وقال مروان :

---

(١) فى الأصول « فداقع » ولا تستقيم قافيته مع قافية باقى الأبيات ، ونحسبه محرفا عما أثبتناه .

وللشر أهل يعرفون بشكلهم   تشير إليهم بالفجور الأصابع

قال : فسكت ابن الزبير ، فلم يجب مروان بشيء .

فقالت عائشة : « ياعبد الله ، مالك لم تجب صاحبك ، والله ما سمعتُ تجاوبَ رجلين تجاولا نحو ما تجاولتما فيه أعجب إلى من مجاولتكما » .

قال ابن الزبير : إنى خفت عَولَ [١] القول ، فكففت .

فقالت عائشة : « إن لمروان فى الشعر ماليس لك » .

أنبأنا محمد بن المنذر ، حدثنا عصام بن الفضل الدارى ، حدثنى الزبير بن بكّار عن محمد بن حرب ، قال : قال عبد الله بن حسن لابنه محمد « إياكَ ومعادَاة الرجال فإنها لا تعدمك مكْر حليم ، أو مباذاة [٢] جاهل » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لا يُعادى على الحالات كلها ، لأن العداوة لا تخلو من أن تكون لأحد رجلين : إما حليم لايؤمَنُ مَكْرُه ، أو جاهل لا يؤمن شتمه ، ولا يجب على العاقل ـ إذا عادى ـ أن يغُرَّه إحسانه إلى عدوه مايرى من سكونه إليه ، فإن الماء وإن أطيل إسخانه ، ليس بمانعه ذلك من إطفاء النار إذا صُبَّ عليها ، ولا يجب أن يعظم عليه حمله عدوّه على عاتقه إذا وثق بحسن عاقبته ، لأن اللين والمكر أنكى فى العدو من الفظاظة والمكابرة . ألا ترى النار مع حرها لاتحرق من الشجر إلا ماظهر ، والماء مع برده ولينه يستأصلها ، ومجانبة المرء عدوه فى العِشْرة أجدُ الأعوان عليه عند الفرصة .

كما أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارى ، حدثنا الغلابى ، حدثنا العتبى عن أبيه قال : قال الأحنف بن قيس « من جالس عدوه حفظ عليه عيوبه » .

وأنشدنى الأبرش :

لا تخافنّ إن رماك عدو   بعيوب ، إذا تكون بريّا

---

(١) العول : الميل فى الحكم إلى الجور . والعول : النقصان أيضاً .

(٢) المباذاة : البذاءة والسفه بالسباب والشتم .

إنمـا العيبُ أن يكون مُحِقًّا في الذى قاله ، ولستَ نقيًّا
فإذا كان كاذباً كنتَ بالصِّد ق على العائب الـكذوب جريًّا
ولقد يلزُق العـدو بجنب الـــمرء عيبـاً تخـاله مَـكْويًّا

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لايغيره إلزاق العدو به العيوبَ والقبائح لأن ذلك لايكون له وقْعٌ ، ولا لـكثرته ثبات ، ولا يلتذ المرء ما كان عدوه باقياً كما لايجد السقيم طعم النور والطعام حتى يبرأ .

وأشد مكيدة العدو وما يعمل فيك من سبيل مأمنك ، والغالب بالشر مغلوب

إن من أعظم الأعوان على الأعداء تعاهدِ المرء ولَدَه وعياله وخدمه ، وتوقيه إياهم على المعائب والزلات .

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا الوليد عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير قال : قال سليمان بن داود لابنه « يابنى إذا أردت أن تغيظ عدوك فلا ترفع عن ابنك العصا » .

ذكر الحث على صحبة الأخيار والزجر عن عشرة الأشرار

حدثنا الحسن بن سفيان النسائى ، حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبرى ، حدثنا أبى عن شعبة عن قتـادة ، عن أنس ، عن أبى موسى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل الجليس الصالح مثل العطار ، إن لم ينَلْك منه أصابك من ريحه ، ومثل جليس السوء مثل القَيْنَ ، إن لم تصبك ناره أصابك شرره»(١)

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يلزم صحبة الأخيار ، ويفـارق صحبة الأشرار ؛ لأن مودَّة الأخيار سريعٌ اتصالها ، بطىء انقطاعها . ومَوَدَّة الأشرار

(١) العطار : بائع العطر . والقين ، بالفتح : الحداد . والحديث رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنمـا مثل الجليس الصالح والجليس السوء : كحامل المسك ، ونافخ الـكير . فحامل المسك : إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة . ونافخ الـكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة . و (يحذيك) أى يعطيك بدون ثمن

سريع انقطاعها ، بطيء اتصالها . وصحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار ، ومَنْ خادن الأشرار لم يسلم من الدخول فى جملتهم .

فالواجب على العاقل أن يجتنب أهل الريب ، لئلا يكون مريباً . فكما أن صحبة الأخيار تورث الخير ، كذلك صحبة الأشرار تورث الشر .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

عليك بإخوان الثقات ؛ فإنهم قليل فَصِلْهُم دون من كنت تصحبُ
ونفسك أكرمها وصُنْها ؛ فإنها متى ماتجالس سِفْلَةَ الناس تغضب

سمعت أبا يعلى يقول : سمعت إسحاق بن أبى إسرائيل يقول : سمعت سفيان ابن عيينة يقول « من أحب رجلا صالحاً فإنما يحب الله تبارك وتعالى » .

أنبأنا محمد بن أبى على الخلادى ، حدثنا عبد الله بن الصقر السكرى ، حدثنا وهب بن محمد بن منبه البنانى ، قال : سمعت الحارث بن وجيه يقول : سمعت مالك بن دينار يقول « إنك أن تنقل الحجارة مع الأبرار خيرٌ من أن تأكل الخبيص[1] مع الفجار » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لا يُدَنِّس عرضه ، ولا يعوِّدُ نفسه أسباب الشر بلزوم صحبة الأشرار ، ولا يُغْضِي عن صيانة عرضه ورياضة نفسه بصحبة الأخيار ، على أن الناسَ عندَ الخبرة يتبين منهم أشياء ضد الظاهر منها .

أنشدنى على بن محمد البسامى :

وقلَّ ما احْلَوْلَى كلامُ امرىء ولاَنَ إلا كان مُرَّ الفعال
وربما احْلَوْلَى كلامُ الفتى وكان محموداً على كل حال
فكلٌّ هذا أنت راء إذا تُصَاحِبُ الناس، وتبلوا الرجالْ

حدثنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحى ، حدثنا نصر بن على ، أنبأنا نوح

(١) الخبيص : نوع من الحلوى يصنع من التمر مخلوطا بالسمن .

ابن قيس ، حدثنا حوشب عن الحسن فى قوله (٢٥ : ٦٣ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) قال «حُلَماء علماء ، صُبُرٌ ثُبُتٌ[(١)] إن ظُلموا لم يظلموا وإن بُغى عليهم لم يبغوا ، قد براهم الخوف كأنهم القِدَاح » .

أنبأنا حامد بن محمد بن شعيب البلخى ، حدثنا سريج بن يونس ، حدثنا شجاع بن أبى نصر أبو نعيم القارى عن أبى عمرو بن العلاء ، قال « رآنى سعيد بن جُبَير وأنا جالس مع الشباب ، قال : ما يجلسك مع الشباب ؟ عليك بالشيوخ » .

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو أسامة عن سفيان عن أبى المحجّل عن ابن عمران بن حطان عن أبيه قال : قال أبو الدرداء « لصاحبٌ صالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من صاحب السوء ، وملى الخير خير من الساكت والساكت خير من ملى الشر » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لا يصاحب الأشرار ؛ لأن صحبة صاحب السوء قطعة من النار ، تُعقب الضغائن ، لا يستقيم وده ، ولا يفى بعهده .

وإن من سعادة المرء خصالاً أربعاً : أن تكون زوجته موافقة ، وولده أبراراً ، وإخوانه صالحين ، وأن يكون رزقه فى بلده .

وكل جليس لا يستفيد المرء منه خيراً تكون مجالسة الكلب خيراً من عشرته ، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم ، كما أن من يدخل مداخل السوء يتهم .

وما أشبّه صحبة الأشرار إلا بما أنشدنى منصور بن محمد الكريزى .

فلو كان منه الخير إذ كان شره عتيداً[(٢)] ضربت الخير يوماً مع الشر

---

(١) صبر — بضمتين — جمع صبور ، وثبت — بضمتين — جمع ثبيت ، وبضم فتشديد الباء مفتوحة جمع ثابت مثل راكع وركع . وبراهم : أى أنحلهم وأهزلهم .

(٢) العتيد : الملازم ، يقول : لو كان عنده شىء من الخير لذهب خيره بشره ، فكان كفافا .

ولو كان لاخيراً ولا شر عنده رضيتُ لَعمرى بالكفاف مع الأجر
ولكنه شرٌّ ، ولا خيرَ عنده وليس على شَرٍّ إذا طال من صبر

أخبرنا إسحاق بن إبراهيم القاضى ، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا ابن عُلية عن يونس عن الحسن قال « أيها الرجل ، إن أشد الناس عليك فقداً لرجلٌ إذا فزعت إليه وجدت عنده رأياً ، ووجدت عنده نصيحة ، بينا أنتَ كذلك إذ فقدته ، فالتمست منه خَلَفاً فلم تجده .

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندى ، حدثنا عبد الله بن سليمان ، قال : قال جعفر بن محمد « من كان فيه ثلاث فقد وجب له على الناس أربع : إذا خالطهم لم يظلمهم ، وإذا حَدَّثهم لم يكذبهم ، وإذا وعدهم لم يُخلفهم . وعلى الناس : أن يظهروا عَدْله ، وأن تكمل فيهم مروءته ، وأن يجب عليهم أخوته ، وأن يحْرُم عليهم غيبته » .

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطى :

اصحب خيار الناس أين لقيتهم خيرُ الصحابة مَنْ يكونُ ظريفاً
والناس مثلُ دراهم مَيّزتها فرأيت فيها فضَّة وزُيوفاً

أخبرنا ابن قَحْطبة ، حدثنا عباس بن عبد العظيم ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنا عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول « إن الله ليحفظ بالعبد الصالح القبيلَ من الناس » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يستعيذ بالله من صحبة من إذا ذكر الله لم يُعنه ، وإن نسى لم يذكّره ، وإن غَفَل حرضه على ترك الذكر . ومن كان أصدقاؤه أشراراً كان هو شرهم ، وكما أن الخيِّر لايصحب إلا البَررَة ، كذلك الردىّ لايصحب إلا الفجَرة ؛ فإن المرء إذا اضطره الأمر فليصحب أهل المروءات ، لأن محمد بن عثمان العقبى قال حدثنا أحمد بن داود البصرى ، حدثنا ابن عائشة قال : قال عبد الواحد بن زيد « جالسوا أهل الدين من أهل الدنيا

ولا تجالسوا غيرهم ، فإن كنتم لابُدَّ فاعلين ، فجالسوا أهل المروءات ؛ فإنهم لا يَرْفُثون [١] فى مجالسهم » .

ذكر كراهية التلون فى الوداد بين المتآخيين

أنبأنا محمد بن الحسن بن قتيبة بعَسْقَلان ، حدثنا إبراهيم الحورانى ، حدثنا بكار بن شعيب ، حدثنا ابن أبى حازم عن أبيه عن سهل ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاخير فى صُحبة من لايَرى لك من الحق مثلَ ما ترى له »

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل إذا رزقه الله وُدَّ امرىء مسلم صحيح الوداد محافظ عليه : أن يتمسك به ، ثم يوطن نفسه على صلته إن صَرَمه ، وعلى الإقبال عليه إن صَدَّ عنه ، وعلى البَذْلِ له إن حَرمه ، وعلى الدنو منه إن باعده ، حتى كأنه ركن من أركانه ، وإن من أعظم عيب المرء تلونه فى الوداد .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى :

وكم من صديق وُدُّه بلسانه ... خؤون بظهر الغيب لا يتندّم
يضاحكنى كُرهاً لكيما أوَدَّه ... وتَتَبَعُنى منه إذا غبتُ أسهمُ

أخبرنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنى ابن أبى شيبة ، قال : قال الأصمعى : قال رجل من الأعراب « من أعجز الناسِ من قَصَّر عن طلب الإخوان ، وأعجز منه : من ظفر بذلك منهم فأضاع مودتهم ، وإنما يحسن الاختيار لغيره من أحسن الاختيار لنفسه » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لا يقصر فى تعاهد الوداد ، ولا يكون ذا لونين ، وذا قلبين ، بل يوافق سِرُّه علانيته ، وقوله فعله ، ولا خير فى متآخيين ينمو بينهما الخلل ، ويزيد فى حاليهما الدغل .

---

(١) الرفث : الفاحش من القول ، وما يتعلق بالنساء وأسرارهن .

كما أنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

لحا الله [١] من لا ينفعُ الودُّ عنده ... ومَنْ حَبْلُه إن مُدَّ غيرُ متين
ومن هو ذو لونين ليس بدائم ... على الوصل خَوَّانٌ لكلِّ أمين
ومن هو ذو قلبين ، أما لقاؤه ... فحُلوٌ ، وأما غيبه فظنين
ومن هو إن تُحْدِثْ له العينُ نظرةً ... يُقطّعُ بها أسباب كُلِّ قرين

وأنشدنى عمرو بن محمد النسائى لابن الأعرابى :

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها ... من الشَّناءة [٢] ، أو وُدٍّ إذا كانا
إن البغيض له عين يصد بها ... لا يستطيع لما فى الصدر كتمانا
العين تنطق والأفواه ساكنة ... حتى ترى من ضميرِ القلب تِبيانا

وأنشدنى على بن محمد البسامى :

وجارٍ لا تزالُ تزور منه ... قوارضُ لا تَنام ولا تُنيم [٣]
قريب الدار نائى الودِّ منه ... معاندةً ، أبت لا تستقيم [٤]
يبادر بالسلام إذا التقينا ... وتحت ضلوعِهِ قلب سقيم

أنبأنا محمد بن أبى على الخلادى ، حدثنا أحمد بن محمد بن بكر الأبناوى عن هشام بن عبد الملك اليَزَنى ، قال : المقنّع الكندى :

---

(١) لحا الشجرة يلحوها : قشر لحاها . ولحاه الله لحيا : أى قبحه ولعنه . كذا فى اللسان .

(٢) الشناءة : البغض والكراهية .

(٣) يقول : ورب جار لا يزال يبعث إلى بالمؤلمات من القول ، والسلب والتنغيص حتى أقض مضجعى ، فلا قوارض تنام يوماً بل هى مستمرة ، ولا هى تتركنى أنام .

(٤) يقول : إن شره وأذاه أسرع إلى كل من كان أقرب منه ، من أجل المعاندة والمكايدة بفعل ذلك .

ابلُ الرجال إذا أردت إخاءهم وتوسمنَّ أمـــورهم وتَفَقَّدِ[1]
فإذا ظفرت بذى اللَّبابة والتقى فبه اليدين قريرَ عينٍ فاشْـدُدِ
ومتى يَزِلَّ ، ولا محالة ، زلةً فعلى أخيك بفضل رأيك فاردد
و إذا الخنا نقض الُحبى فى موضع ورأيت أهل الطيش قاموا فاقْعُدِ

أخبرنا عبد الله بن قُحْطبة ، حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا الوليد عن الأوزاعى عن يحيي بن أبى كثير قال : قال سليمان بن داود لابنه « يابنيَّ عليك بالحبيب الأول ، فإن الآخر لا يعدله » .

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا أحمد بن بكر بن سيف ، حدثنى محمد ابن حسين قال « كان أعرابى بالكوفة ، وكان له صديق ، وكان يظهر له مودة ونصيحة ، فاتخذه الأعرابى من عُدده للشدائد إذ حَزَب الأعرابى أمر ، فأتاه ، فوجده بعيداً مما كان يظهر للأعرابى ، فأنشأ يقول :

إذا كان وُدُّ المرء ليس بزائد على «مرحباً» أو «كيف أنت» وحالكا![2]
ولم يك إلا كاشرا ، أو محـدثا فأف لود ، ليس إلا كذلـكا
لسانك معسولٌ ونفسـك بَشّـة وعنـد الثريا من صـديقك مالـُكا
وأنت إذا هَمَّت يمينـــك مَرَّة لتفعـل خيراً ، قاتلتها شمالـكا

سمعت محمد بن المنذر يقول : سمعت عبد العزيز بن عبد الله يقول : قال محمد بن حازم :

و إن من الإخوانِ إخوانَ كَشرةٍ و إخوان « حيّاك الإله » ، و «مرحبا»
و إخوان : كيف الحالُ والأهل كله؟ وذلك لا يسوى نقـيرا مترّبا
جواد إذا استغنيت عنـه بماله يقول : إلىَّ القرض ، والقرضَ فاطلُبا
فإن أنت حاولت الذى خَلْف ظهره وجدتَ الثريا منه فى البعـد أقربا

---

(١) ابل الرجال : اختبرهم وامتحنهم .
(٢) قدم أولها وثانيها مع بيتين آخرين فى ص ٩٢

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لايصادق المتلون ، ولا يؤاخى المتقلب ، ولا يظهر من الوداد إلا مثل ما يضمر ، ولا يضمر إلا فوق مايظهر ، ولا يكون فى النوائب عند القيام بها إلا كـكونه قبل إحداثها والدخول فيها ، لأنه لايحمد من الإخاء مالم يكن كذلك .

وأنشدنى محمد بن المنذر ، وأنشدنى محمد بن خلف التيمى ، أنشدنى رجل من خزاعة :

وليس أخى من وَدَّنِى بلسانه ... ولـكن أخى من وَدَّنى فى النوائب

ومن مالُه مالى ، إذا كنتُ معدِما ... ومالى له ، إن عَضَّ دهر بغارب

فلا تحمدنْ عنـد الرخاء مؤاخياً ... فقد تُنـكر الإخوانُ عند المصائب

وما هو إلا كيف أنت ومرحبا ... وبالبيض رَوّاغ كرَوْغ الثعالب [1]

أخبرنا ابن قحطبة ، حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه قال : مكتوب فى الحـكمة « أحبب خليلك وخليل أبيك »

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن من أعظم الأمارات على معرفة صحة الوداد وسقمه : ملاحظة العين إذا لَحَظَتْ ، فإنها لاتـكاد تبدى إلا ما يضمر القلب من الود ، ولا يكاد يخفى ما يجنه الضمير من الصد ، فالعاقل يعتبر الود بقلبه وعين أخيه ، و يجعل له بينهما مسلـكا لا يرده عن معرفة صحته شيء تخيله .

ولقد أخبرنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا محمد بن الحسن الذهلى ، حدثنا على بن محمد المذهبى عن محمد بن إبراهيم العباسى عن عبد الله بن الحجاج مولى المهدى وعن إبراهيم بن شكلة [2] قال « اعلم أن من أظهر ما تحب أو ما تـكره فإنما لك أن تقيس ما أضمر قلبه بالذى أظهر لسانه ، وليس لك أن تعرف ما أسر ضميره ، فعامله على نحو ما يبدى لك لسانه » وفى ذلك أقول :

---

(١) أراد بالبيض الدراهم .

(٢) شكلة ــ بكسر الشين ــ وفتحها ــ أمه ، وهو إبراهيم بن المهدى العباسى .

ليس المسئ إذا تغيب سوءه ... عنى بمنزلة المسئ المعلنِ
من كان يظهر ماأحبُّ فإنه ... عندى بمنزلة الأمين المحسن
والله أعلمُ بالقلوب ، و إنمـا ... لك مابدا لك منهمُ بالألسن
ولقد يقال خلافُ ذلك إنما ... لك مابدا لك منهمُ بالأعين

غير أن خالى خالفنى فى ذلك ، وزعم أن الأعين أبين شهادة على مافى القلوب من الألسن . وكتب فى ذلك رسالة « أما بعد ، فقد بدا لى من صدك ، ماآيسنى من ودك ، ولم يزل يخبرنى لحظك ماتضمر لى من بغضك » . وكتب فى أسفل ذلك :

وما أحب إذا أحببت مكتتما ... يبدى العداوة أحياناً ويخفيها
تظل فى قلبه البغضاء كامنة ... فالقلب يكتمُها والعين تبديها
والنفس تعرف فى عينى مُحَدِّثِها ... مَنْ كان من سِلْمها أو من أعاديها
عيناك قد دلتا عينىَّ منك على ... أشياء لولاهما ما كنت أدريها

أخبرنا الخلادى ، حدثنـا أحمد بن محمد الصوفى ، حدثنا محمد بن صالح البغدادى قال : سمعت إبراهيم الحجنى يقول « دلائل الحب تعرف فى المحب ، و إن لم ينطق لسانه » .

ذكر ائتلاف الناس واختلافهم

أخبرنا عمران بن موسى بن مجاشع السختيانى ، حدثنا عبد الأعلى بن حماد النرسى ، حدثنا حماد بن سلمة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » الأرواح جنوده مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

حدثنا أبو خليفة حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان الثورى عن حبيب ابن أبى ثابت عن أبى الطفيل قال : قال على « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : سبب ائتلاف الناس وافتراقهم — بعد القضاء السابق — هو تعارف الروحين ، وتناكر الروحين ، فإذا تعارف الروحان وجدت الألفة بين نفسيهما ، و إذا تناكر الروحان وجدت الفرقة بين جسميهما

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمد بن عبد الله بن مهران، حدثنا يوسف ابن يعقوب الصفار ، حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبى يحيى عن مجاهد قال : رأى ابن عباس رجلا فقال « إن هذا ليحبنى ، قالوا : وما علمك ؟ قال : إنى لأحبه ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

أنشدنى محمد بن أبى على الخلادى ، أنشدنى أحمد بن محمد بن بكر الأبناوى:

إن القلوب لأجنـاد مجندة   لله فى الأرض بالأهواء تعترف

فما تعارف منها فهو مؤتلف   وما تناكر منها فهو مختلف

أنبأنا ابن مكرم بالبصرة ، حدثنا بشر بن الوليد ، حدثنـا الحـكم ابن عبد الملك عن قتادة فى قول الله تعالى (١١ : ١٢٠ إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم) قال : للرحمة والطاعة ، فأما أهل طاعة الله فقلوبهم وأهواؤهم مجتمعة ، و إن تفرقت ديارهم ، وأهل معصية الله قلوبهم مختلفة ، و إن اجتمعت ديارهم .

وأنشدنى منصور بن محمد الـكريزى :

فما تبصر العينان والقلب آلف   ولا القلب والعينان منطبقان

ولـكنهما روحان تعرض ذى لذى   فيعرف هـذا ذى فيلتقيان

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن من أعظم الدلائل على معرفة مافيه المرء من تقلبه وسكونه : هو الاعتبار بمن يحادثه ويوده ، لأن المرء على دين خليله ، وطير السماء على أشكالها تقع .

وما رأيت شيئاً أدل على شىء ، ولا الدخان على النار ، مثل الصاحب على الصاحب . وأنشدنى الأبرش :

يقاس المرء بالمرء إذا ماهو ماشاه
وذو العُرِّ إذا احتـــك ذا الصحة أعداه[١]

وللشيء من الشيء مقاييس وأشبـاه
وللروح على الروح دليل حين يلقاه

حدثنــا أبو خليفة ، حدثنا محمد بن كثير العبديّ ، أنبأنا سفيان عن أبى إسحاق عن هبيرة ، قال : اعتبِرِ الناس بأخدانهم[٢] .

أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمدِ بن موسى الأخبارى، حدثنا محمد بن صالح العدوى ، حدثنا الحسين بن جعفر بن سليمان الضبعى قال : سمعت أبي يقول : سمعت مالكا يقول « الناس أشكال كأجناس الطير ، الحمام مع الحمام ، والغراب مع الغراب ، والبط مع البط ، والصَّعْو مع الصَّعْو[٣] وكل إنسان مع شكله » .

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصارى :

يزين الفتى فى قومه وَيشينه وفى غيرهم : أخدانُه ومَداخلُهْ
لكل امرىء شكلٌ من الناس مثله وكل امرىءٍ يهوى إلى من يشاكله

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

إن كنتَ حُلْتَ ، و بى استبدلتَ مُطَّرحاً وُدًّا ، فلم تأت مكروهاً ولا بدَعا
فكلُّ طير إلى الأشكال موقعها والفرع يجرى إلى الأعراق منتزَعا

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يجتنب مماشاة المريب فى نفسه ، و يفارق صحبة المتهم فى دينه ، لأن من صحب قوماً عُرف بهم ، ومن عاشر امرأ نُسب

---

(١) العر ــ بضم العين المهملة ــ الجرب . يقول : إن الصديق يعدى صديقه كما يعدى الأجرب السليم .

(٢) اعتبر : قس ، والأخدان : جمع خدن ــ بالكسر ــ وهو الصديق .

(٣) الصعو : طائر أصغر من العصفور أحمر الرأس .

إليه ، والرجل لايصاحب إلا مثله أو شكله ، فإذا لم يجد المرء بداً من صحبة الناس تَحَرَّى صحبة مَنْ زانه إذا صحبه ، ولم يشنه إذا عرف به ، و إن رأى منه حسنة عَدَّها ، و إن رأى منه سيئة سترها ، و إن سكت عنه ابتدأه ، و إن سأله أعطاه .

فأما اليوم فأ كثر أحوال الناس تكون ظواهرها بخلاف بواطنها . وما أشبه عشرتهم إلا بما أخبرني محمد بن يعقوب البغلاني ، حدثني عبد الصمد ابن الفضل حدثنا الحسين بن سهل التياس عن أبي عبيدة قال « تكلم عصفور فى بنى إسرائيل مع فخّ ، فقال العصفور : انحناؤك لماذا ؟ قال : من العبادة . قال : دفنك فى التراب لماذا ؟ قال : من التواضع . قال : فما هذا الشعر ؟ قال هذا لباسى . قال . ماهذا الطعام ؟ قال : هذا أعددتُه لعابر السبيل . قال : فتأذن لى فيه ؟ قال : نعم . قال : فنقر العصفور نَقْرة فأخِذ بعنقه ، فجعل العصفور يقول : شَغْ شَغْ شَغْ . وقال : والله لايغرني قارىء بعدك أبداً » .

وأنشدنى محمد بن أبى على لابن أبى اللقيش :

إن كنت تبغى العلم أونحوَه ... أو شاهداً يخبر عن غائب
فاعتبر الأرض بأسمائها ... واعتبر الصاحب بالصاحب

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطى :

تَعَارَفُ أرواحُ الرجال إذا التقوا ... فمنهم عدو يُتقَي وخليل
كذاك أمور الناس والناس منهمُ ... خفيف إذا صاحبته وثقيل

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى :

اجعل قرينك مَنْ رضيت فعاله ... واحذر مقارنة القرين الشائن
كم من قرين شائن لقرينه ... ومهجنٍ منه لكل محاسن

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن من الناس من إذا رآه المرء يعجب به ،

فإذا ازداد به علماً ازداد به عجبا ، ومنهم من يبغضه حين يراه ، ثم لا يزداد به علماً إلا ازداد له مَقْتاً ، فاتفاقهما يكون باتفاق الروحين قديماً . وافتراقهما يكون بافتراقهما ، و إذا ائتلفا ثم افترقا فِراقَ حياة من غير بُغض حادث ، أو فراقَ ممات ، فهنالك الموت الفظيع ، والأسف الوجيع ، ولا يكون موقف أطولَ غُمَّةً ، وأظهر حسرةً وأدوم كآبةً ، وأشد تأسفاً ، وأكثر تلهفاً من موقف الفراق بين المتواخيين ، وما ذاق ذائق طعماً أمرَّ من فراق الخِلَّين ، وانصرام القرينين .

حدثنا محمد بن يعقوب الخطيب قال : سمعت معمر بن سهل يقول : سمعت جعفر بن عون يقول : سمعت مِسعر بن كدام يقول :

لن يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يَكِرُّ عليهمُ ونهار

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا أبو أحمد بن حماد البربرى ، حدثنا الزبير بن بكار ، حدثنى محمد بن موسى أبو غزية قال : كان أبو العتاهية إذا قدم المدينة يجلس إلى ، فأراد مرة الخروج فودعنى ، وقال :

إن نَعِشْ نجتمعْ ، وإلا فما أشْغَلَ من مات عن جميع الأنام

حدثنا محمد بن أبي على ، قال : أنشدنا محمد بن موسى السمرى ، أنشدنا أحمد بن عبد الأعلى الشيبانى :

فياعجباً ممن يَمُدُّ يمينه إلى إلفه عند الفراق ، فيسرع
ضعفتُ عن التوديع لما رأيته فصافحته بالقلب ، والعينُ تدمع

وأنشدنى ابن فياض للبحترى :

الله جارك فى انطلاقكْ تلقاء شامك ، أو عراقكْ
لا تعذلَنِّى فى مسيرى حيث سِرتُ ، ولم ألاقِك
إنى خشيت مواقفا للبين تسفح غرب ماقك (١)

(١) تسفح : تريق . والغرب . الدلو الكبير ، والماق : الموق ، شبه موق عينه بالدلو الكبيرة لكثرة مايذرف من الدموع عند الفراق

وعلمت مايخشى المودّ ع عند ضمِّك واعتناقك
فتركت ذاك تعمداً وخرجت أهرب من فراقك

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

أفى كل يوم حيَّة البين تقرع وعينى لبين من ذوى الود تدمع ؟
فلا النفس من تَهيامِها مستفيقة ولا بالذى يأتى به الدهر تقنع(1)

وأنشدنى محمد بن بندار بن أصرم :

أياقلب لاتجزع من البين ، واصطبر فليس لما يُقْضَى عليك بدافع
توكل على الرحمن إن كنت مؤمناً يُجِرك ، ودعنى من نُحوس الطوالع
وكل الذى قد قدَّر الله واقع ومالم يُقدره فليس بواقع

وأنشدنى عبد الرحمن بن يحيي بن حبيب الأندلسى لنفسه :

نطقت مدامعه بما فى قلبه ومن الجواب لسانه لاينطق
فكأنه مما يقاسى قلبه دَنِفٌ مريض أو أسير مُوثَق
وكأنما الأشجان فى أحشائه لفراق أهل الود نارٌ تحرق
كيف السلو ، وهل له من سلوة مَنْ بان عن أحبابه يتفرّق ؟

قال أبو حاتم رضى الله عنه : السبب المؤدى إلى إظهار الجزع عند فراق المتواخين : هو ترك الرضا بما يوجب القضاء ، ثم ورود الشىء على مضمر الحشا بضد ما انطوى عليه قديماً ، فمن وطّن نفسه فى ابتداء المعاشرة على ورود ضد الجميل عليها من صحبته ، وتأمل ورود المكروه منه على غفلته ، لايظهر الجزع عند الفراق ، ولا يشكو الأسف والاحتراق ، إلا بمقدار مايوجب العلم إظهاره .

ولقد أولع بجماعة الفراقُ حتى إنهم خرجوا إلى ثَلْب الطيور ، ومدح الدِّمَن(2) وتأولوا لعن نوح عليه السلام الغراب .

---

(1) التهيام : الهيام وهو شدة الحب ، ووقع فى الأصل « تهامها » وأحسبه محرفاً عما أثبت .

(2) الثلب : النقص والعيب والذم . والدمن : الأطلال وآثار الديار .

أنبأنا جعفر بن أحمد بن سنان القطان ، بواسط، حدثنا عمرو بن محمد بن عيسى الضبعى ، حدثنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى ، حدثنا الجريرى ، عن أبى السَّليل عن أبى مراوح قال « بعث نوح الغراب والحمامة حيث استقرت السفينة على الجوديِّ ، يلتمسان له الجُدَّ – يعنى الأرض – فأما الغراب فرأى جيفة فوقع عليها فأكل منها ، وأما الحمامة فجاءت عاضَّةً على غصن شجرة بطين أحمر . قال : فدعا للحمامة بالبركة ، وأما الغراب فلعنه ، وقال له قولا شديداً » .

أنبأنا محمد بن جعفر بن الحسن البغدادى ، حدثنا أحمد بن محمد بن الحسين البغوى ، قال : قال سليم بن منصور « أمرت لُبَنَى فاشتُرى لها أربعة غربان ، فلما رأتهن صرخت وبكت ، وكتفتهن ، وجعلت تضربهن بالسوط حتى قتلتهن جميعاً . وأنشأت تقول :

لقد نادى الغراب ببين لُبْنَى فطار القلب من حذر الغرابِ
وقال : غداً تباين دار لبنى وتنأى بعد ود واقتراب
فقلت : تعستَ ، ويحك من غراب أكُلَّ الدهر سعيك فى تَبَاب
لقد أولعت لاَلُقِّيت خيراً بتفريق المحب عن الحباب

وأنشدنى إبراهيم بن على الطرفى ، قال : أنشدنى على بن إسحاق :

غراب البين ، ويحكَ صحْ بقربٍ كما قد صحت ويحك بالبعاد
تنادى بالتفرق كل يوم فمالك بالتواصل لا تنادى ؟
أرانى الله ريشك عن قريب تُمرِّطه البُزَاة بكل وادى[1]
كما أسخَنْتَ يوم البَيْن عينى وألقيت الحزازة فى فؤادى

أنبأنا إبراهيم بن محمد بن يعقوب ، بهمذان ، حدثنا عبد الكبير بن محمد الأنسى ، حدثنا بعض أصحابنا ، قال : مررت بالبصرة على باب دار ، فإذا

---

(١) المرط – بفتح الميم وسكون الراء – نتف الريش . والبزاة : جمع باز ، وهو من الطيور الكاسرة .

بصوت غراب يُجْلَد ، فدنوت من الدار فإذا صاحبة الدار ، و بين يديها جوَار ، وهى تأمر بجلده . فقلت : أما تتقون الله فى هذا الغراب ؟ فقلن لى : هذا الغراب الذى قيل فيه :

ألا ياغراب البين قد طِرْتَ بالذى أحاذر من لُبْنَى ، فهل أنت واقع؟

فقلت : ليس هذا ذاك الغراب : فقالت : والله مانراك تأخذ البرىء بالسقيم حتى تظفرَ بذلك الغراب .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قد ذكرت مآشا كل هذه الحكايات والأشعار على التقصى فى كتاب « الوداع والفراق » فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب ؛ إذ شرطنا فيه الإشارة إلى الشىء المحصول ، والإيماء إلى الشىء المقول .

ذكر الحث على زيارة الإخوان وإكرامهم

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا يزيد بن صالح اليشكرى ، حدثنا حماد ابن سلمة ، عن ثابت عن أبى رافع عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن رجلا زار أخاً له فى قرية ، فأرصد الله على مَدْرَجته ملكا[1] فقال : أين تريد ؟ فقال : أريد أخاً لى فى هذه القرية ، فقال : هل له عليك من نعمة تَرُبُّها ؟ قال : لا ، إلا أنى أحبه فى الله ، قال : إنى رسول الله إليك ، إن الله تبارك وتعالى أحَبَّك كما أحببته » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل تعاهد الزيارة للاخوان وتفقد أحوالهم ؛ لأن الزائر فى قصده الزيارة ، يشتمل على مصادفة معنيين :

أحدهما : استكمال الذخر فى الآجل بفعله ذلك . وقد قال بعض القدماء : إن الرجل إذا زار أخاً له فى الله ، لم يبق فى السماء ملك إلا حياه بتحية مستأنفة

(١) أرصده : أقامه ينتظره ويترقبه . والمدرجة . المسلك الذى يدرج فيه . وتربها . أى تحفظها وتراعيها وتربيها كما يربى الرجل ولده .

لايحييه ملك مثله ولم تبق شجرة من شجر الجنة إلا نادت صاحبتها : ألا إن فلان ابن فلان زار أخاً فى الله [١] .

والآخر : التلذذ بالمؤانسة بالأخ المزور ، مع الانقلاب بغنيمتين معاً .

ولقد أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارى ، حدثنا الغلابى ،حدثنا عبد الله بن رجاء الغدانى قال : كان عتبة الغلام يأوى المقابر والصحارى ، ثم يخرج إلى السواحل فيقيم بها،فإذا كان يوم الجمعة دخل البصرة فشهد الجمعة ورأى إخوانه فسلم عليهم.

حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا عفان ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنى بعض مشيختنا ، قال : قال عامر بن قيس : إنما أجدنى آسف على البصرة لأربع خصال : تجاوب مؤذنيها ، وظماء الهواجر ، ولأن بها إخوانى ، ولأن بها وطنى .

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا محمد بن بشر الخطابى ، حدثنا محمد بن سهل التميمى ، قال : سمعت الفريابى يقول : جاءنى وكيع بن الجراح من بيت المقدس وهو محرم بعمرة ، فقال : يا أبا محمد لم يكن طريقى عليك ، ولكنى أحببت أن أزورك وأقيم عندك ، فأقام عندى ليلة ، وجاءنى ابن المبارك وقد أحرم بعمرة من بيت المقدس [٢] فأقام عندى ثلاثا ، فقلت : ياأبا عبد الرحمن ، أقم عندى عشرة أيام ، قال : لا ، الضيافة ثلاثة أيام .

---

(١) هذا من علم الغيب الذى لاينبغى القول فيه إلا لله وللرسول . وإلا كانقولا على الله بغير علم . والله يقول (٧ : ٣٣ قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن ــ إلى قوله ــ وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)

(٢) إنما مواقيت الإحرام بالحج والعمرة كمواقيت الصلاة،حددها الله علىرسوله وبينها رسوله صلى الله عليه وسلم . وقال : ربنا سبحانه (٢ : ٢٢٩ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) وإنما أتى الأولون والآخرون من قبل التساهل فىمثل هذا التعدى متوهمين أنه مبالغة فى العبادة ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الناس فى الزيارة على ضربين :

فمنهم من صحح الحال بينه و بين أخيه ، وتعرى عن وجود الخلل ، وورود البغض فيه ، فإذا كان بهذا النعت ، أحببت له الإكثار من الزيارة ، والإفراط فى الاجتماع ؛ لأن الإكثار من الزيارة بين من هذا نعته لايورث الملالة، والإفراط فى الاجتماع بين من هذه صفته يزيد فى المؤانسة .

والضرب الآخر : لم يستحكم الود بينه و بين من يواخيه ، ولا أداهما الحال إلى ارتفاع الحشمة بينهما فيما يبتذلان لمهنتيهما ، فإذا كان بهذا النعت أحببت له الإقلال من الزيارة . لأن الإكثار منها بينهما يؤدى إلى الملالة ، وكل مبذول مملول ، وكل ممنوع ملذوذ . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة تصرح بنفى الإكثار من الزيارة حيث يقول « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » إلا أنه لايصح منها خبر من جهة النقل ، فتنكبنا عن ذكرها و إخراجها فى الكتاب ، و إليها ذهب بعض الناس حتى ذكروها فى أشعارهم .

من ذلك ماأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

وقد قال النبى ، وكان بَرًّا   إذا زرت الحبيب فزره غِبًّا
وأقلل زَوْر من تهواه تزدد   إلى من زرته مقة وحباً[(١)]

وأنشدنى محمد بن أبى على :

إنى رأيتك لى محبا   وإلىّ حين أغيب صباً
فقعدت لا لملالة   حَدَثَتْ ولا استحدثتُ ذنباً
إلا لقول نبينا :   زوروا على الأيام غبَّا

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا خالد بن أحمد الشيبانى ، حدثنا سعيد ابن عنبسة ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسى ، قال : سمعت الحسن بن صالح يقول : كل مودة لاتزداد إلا بالالتقاء مدخولة .

---

(١) المقة : شدة الاشتياق .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : من صحح الحال بينه و بين الإخوان لم يضره قلة الاجتماع ، لاستحكام الحال بينهما ، والمودة إذا أضرَّ بهـا قلة الالتقاء تـكون مدخولة ، وأما من لم يحلّ فى نفس صحة الحال ، ولم يستحكم أسباب الوداد ؛ فالتوقِّى من الإكثار فى الزيارة أولى به ، لئلا يستثقل و يَمَل .

وأنشدنى الخلادى ، أنشدنى أحمد بن محمد الصيداوى :

عليـك بإقلال الزيارة إنهـا ... تـكون إذا دامت إلى الهجر مَسْلـكا
فإنى رأيتِ القَطْر يُسْأَم دائبـا ... وَيُسْأَل بالأيدى إذا هو أمسكا

وأنشدنى الـكريزى :

أقلل زيارتك الحبيــب ... تكون كالثوب استجدّه
إن الصــديق يُمِـلُّهُ ... أن لا يزالَ يَراك عنــده

وأنشدنى أوس بن أحمد بن محمد بن أحمد لأبى تمام :

وطول مُقام المرء فى الحى مخلِقٌ ... لديباجتيه[1] ، فاغترب تتجدّدِ
فإنى رأيت الشمس زيدت محبـة ... إلى الخلق إذ ليست عليهم بسرمد

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أحمد بن زنجويه ، حدثنا حسين بن الوليد ، حدثنا عبد الله بن المؤمل عن ابن أبى مُليكة قال : قال ابن عباس « أكرم الناس علىَّ جليسى الذى يتخطى رقاب الناس حتى يجلس إلىَّ » .

أنبأنا مكحول ببيروت ، حدثنا عبيد بن محمد بن هارون حدثنا عمرو بن أبى سلمة ، عن سعيد بن بشير ، عن قتادة فى قوله تعالى (٤٢: ٢٦ و يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال : يشفعون فى إخوانهم (و يزيدهم من فضله) قال : يشفعون فى إخوان إخوانهم .

(١) الديباجتان : الخدان .

ذكر صفة الأحمق والجاهل

أنبأنا محمد بن نصر بن نوفل ، أنبأنا أبو داود السنجى ، حدثنا أبو عاصم ، عن شبيل بن عزرة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل الجليس الصالح مثل العطار ، إن لم يعطك شيئاً يُصِبْك من عطره ، ومثل الجليس السوء مثل القَيْن ، إن لم يَحْرِق ثوبك أصابك من دخانه » .

(١) قال أبو حاتم رضى الله عنه : شبيل بن عزرة هذا من أفاضل أهل البصرة وقرائهم ، ولكنه لم يحفظ إسناد هذا الخبر : لأن أنس بن مالك سمع هذا الخبر من أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقصر به شبيل ولم يحفظه .

والواجب على العاقل ترك صحبة الأحمق ، ومجانبة معاشرة النَّوْكَى ، كما يجب عليه لزوم صحبة العاقل الأريب ، وعشرة الفطن اللبيب ، لأن العاقل وإن لم يصبك الحظ من عقله ، أصابك من الاعتبار به ، والأحمق إن لم يُعْدِك حمقه تدنست بعشرته .

وقد أنبأنا الحسين بن محمد السنجى حدثنا إبراهيم بن أبى داود البرسلى حدثنا زهير بن عباد حدثنا شهاب بن خراش عن أبيه عن يسير بن عمرو — وكان قد أدرك الصحابة — قال : اهجر الأحمق ، فليس للأحمق خير من هجرانه .

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل حدثنا محمد بن أبى يعقوب الربعى حدثنا أحمد ابن إسحاق الخشاب عن الأصمعى عن سلمة بن بلال قال : كان فتى يعجب علىَّ ابن أبى طالب ، فرآه يوماً وهو يماشى رجلا متَّهماً ، فقال له :

لا تصاحب الجاهل إيَّاك وإياه
فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ماشاه

---

(١) وقع هنا فى المطبوعة السابقة أربع صحائف ليست من هذا الباب فى شىء ، وسننبه عليها فى ص ١٢٣ ، ١٢٧

وللشيء من الشيء مقـايس وأشـباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه [١]

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

اختر ذوى التميـيز واستبقهم وجانب النَّوْكَى وأهْلَ الريب
فصحبة العـاقل زين الفتى وصحبـة الأنوك أخـذ السبب

قال أبو حاتم رضى الله عنه : من علامات الحمق التى يجب للعاقل تفقدها ممن خفى عليه أمره : سرعة الجواب ، وترك التثبت ، والإفراط فى الضحك ، وكثرة الالتفات ، والوقيعة فى الأخيار ، والاختلاط بالأشرار .

والأحمق إذا أعرضت عنه اغتم ، و إن أقبلت عليه اغترَّ ، و إن حَلُمتَ عنه جهل عليك ، و إن جهلت عليه حلم عنك ، و أن أسأت إليه أحسن إليك ، و إن أحسنت إليه أساء إليك ، و إذا ظلمته انتصفت منه ، و يظلمك إذا أنصفته .

وما أشبه عشرة الحمقى إلا بما أنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

لى صـديق يرى حقوقى عليـه نافـلات وحقـه كان فرضـا
لو قطعت الجبـال طولا إليـه ثم من بعد طولهـا سِرت عَرْضا
لرأى ماصنعت غـير كبـير واشتهى أن أزيد فى الأرض أرضا

حدثنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا إبراهيم بن الجنيد قال : قال لى أبو طاهر ابن السرح قال : حدثنى خالى أبو رجاء عبد الرحمن بن عبد الحميد عن سعيد ابن أبى أيوب قال : لاتصاحب صاحب السوء ، فإنه قطعة من النار ، لايستقيم وده ولا يفى بعهده .

---

(١) فى نسبة ذلك الشعر إلى على رضى الله عنه نظر ، فلقد نحل كثيراً من الشعر والنثر ، بل ألصق به كثير مما فى كتاب نهج البلاغة ، وصفة البلاغة المحدثة ، وعقيدة الاعتزال صارخة منه بأن أكثر الكتاب من صنع الشريف الرضى أو آخر من شكله .

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري :

لن يسمعَ الأحمقُ من واعظ　　في رفعه الصوت وفي همسه
لن تبلغ الأعداء من جاهل　　مايبلغ الجاهل من نفسه
والحُمْق داء ، ماله حيلة　　تُرجى ، كبعد النجم في لمسه

قال أبو حاتم رضي الله عنه : أظلم الظلمات الحمق ، كما أن أنفذ البصائر العقل ، فإذا امتحن المرء بعشرة الأحمق كان الواجب عليه اللزوم لأخلاق نفسه ، والمباينة لأخلاقه ، مع الإكثار من الحمد لله على ماهب له من الانتباه لما حرم غيره من التوفيق له ، فإن جرى الأحمق في صحبته ميدانه في عشرته فالواجب على العاقل لزوم السكوت حينئذ في أوقاته ، لأن أبا حمزة محمد بن عمر بن يوسف أنبأنا بنَسَا حدثنا نصر بن علي الجهضمي حدثنا ابن داود قال : سمعت الأعمش يقول : السكوت للأحمق جواب .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : وإن من الحمقى مَنْ لا يَصدُّه عن سلوكه السكوت عنه ، ولا يدفعه عن دخول المكامن الإغضاء عنه ولا ينفعه .

فالعاقل إذا امتحن بعشرة من هذا نعته تكلف بعض التجاهل في الأحايين ؛ لأن بعض الحلم إذعان ، كما أن استعماله في بعض الحالات قطب العقل .

ولقد أنشدني محمد إسحاق الواسطي :

لئن كنت محتاجا إلى العلم إنني　　إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج
ولي فرس للحلم بالحلم مُلجَم　　ولي فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاء تقويمي فإني مقوِّم　　ومن شاء تعويجي فإني معوج
وما كنت أرضى الجهل خدنا ولا أخا　　ولكنني أرضى به حين أَحْرَجُ
فإن قال بعض الناس: فيه سماجةٌ ،　　فقد صدقوا ، والذل بالحر أسمج

وأنشدني علي بن محمد البسامي :

لن تُرْضِيَ الرَّذْلَ إلا حين تسخطهُ وليس يسخط إلا حين ترضيه
ولا يسوءك إلا حين تكرمه ولا يسرك إلا حين تقصيه

حدثنا أبو يعلى حدثنا سريج بن يونس حدثنا أبو سفيان المعمرى عن سفيان الثورى قال : ابن آدم لم يخلق إلا أحمق ، ولولا ذلك لم ينفعه عيشه .

حدثنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا عصام بن الفضل الرازى حدثنا الزبير بن بكار عن محمد بن حرب قال : قال عبد الله بن حسن لابنه : يابنيَّ احذر الجاهل، وإن كان لك ناصحاً ، كما تحذر العاقل إذا كان لك عدواً ، فيوشك الجاهل أن يورِّطك بمشورته فى بعض اغترارك ، فيسبق إليك مكر العاقل .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : ومن شيم الأحمق العجلة ، والخفة ، والعجز ، والفجور ، والجهل ، والمقت ، والوهن ، والمهابة ، والتعرض ، والتحاسد ، والظلم ، والخيانة ، والغفلة ، والسهو ، والغى ، والفحش ، والفخر ، والخُيلاء ، والعدوان ، والبغضاء .

وإن من أعظم أمارات الحمق فى الأحمق لسانه ؛ فإنه يكون قلبه فى طرف لسانه ، ماخطر على قلبه نطق به لسانه .

والأحمق يتكلم فى ساعة بكلام يعجز عنه سَحبان وائل ، ويتكلم فى الساعة الأخرى بكلام لايعجز عنه باقل .

والعاقل يجب عليه مجانبة مَنْ هذا نعته ، ومخالطة مَنْ هذه صفته ، فإنهم يجترئون على من عاشرهم . ألا ترى الزُّطَّ(١) ليسوا هم بأشجع الناس ، ولكنهم يجترئون على الأسد لكثرة مايرونها .

وأنشدنى محمد بن يوسف بن أيوب الأرمنى :

وَلَمَنْ يعادى عاقلا خير له من أن يكون له صديق أحمقُ
فارغب بنفسك أن تصادق أحمقا إن الصديق على الصديق مصدّق

---

(١) الزط : جنس من السودان والهنود طوال الاجسام مع نحافة .

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى أنشدنى أبى لصالح بن عبد القدوس :

احذر الأحمق أن تصحبه إنما الأحمق كالثوب الخلَق

كلما رقَّعتَه من جانب حركته الريحُ وَهْناً فانخرق

أو كصَدْع فى زُجاج فاحش هل ترى صدع زجاج يلتصق ؟

كحمار السوء إن أقضمته (١) رَمَح الناس ، وإن جاع نهق

وإذا جالسته فى مجلس أفسد المجلس منه بالخُرُق

وإذا نهنهتَه كى يَرْعوِى زاد شراً ، وتمادى فى الحُمُق

عجباً للناس فى أرزاقهم ذاك عطشان ، وهذا قد غَرِق

أنبأنا يعقوب بن إسحاق القاضى ، حدثنا أبو هانى عبد الحميد بن عبد الله حدثنا عبد المنعم عن أبيه عن وهب بن منبه قال : الأحمق كالثوب الخلق ، إن رفأته من جانب انخرق من جانب آخر ، مثل الفَخَّار المكسور ، لا يُرقَّع ولا يُشْعَب ، ولا يعاد طينا .

فهذا مثل الأحمق: إن صحبته عنَّاك ، و إن اعتزلته شتمك ، و إن أعطاك منَّ عليك ، و إن أعطيته كفَرك ، و إن أسَرّ إليك أتهمك ، و إن أسررت إليه خانك ، و إن كان فوقك حَقَّرك ، و إن كان دونك غمزك .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

اعلم بأنَّ من الرجال بهيمة فى صورة الرجل السميع المبصرِ

فطناً بكل مصيبة فى ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

وإن عناء أن تفهِّم جاهلا فيحسبَ جهلاً أنه منك أعلم

وتشخص أبصار الرّعاع تعجباً إليه ، وقالوا : إنه منك أفهم

(١) أقضمته : علفته القضام ـ بضم القاف وبتشديد الضاد ـ وهو نبت من الحمض

[1] قال أبو حاتم رضى الله عنه : الأحمق يتوهم أنه أعقل من رُكِّبَ فيه الروح ، وأن الحمق قُسِّم على العالم غيره ، والأحمق مُبَغَّض فى الناس ، مجهول فى الدنيا ، غير مرضى العمل ، ولا محمود الأمر عند الله وعند الصالحين ، كما أن العاقل محب إلى الناس ، مُسَوَّد فى الدنيا ، مرضى العمل عنـد الله فى الآخرة ، وعند الصالحين فى الدنيا .

أنبأنا محمد بن المنذر بن سعيد ، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجنـدى ، حدثنا عبد الله بن سليمان ، قال : كان الحسن يقول : أنا للعاقل المدْبِر أرجى منى للأحمق المقبل .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصاري :

وما الغىُّ إلا أن تُصاحبَ غاوياً وما الرشد إلا أن تصاحب مَنْ رَشَدْ
ولن يصحَبَ الإنسانَ إلا نظيرُه وإن لم يكونا من قبيل ولا بلد

وأنشدنى على بن محمد البسامى :

لنـا جليس تارك للأدب جليسـه من نَوْكه فى تعبْ
يغضب جهلا عند حال الرضا عمداً ، ويرضَى عند حال الغضب
فنحن منـه كلما جاءنا فى عجب قد جاز حدَّ العجب
كأنه من سـوء تأديبـه أسْلِمَ فى كتَّاب سوء الأدب

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا محمد بن أبى يعقوب الربعى ، حدثنـا عبد الله بن موسى البصرى ، حدثنا العتبى ، قال : سمعت أعرابيًّا يقول : العاقل بخشونة العيش مع العقلاء أسَرُّ منه بلين العيش مع السفهاء .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : وإنَّ من شِيَمَ العاقل : الحلم ، والصمت ، والوقار ، والسكينة والوفاء والبذل ، والحـكمة ، والعلم ، والورع والعدل ، والقوة ،

---

(١) من هنا يبتدىء الـكلام الذى نبهنا على أنه وضع فى ص ١١٨ فى المطبوعة السابقة خطأ .

والحزم والكياسة ، والتمييز ، والسمت ، والتواضع ، والعفو ، والإغضاء ، والتعفف ، والإحسان ، فإذا وفق المرء لصحبة العاقل فليشُدَّ يديه به ولا يزايله على الأحوال كلها .

والواجب على العاقل أن لا يصحب بجيلة من لا يستفيد منه خيراً .

ولقد أنبأنا محمد بن محمود بن عدى النسوى ، حدثنا على بن سعيد بن جرير ، قال سمعت أحمد بن حنبل يقول : أخبرت عن مالك بن دينار أنه قال : مررت براهب فى صومعته فناديته ، فأشرف علىّ ، فكلمنى وكلمته ، فقال لى فيما يقول : إذا استطعت أن تجعل فيما بينك و بين الدنيا حائطاً فافعل[1] ، و إيالا وكلّ جليس لاتستفيد منه خيراً فلا تجالسه ، قريباً كان أو بعيداً .

---

(١) وهذا بظاهره طلب المستحيل ، وهو من أحمق الحمق وأسفه السفه ، ولا يكون من الرهبان إلا ذلك ، فإنهم ابتدعوا عكس ما كتبه الله ، فقد كتب الله وقدر بحكمته البالغة هذه الحياة الدنيا ، وجعلها للانسان الطريق إلى الآخرة ، وذلك من إحسان الله بلا ريب ، وأمرنا أن نحسن الانتفاع بها مؤمنين بأن الله الحكيم ماخلقها ولا خلق شيئا فى السموات والأرض باطلا ، بل كله حق ، فنقدر لربنا ذلك ونضع كل شىء فى موضعه ، فقد قال سبحانه (١٠ : ٢٦ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ولقد عمى أولئك الرهبان ومقلدوهم كل العمى فذهبوا متخبطين فى مهامه الغى والفساد ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، زعموا أنهم يقدرون أن يقهروا سنن الله ويغلبوها فقهرتهم وغلبتهم ، والله (٦ : ١٨ هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) فكان منهم أفسق الفسق ، وشر العصيان ، ولئن ضل رهبان النصارى لتبديل شريعة عيسى عليه السلام وتحريفها ، فما بال رهبان المسلمين ضلوا وراءهم ضلالا بعيدا ؟ وهذا كتاب الله محكمة آياته ، واضحة شرائعه ، بيضاء محجته ، قائمة صواه ومعالمه ، وهذا هدى رسول الله مصون محفوظ ، كأنه قائم بين الناس يحدثهم ويدعوهم إلى الهدى وإلى صراط الله المستقيم ؟ ولكن هو إبليس الغوى ، والتقليد الردى ، والغلو المفسد ، والهوى المتحكم ، ولو شاء ربك مافعلوه ، فذرهم وما يفترون ، وعليك بهدى رسول الله فهو خير هدى .

ذكر الزَّجْر عن التجسس وسوء الظن

حدثنا محمد بن أبى أحمد الرقام بتستر، حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى، حدثنا أبو داود، حدثنا سليمان بن حيان عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً».

حدثنا محمد بن عثمان العقبى، حدثنا جعفر بن محمد بن الحجاج الرقى، حدثنا محمد بن حاتم الجرجرائى، حدثنا محمد بن المبارك، عن يونس بن نافع، عن كثير بن زياد، قال: سمعت الحسن يقول: لاتسأل عن عمل أخيك الحسن والسيىء، فإنه من التجسس.

قال أبو حاتم رضى الله عنه: الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه؛ فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه، ولم يتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه مايرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمى قلبه وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم وأعجز منه من عابهم بما فيه من عاب الناس عابوه، ولقد أحسن الذى يقول:

إذا أنت عبت الناس عابوا وأكثروا ... عليك، وأبدَوا منك ما كان يُستَرُ
وقد قال فى بعض الأقاويل قائل ... له منطق فيه كلام مُحبَّرُ
إذا ماذكرت الناس فاترك عيوبهم ... فلا عيب إلا دون مامنك يُذكر
فإن عبت قوماً بالذى ليس فيهم ... فذلك عند الله والناس أكبر
وإن عبت قوماً بالذى فيك مثله ... فكيف يعيب العُورَ من هو أعور؟
وكيف يعيب الناس من عَيْبُ نفسه ... أشدُّ إذا عدَّ العيوب وأنكر؟
متى تلتمس للناس عيباً تجد لهم ... عيوباً، ولكنَّ الذى فيك أكثر

فسالمهمُ بالـكفِّ عنهم ، فإنهم ‏ بعيبك من عينيك أهدى وأبصر

حدثنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا هارون بن صدقة القاضى ، حدثنا سعيد ابن مسلمة الإيادىُّ ، قال : ادعت امرأة على رجل حماراً لها ، فقدمته إلى القاضى، فسألها البينة ، فأحضرت أبا دُلامة ورجلا آخر ، فقال لها القاضى : أما شاهدك هذا فقد قبلنا شهادته ، فأتِنا بشاهد آخر ، فأتت أبا دلامة فأخبرته ، فصار إلى القاضى وأنشأ يقول :

إن النـاس غَطَّونى تغطيتُ عَنهمُ ‏ وإن بحثوا عنّى ففيهم مباحث

وإن حفروا بئرى حفرت بئارهم ‏ ليعلم يوماً كيف تلك النبائث ؟[١]

فقال القاضى للمرأة : كم ثمن حمارك ؟ قالت : ثلاثمائة ، قال : قد احتملناها لك من مالى وأنشدنى الـكريزى :

أرى كل إنسان يري عيب غيره ‏ ويعمَى عن العيب الذى هو فيه

وما خير مَنْ تخفى عليه عيوبه ‏ ويبدو له العيب الذى لأخيه

حدثنا محمد بن المنذر ، حدثنا الليث بن عبدة المصرى ، حدثنا الحسن بن واقع ، حدثنا ضمرة عن الشيبانى ، قال : فى الـكتب مكتوب : كما تدين تدان ، وبالـكأس الذى تسقى به تشرب ، وزيادة : لأن البادىء لابد له من أن يزاد .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : التجسس من شُعب النفاق ، كما أن حسن الظن من شعب الإيمان ، والعاقل يحسن الظن بإخوانه، وينفرد بغمومه وأحزانه ، كما أن الجاهل يسىء الظن بإخوانه ، ولا يفكر فى جناياته وأشجانه .

ولقد أحسن الذى يقول :

مايستريحُ المسىء ظناً ‏ من طول غم ، وما يُرِيحُ

وقلَّ وجه يضيق إلا ‏ ودونه مذهب فَسيحُ

مَنْ خَفَّفَ الله عنه هبت ‏ من كل وجه إليه ريح

---

(١) نبث التراب ونبشه : حفره بيده وأثاره

والجسم حيث استقر هادٍ والروح جَوَّالة تسيح

كم تذبح الأرض من بنيها كلٌّ بنيها لها ذبيح

لن يهلك المرء من سماح وقلَّما يُفلح الشَّحيح

قال أبو حاتم رضى الله عنه : سوء الظن على ضربين :

أحدهما : منهى عنه بحكم النبى صلى الله عليه وسلم .

والضرب الآخر مستحب .

فأما الذى نهى عنه فهو استعمال سوء الظن بالمسلمين كافة على ماتقدم ذكرنا له .

وأما الذى يستحب من سوء الظن فهو كمن بينه و بينه عداوة أو شحناء فى دين أو دنيا ، يخاف على نفسه مَكْره ، فحينئذ يلزمه سوء الظن بمكائده ومكره لئلا يصادفه على غِرَّة بمكره فيهلكه .

وحسن الظن يحسنُ فى أمور ويمكن فى عواقبه ندامهْ

وسوء الظن يسمُج فى وجوه وفيه من سماجته حزامهْ

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

ماينبغى لأخى وُدّ وتجربة أن يترك الدهرَ سوءَ الظن بالناس

حتى يكون قريباً فى تباعده عنَّا ، ويدفع ضُرَّ الحرص باليأس

حدثنا محمد بن المنذر ، حدثنا إبراهيم بن هانىء ، حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا(١) .

• أنبأنا الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن زيد بن أسلم عن

(١) كذا بالأصلين ، وإلى هنا ينتهى الكلام الذى نبهنا فى ص ١١٨ على أنه وضع خطأ هنا فى المطبوعة السابقة .

عمر بن سعد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : مكتوب فى التوراة « من تَجَرَ[١] فَجَر ، ومن حفر حفرة سوء لصاحبه وقع فيها » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل مباينة العام فى الأخلاق والأفعال ، بلزوم ترك التجسس عن عيوب الناس ؛ لأن من بحث عن مكنون غيره بحث عن مكنون نفسه ، وربما طَمَّ مكنونه على مابحث من مكنون غيره ، وكاف يَستحسنُ مسلم تَلْبَ مسلم بالشىء الذى هو فيه ؟ .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى :

لاتلتمس من مساوى الناس ماستروا فيهتكَ الناس ستراً من مساويكا
واذكر محاسن مافيهم إذا ذكروا ولا تعِبْ أحداً عيباً بما فيكا

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

إذا مااتقيت الأمر من حيثُ يُتقَى وأبصرت ماتأتى ، فأنت لبيبُ
ولاتك كالناهى عن الذنب غيرَهُ وفى كَفِّه مما يُذَمُّ نصيبُ
يعيب فعالَ السوء من فعلِ غيرهِ ويفعل أفعالَ الذين يعيبُ

حدثنا محمد بن المهاجر المعدل حدثنا محمد بن موسى السمرى حدثنا حماد بن إسحاق بن إبراهيم عن أبيه ، قال : وحدثنى عزيز عن الزبير بن موسى المخزومى قال : قالت ابنة عبد الله بن مطيع الأسود ، وهى زوجة طلحة بن عبد الله بن عوف لزوجها : مارأيت أحداً قطْ ألأمَ من أصحابك ، قال : مه ، لاتقولى ذاك فيهم ، وما رأيتِ من لؤمهم ؟ قالت : أمراً والله بَيِّناً ، قال : وما هو ؟ قالت : إذا أيسرت لزموك ، وإذا أعسرت جانبوك ، قال : مازدتِ على أن وصفتهم بمكارم الأخلاق ، قالت : وما هذا من مكارم الأخلاق ؟ قال : يأتوننا فى حال القوة منا عليهم ، ويفارقوننا فى حال الضعف منا عليهم .

---

(١) أى صار تاجراً ، واتخذ التجارة صناعته .

ذكر الحث على مجانبة الحرص للعاقل

حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ رحمه الله ـ حدثنا بشر بن معاذ العَقَدى[١] حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « يَهرم ابْنُ آدم وتشب منه اثنتان : الحرص ، والحسد » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : ركّب الله جل وعز فى البشر الحرص والرغبة فى الدنيا الفانية ، لئلا تخرب ، إذ هى دار الأبرار ، ومكسب الأتقياء ، وموضع زاد المؤمنين ، واستجلاب الميرة للصالحين ، ولو تعرى النـاس عن الحرص فيها بطلت وخربت ، فـلم يجد المرء مايستعين به على أداء فرائض الله ، فضلا عن اكتساب مايُجْدِى عليه النفع فى الآخرة نفلا ، والإفراط فى الحرص مذموم ، كما أنشدنى على بن محمد البسامى :

ليس عندى إلا الرضا بقضاء الـلـه فيما أحببته أو كرهته
لوْ إلىّ الأمور ، أختار منها خيرها لى عواقباً ماعرفته
ولو أنى حرصت جهدى أن أد فع أمراً مقدراً مادفعته
فأرى أن أردّ ذاك إلى من عنده علم كلٍّ ماقد جهلته

وأنشدنى محمد بن نصر المدينى :

يا كثير الحرص مشغو لا بدنيـا ليس تبقى
مارأيت الحرص أدنى من حريص قَطُّ رزقا
لا ، ولـكن فى قضاء الـلـه : أن يعيـا ويشقى
تعرف الحق ، ولـكن لاترى للحق حقـاً

أنبأنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسى ، حدثنا محمد بن الوليد بن أبان ، حدثنا نعيم بن حماد عن ابن المبارك قال : سخاء الناس عما فى أيدى الناس أكثر من

(١) فى نسخة « العقبى » .

سخاء البذل ، ومروءة القناعة أكثر من مروءة الإعطاء .

أنشدنا أبو يعلى قال : أنشدونا منذ دهر للشافعى :

قدرُ الله واقعٌ حيث يقضى ورودُه
قد مضى فيك حكمه وانقضى ما يريده
وأخو الحرص حرصه ليس مما يزيده
فأرِدْ ما يكون إذ لم يكن ما تريده

أنبأنا عبد الله بن عروة حدثنا يعقوب الدورقى حدثنا ابن علية عن أيوب عن ابن سيرين قال : إذا لم يكن ماتريد فأرِدْ مايكون .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً ، وأفقر الفقراء من كان الحرص عليه أميراً ؛ لأن الحرص سبب لإضاعة الموجود عن مواضعه ، والحرص محرمة ، كما أن الجبن مقتلة ، ولو لم يكن فى الحرص خصلة تذم إلا طول المناقشة بالحساب فى القيامة على ماجمع لكان الواجب على العاقل ترك الإفراط فى الحرص .

وقد كان بعض أصحابنا كثيراً ماينشد :

تجانب الحرصَ ،ودع عنك الحسد ففيهما الذُّلُّ وإتعابُ الجسد

وأنشدنى الكريزى :

وأرَّقنى طولُ التفكر إننى عجبت لدهرٍ ماتُقَضَّى عجائبه
فكم عاجز يدعى جليداً لغَشْمه ولو كلف التقوى لكلّت مضاربه
وعف يسمى عاجزاً لعفافه ولولا التُّقَى ما أعجزته مذاهبه
فليس بحرص المرء أدركه الغنى ولا باحتيال أدرك المالَ كاسبه
ولكنه قبضُ الإله وبسطُهُ فلا ذا يجاريه ولاذا يغالبه

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الحرص غير زائد فى الرزق ، وأهون مايعاقب الحريص بحرصه أن يمنع الاستمتاع بما عنده من محصوله ، فيتعب فى طلب

مالا يدرى أيلحقه أم يحول الموت بينه و بينه ؟ ولو لزم الحريص ترك الإفراط فيه واتكل على خالق السماء لأتحفه المولى جل وعز بإدراك مالا يسعى فيه ، والظفر بما لو سعى فيه وهو حريص عسى لتعذر عليه وجوده .

وأنشدنى على بن محمد البسامى :

ألا رُبَّ باغ حاجةً لا ينالُها ... وآخرُ قد تُقْضَى له وهو آيس

يحاولها هـذا ، وتقضى لغـيره ... وتأتى الذى تقضى له وهو جالس

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

وكم من أكلة منعت أخاها ... بلذَّة ســاعة أكلاتِ دهر

وكم من طالب يسعى لشىءٍ ... وفيــه هـلاكُه لو كان يدرى

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الحرص علامة الفقر ، كما أن البخل جلباب المسكنة ، والبخل لِقَاحُ الحِرص ، كما أن الحَمِيَّة لقاح الجهل ، والمنع أخو الحرص ، كما أن الأنفة توأم السفه ، وأنشدنى عمر بن محمد قال : أنشدنى الغلابي:

لا تأتينَّ نذالة لمنـالة ... فليأتينـك رزقك المقـدور

واعلم بأنك آخـذٌ كل الذى ... لك فى الـكتاب مُحَبَّرٌ مسطور

والله مازاد امرءاً فى رزقه ... حرصٌ، ولا أزْرَى به التقصير

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

وارضَ من العيش فى الدنيا بأيسره ... ولا ترومنّ ما إن رُمتَهُ صَعُبا

إنَّ الغنى هو الراضى بعيشــته ... لا مَنْ يظل على مافات مكتئبا

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا عبد الله بن يحيى بن حميد الطويل حدثنا أبو عبد الرحمن العتبى حدثنى أبى قال : اختصمت بنو اسرائيل فى القَدَر ، خمسمائة عام، ثم تحاكموا إلى عالم من علمائهم ، فقالوا له : أخبرنا عن القَدَر ، وقَصِّر و بين لتفهمه عنك العوام ، فقال : حرمان عاقل ، وحظ جاهل .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا حَظَّ فى الراحة لمن أطاع الحرص؛ إذ الحرص

سائق البلايا ، فالواجب على العاقل أن لا يكون المفرط فى الحرص فى الدنيا ؛ فيكون مذموماً فى الدارين ، بل يكون قصده لإقامة فرائض الله ، و يكون لبغيته نهاية يرجع إليها لأن من لم يكن لقصده [منها] نهاية آذى نفسه وأتعب بدنه . فمن كان بهذا النعت فهو من الحرص الذى يحمد .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى :

الحرص عونٌ للزمان على الفتى والصبر نعم القرنُ للأزمان

لا تخضعَنَّ فإن دهرك إن رأى منك الخضوع أمَدَّهُ بهوان

وإذا رآك وقد قصدت لصرفه بالصبر ، لاقى الصبر بالإذعان

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى ، حدثنى شعيب بن أحمد لأبى العتاهية :

لا تخضعَنَّ لمخلوق على طمع فإن ذاك مُضِرٌّ منك بالدين

وأنشدنى الكريزى أيضاً ، أنشدنى شعيب بن أحمد لأبى العتاهية :

قد شاب رأسى ، ورأسُ الحرص لم يَشِبِ

إن الحريص على الدنيا لفى تعب

مالى أرانى إذا حاولتُ منزلةً

فنلتها طمحت نفسى إلى رتب

لو كان ينفعنى علمى وتجربتى

لم أشف غيظى من الدنيا ولا كلبى

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قد ذكرت مايشا كل هذه الحكايات بعللها فى كتاب « الثقة بالله » بما أرجو أن يكون فيه غُنْية لمن أراد الوقوف على معرفتها ، فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب .

ذكر الزَّجْر عن التحاسد والبغضاء

أنبأنا محمد بن الحسين بن مكرم البزاز بالبصرة ، حدثنا عمرو بن على الفلاس ،

حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج ، حدثنى عطاء أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل مجانبة الحسد على الأحوال كلها : فإن أهون خصال الحسد هو ترك الرضا بالقضاء ، وإرادة ضد ما حكم الله جل وعلا لعباده ، انطواء الضمير على إرادة زوال النعم عن المسلم ، والحاسد لا تهدأ روحه ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه ، وهيهات أن يساعد القضاء ما للحساد فى الأحشاء .

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطى :

أعذر حسودك فيما قد خصصت به ⁂ إن العلى حسن فى مثله الحسد
إن يحسدونى فإنى لا ألومهم ⁂ قبلى من الناس أهلُ الفضل قد حسدوا
فدام لى ولهم مابى وما بهمُ ⁂ ومات أكثرنا غيظاً بما يجد
أنا الذى وجدونى فى صدورهم ⁂ لا أرتقى صَدْراً منهم ولا أرِد

أنبأنا أبو خليفة ، حدثنا ابن كثير ، أنبأنا سفيان الثورى عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، قال : رأى موسى رجلا عند العرش فغبطه بمكانه ، فسأله عنه ، فقال : ألا أخبرك بعمله ؟ كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يعقُّ والديه ، قال : وكيف يعق والديه ؟ قال : يستتب لهما حتى يُسَبَّا ، ولا يمشى بالنميمة .

أنشدنى ابن بلال الأنصارى :

عينُ الحسودِ عليك الدهْرَ حارسةٌ ⁂ تبدى مساويك والإحسان يخفيها
فاحذر حراستها ، واحذر تكشفها ⁂ وكن على قَدرِ ماتوليك توليها

أنبأنا عبد الرحمن بن زياد الكنانى ، بالأبلة ، حدثنا أبو يحيى الضرير ، حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة عن كعب بن علقمة قال عمر بن الخطاب

رضى الله عنه « ما من أحد عنده نعمة إلا وجدتَ له حاسداً ، ولو كان المرء أقومَ من القدْح لوجدت له غامزاً ، وما ضَرَّت كلمة لم يكن لها خواطب »

وأنشدنى على بن محمد البسامى[(1)] :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه   فالقومُ أنداد له وخصوم[(2)]

كضرائر الحسناء قلن لوجهها   حسداً وبغياً : إنه لدميم

وترى اللبيب مُحَسَّداً لم يَجْتَلِب   شتم الرجال ، وعِرْضُه مشتومُ

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا أحمد بن إبراهيم بن حرب ، حدثنا غسان بن المفضل ، أخبرنى محمد بن يزيد عن يونس بن عبيد ، قال : قال ابن سيرين ما حسدت حداً على شيء من الدنيا ؛ لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى الجنة ؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى النار ؟

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الحسد من أخلاق اللئام ، وتركه من أفعال الكرام ، ولكل حريق مطفىء ، ونار الحسد لا تطفأ .

ومن الحسد يتولد الحِقْد ، والحقد أصل الشر ، ومَنْ أضمر الشر فى قلبه ، أنبتَ له نباتا مُرًّا مذاقه ، نماؤه الغيظ ، وثمرته الندم .

والحسد هو اسم يقع على إرادة زوال النعم عن غيره ، وحلولها فيه . فأما من رأى الخير فى أخيه ، وتمنى التوفيق لمثله ، أو الظفر بحاله ، وهو غير مريد لزوال ما فيه أخوه ؛ فليس هذا بالحسد الذى ذُمَّ ونُهِى عنه .

ولا يكاد يوجد الحسد إلا لمن عظمت نعمة الله عليه ، فكلما أتحفه الله بترداد النعم ، ازداد الحاسدون له بالمكروه والنقم .

وقد كان داود بن علي — رحمة الله عليه ينشد كثيراً :

---

(١) ثانى هذه الأبيات ينسب لابن الرومى .

(٢) المحفوظ « فالقوم أعداء له وخصوم » .

إنى نشأت وحُسّادى ذوو عدد   ياذا المعارج ، لا تَنْقُص لهم عددا
إن يحسدونى على ما كان من حسن   فمثل خُلُقِىَ فيهم جَرَّ لى حسدى

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، حدثنا مهدى بن سابق ، أخبرنا عباد بن عباد المهلبى قال : قال أبو جعفر المنصور لسفيان بن معاوية : ما أسرع الناس إلى قدمتك المدينة ! فقال : يا أمير المؤمنين :

إن العرانين تلقاها مُحَسّدة   ولن ترى للئام الناس حساد

وأنشدنى الكريزى ، أنشدنى محمد بن الحسين العَمِّى :

حسدوا النعمة لما ظهرت   فرموها بأباطيل الكلم
وإذا ما الله أبدى نعمة   لم يَضِرْها قولُ حساد النعم

سمعت أحمد بن محمد بن الأزهر يقول : سمعت أحمد بن سعيد الدار يقول : سمعت أبا إسحاق الطالقانى يقول : كنا نتعلم فى الكتاب — كما نتعلم أبو جاد[1] — جهلى نيسابورى ، وبخل مروزى ، وحسد هروى ، وطرم[2] بلخى

أنبأنا محمد بن عثمان العقبى : حدثنا عمران بن موسى بن أيوب ، حدثنى أبى عن مخلد بن الحسين ، عن هشام ، عن ابن سيرين قال : ماحسدت أحداً على دين ولا دنيا .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لايوجد من الحسود أمان أحْرَزُ من البعد منه ؛ لأنه مادام مشرفا على ماخصصت به دونه لم يزده ذلك إلا وحشة وسوء ظن بالله ، ونماء للحسد فيه .

فالعاقل يكون على إماتة الحسد بما قدَر عليه أحرصَ منه على تربيته ولا يجد لإماتته دواء أنفع من البعاد ، فإن الحاسد ليس يحسدك على عيب فيك ، ولا على

---

(١) أبو جاد ، أو أبا جاد : حروف الهجاء .
(٢) الطرم : من التطرم وهو الالتياث فى الكلام.

خيانة ظهرت منك ، ولـكن يحسدك بمـا ركب فيه من ضد الرضا بالقضاء كما قال العتبي :

أفـكر ماذنبي إليك فلا أرى لنفسيَ جرماً ، غير أنك حاسدُ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

ليس للحاسـد إلا ما حَسدْ وله البغضاء من كل أحد

وأرى الوحـدة خـيراً للفتى من جليس السوء فانهض إن قعدْ

وأنشدني محمد بن نصر المديني لحبيب بن أوس :

وإذا أراد الله نشر فضـيلة طويت أتاح لها لسانَ حسود

لولا اشتعال النـار فيما جاورت ما كان يعرف طيبُ عَرْفِ العود(١)

لولا التخوف للعواقب لم تزل للحاسـد النُّعْمَى على المحسود

أنبأنا محمد بن المنذر ، حدثنا يحيي بن أبي طالب ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا حماد عن حميد قال: قلت للحسن : يا أبا سعيد ، هل يحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بني يعقوب ؟ لا أبا لك ! حيث حسدوا يوسف ، ولـكن غُمَّ الحسد في صدرك ، فإنه لا يضرك ، مالم يعدُ لسانك وتعمل به يدك .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : العاقل إذا خطر بباله ضربٌ من الحسد لأخيه أبلغ المجهود في كتمانه ، وترك إبداء ماخطر بباله .

وأكثر مايوجد الحسد بين الأقران ، أو من تقارب الشكل ، لأن الـكتبة لايحسدها إلا الـكتبة ، كما أن الحجبة لايحسدها إلا الحجبة ، ولن يبلغ المرء مرتبة من مراتب هذه الدنيا إلا وجد فيها مَنْ يبغضه عليها ، أو يحسده فيها ، والحاسد خصم معاند لايجب للعاقل أن يجعله حكما عنـد نائبة تحدث ، فإنه إن حـكم لم يحكم إلا عليه . وإن قصد لم يقصد إلا له ، وإن حرم لم يحرم إلا حَظَّه ، وإن

(١) العرف ــ بالفتح ــ الريح الطيبة ، والعود : أراد به العود الذي يتبخر به .

أعطى أعطى غيره ، وإن قعد لم يقعد إلا عنه ، وإن نهض لم ينهض إلا إليه ، وليس للمحسود عنده ذنب إلا النعم التي عنده .

فليحذر المرء ماوصفت من أشكاله وأقرانه وجيرانه وبني أعمامه .

وقد أنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابي ، حدثنا العباس بن بكار قال : قال رجل لشبيب بن شَبَّة : إني لأحبك ، قال : صدقت ، قال : وما علمك ؟ قال : لأنك لست بجار ولا ابن عم .

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي .

أنت امرؤ قصَّرت عنه مروءته إلا من الغِش للاخوان والحسد
أأنْ تراني خيراً منك تحسدني ؟ إن الفضيلةَ لا تخلو من الحسد

قال أبو حاتم رضي الله عنه : بئس الشعار للمرء الحسد ، لأنه يورث الكمد ، ويورث الحزن ، وهو داء لا شفاء له .

والحاسد إذا رأى بأخيه نعمة بُهت ، وإن رأى به عثرة شمت ، ودليل مافي قلبه كمين على وجه مبين ، وما رأيت حاسداً سَالَمَ أحداً .

والحسد داعية إلى النكد ، ألا ترى إبليس ؟ حسد آدم فكان حسده نكدا على نفسه ، فصار لعيناً بعد ما كان مكيناً[1] ، ويسهل على المرء ترضِّي كل ساخط في الدنيا حتى يرضى ، إلا الحسود ؛ فإنه لايرضيه إلا زوال النعمة التي حَسَدَ من أجلها .

---

(١) لست أدري : علام أقام القائلون بمكانة إبليس : قولهم ؟ فمنهم من زعمه كان طاوس الملائكة ، ومنهم من زعمه ، كان زينة ساكني الجنة ، وغير ذلك من مقالاتهم . وهذا كتاب الله واضح الآيات وصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلوة الصفحات ، لانجد في شيء من ذلك على شيء مما قالوه عن إبليس ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ وأعتقد أن للاسرائيليات يداً طائلة في تلك النعوت التي خلعوها على إبليس . وكل ذلك من علم الغيب الذي لا ينبغي أن تنطق فيه إلا بكتاب الله ، أو بالصحيح الثابت من حديث رسول الله . والله أعلم .

ولقد حدثني محمد بن عثمان العقدى[1] حدثنا محمد بن زكريا الغلابى، حدثنا ابن عائشة قال: قال بعض الحكماء: ألزمُ الناس للكآبة أربعةٌ: رجل حديد، ورجل حسود، وخليط للأدباء وهو غير أديب، وحكيم محتقر للأقوام، وأبعد الناس من الدخول فى دين الحق والنصيحة لأهله: جاهل ورث الضلالة عن أهله، ورأس أهل ملته حظى فيهم بفضل الضلالة، ومعظِّم للدنيا يرى بهجتها دائمة محبوبة، ويرى مارجى من خيرها قريباً، وماصرف من شرها بعيداً، ليس يعقد قلبه على الإيمان، ورجل خالط النسَّاك فانصرف عنهم لحرصه وشَرَهه، ودامجهم على مكر وخديعة.

ذكر الحث على مجانبة الغضب وكراهية العجلة

أنبأنا عمر بن حفص البزار بجنديسابور، حدثنا محمد بن زياد الزيادى، حدثنا الفضيل بن عياض عن سليمان عن أبى صالح عن أبى هريرة أن جابراً قال «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: علمنى شيئاً يا رسول الله أدخل به الجنة، ولا تُكثِرُ علىَّ، لعلى أعقِلُ، قال: لا تغضب»

قال أبو حاتم رضى الله عنه: أحسن الناس عقلا مَن لم يَحْرَد، وأحضر الناس جواباً من لم يغضب.

وسرعة الغضب: أنكى فى العاقل من النار فى يَبَس العَوْسَج؛ لأن من غضب زايله عقله، فقال: ما سوَّلت له نفسه، وعمل ما شانه وأرداهُ.

ولقد انبأنا محمد بن عثمان العقدى[1]، حدثنا إسحاق بن زكرياء البنانى حدثنا عبد الصمد بن حسان، حدثنى وهيب قال: مكتوب فى الإنجيل: ابن آدم، اذكرنى حين تغضب، أذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق؛ وإذا ظُلِمْتَ فلا تنتصر، فإن نُصرتى لك خير من نصرتك لنفسك.

---

(١) فى «نسخة العقبى».

وأنشدنى الكريزى :

ولم أر فضلاً تمَّ إلا بشيمة ولم أر عقلا صحَّ إلا على الأدب

ولم أر فى الأعداء حين اختبرتهم عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب

قال أبو حاتم رضى الله عنه : سرعة الغضب من شيم الحمقى ، كما أن مجانبته من زى العقلاء .

والغضب بذر الندم ، فالمرء على تركه قبل أن يغضب أقْدَرُ على إصلاح ما أفسد به بعد الغضب .

ولقد أنبأنا محمد بن إسحاق الثقفى ، حدثنا حاتم بن الليث الجوهرى ، حدثنا بكار بن محمد قال : كان ابن عون لا يغضب ، فإذا أغضبه إنسان قال : بارك الله فيك ! .

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطى :

لم يأكل الناسُ شيئاً من مآكلهم أحلى وأحمدَ عقباهُ من الغضبِ

ولا تلحّف إنسان بملحفة أبهى وأزينَ من دين ومن أدب

أنبأنا كامل بن مكرم ، حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا ضمرة عن أبى سعيد قال : كان عون بن عبد الله بن عتبة إذا غضب على غلامه قال : ما أشبهك بمولاك ! أنت تعصينى وأنا أعصى الله ، فإذا اشتد غضبه قال : أنت حر لوجه الله .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل إذا ورد عليه شىء بضد ماتهواه نفسه أن يذكر كثرة عصيانه ربّه ، وتواتر حلم الله عنه ثم يسكن غضبه ولا يُزْرى بفعله الخروج إلى مالا يليق بالعقلاء فى أحوالهم ، مع تأمل وفور الثواب فى العقبى بالاحتمال ونفى الغضب .

وأنشدنى الأنصارى :

وكظميَ الغيظَ أولى من مُحاولتى غيظَ العدوّ بإضرارى بإيمانى

لا خيرَ فى الأمر تُردينى مغبته يوم الحساب إذا ما نصَّ ميزانى

أنبأنا محمد بن المنذر ، حدثنا عمر بن على بن زياد العنبرى قال : سمعت سالم ابن ميمون الخواص يقول :

إذا نطق السفيه فلا تُجِبْه فخير من إجابته السكوتُ
سكتُّ عن السفيه فظنَّ أنى عييت عن الجواب ، وما عييتُ
شرارُ الناس لو كانوا جميعاً قذًى فى جوف عينى ما قَذِيتُ
فلست مجاوباً أبداً سفيهاً خزيت لمن يجافيه خزيتُ

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

تأنَّ فى أمرك ، وافهمْ عنى فليس شىء يعدلُ التأنى
تأنّ فيه ، ثم قل ، فإنى أرجو لك الإرشاد بالتأنى

أخبرنى محمد بن أبى على الخلادى ، حدثنا عبد الله بن جعفر الزبيرى عن سعيد بن إبراهيم بن محمد بن طلحة ، قال أنشدنى يونس بن إبراهيم بن محمد بن طلحة لمحمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله .

فلا تعجلْ على أحدٍ بظلم فإن الظلم مرتعُهُ وخيمُ
ولا تفحش ، وإن مُلّيت غيظا على أحد ، فإن الفحش لُوم
ولا تقطع أخاً لك عند ذنب وإن الذنب يغفره الكريم
ولكن دارى عوراهُ برفق كما قد يُرْقَعُ الخَلَقَ القديم
ولا تجزع لريب الدهر واصبر فإن الصبر فى العقبى سليم
فما جَزَعٌ بمُغْنٍ عنك شيئاً ولا مافات تَرْجِعُه الهموم

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لو لم يكن فى الغضب خصلة تذم إلا إجماع الحكماء قاطبة على أن الغضبان لا رأى له لكان الواجب عليه الاحتيال لمفارقته بكل سبب .

والغضبان لا يعذره أحد فى طلاق ولاعتاق . ومن الفقهاء من عَذَرَ السكران فى الطلاق والعتاق ، والخلق مجبولون على الغضب والحلم معاً ، فمن غضب وحلم فى نفس الغضب ؛ فإن ذلك ليس بمذموم ، ما لم يخرجه غضبه إلى المكروه من القول والفعل ، على أن مفارقته فى الأحوال كلها أحمد .

ولقد أنبأنا عمر بن محمد حدثنا الغلابى حدثنا مهدى بن سابق عن عطاء قال : قال عبد الملك بن مروان : إذا لم يغضب الرجل لم يحلم ؛ لأن الحليم لا يعرف إلا عند الغضب .

ذكر الزجر عن الطمع إلى الناس

أنبأنا محمد بن أحمد بن المستنير بالمصيصة حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم حدثنا خالد بن عمرو عن سفيان عن أبى حازم عن سهل بن سعد قال « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، علمنى عملا إذا أنا عملته أحبنى الله ، وأحبنى الناس ؛ فقال : ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل ترك الطمع إلى الناس كافة بكمال الإياس عنهم ؛ إذ الطمع فيما لا يشك فى وجوده فقر حاضر ، فكيف بما أنت شاك فى وجوده أو عدمه ؟

ولقد أحسن الذى يقول :

لأجعلنَّ سبيل اليأس لى سُبُلا ... ما عشت منك ، ودارَ الهمّ أوطانا
والصبرُ أجعله غرماً أنال به ... فى الناس قرباً ، وعند الله رضوانا
فالنفس قانعة ، والأرضُ واسعة ... والدار جامعة مثنى ووُحدانا

وأنشدنى عمرو بن محمد بن عبد الله النسائى قال : أنشدنى الحسين بن أحمد ابن عثمان :

اليأسُ أدبنى ورفَّع همتى ... واليأس خير مؤدب للناس
إنى رأيت مواضع الطمع الذى ... يضع الشريف مواضع الأخساس

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :(١)

فأجمعت يأساً لا لُبانة بعده ... ولليأس أدنى للعفاف من الطمع
والنفس تطمع هشة إن أطمعت ... وتنال باليأس السلوّ فتقنع

أنبأنا محمد بن عثمان العقبي(٢) حدثنا يزيد بن عبد الصمد حدثنا يحيى بن صالح حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن سعد بن عمارة أنه لما قال لابنه : يا بنى ، أظهر اليأس فإنه غنى ، و إياك والطمع فإنه فقر حاضر .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أشرف المنى ترك الطمع إلى الناس إذ لا غنى لذى طمع وتارك الطمع يجمع به غاية الشرف ، فطوبى لمن كان شعار قلبه الورع ولم يعم بصره بالطمعُ .

ومن أحب أن يكون حراً فلا يهوى ما ليس له ؛ لأن الطمع فقر ، كما أن اليأس غنى ، ومن طمع ذل وخضع ، كما أن من قنع عف واستغنى .

ولقد أنشدنى الكريزى :

لا خير فى عزم بغير روية ... والشك عجز ، إن أردت سراحا
واليأس مما فات يعقب راحة ... ولرب مطمعة تعود ذباحا

وأنشدنى على بن محمد البسامى :

فكنت لى أملا دهراً أطالبه ... فغيرته صروف الدهر أطوارا
صرفت باليأس عنه النفس فانصرفت ... فما أبالى أقام الدهر ، أم سار

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل حدثنا عبد الله بن أبى شيبة حدثنا عبد الله بن مروان حدثنا محمد بن هانىء الطائى قال : بعث أبو الأسود الديلى إلى جار يقترض

(١) البيتان الآتيان ليسا من بحر واحد ولا روى واحد لذلك فصلناهما .
(٢) أنظر ص ١٣٨ السابقة .

منه ، فلم يقرضه واعتل عليه ، وكان حسن الظن به ، فقال أبو الأسود :

لا تشعرن النفس يأساً ، فإنما يعيش بجـد عاجز وجليـد
ولا تطمعن فى مال جار لقربه فكل قريب لا ينـال بعيد
وفوض إلى الله الأمور ، فإنما يروح بأرزاق العبـاد جدود

أنبأنا القطان بالرقة حدثنا المروزى قال : سمعت أحمد بن حنبل يقول : سمعت ابن السماك يقول : الرجاء حَبْل فى قلبك ، وقيدٌ فى رجلك ، فأخرج الرجاء من قلبك ينفكّ القيد من رجلك .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الطمع غُدَّة من قلب المرء له طرفان : أحدهما : القيد فى رجليه ، والآخر : الطبع على لسانه ، فما دامت العقدة قائمة لا تنفكّ رجلاه ، ولا ينطق لسانه ، فإذا أخرج الطمَع من قلبه انفكّ القيد من رجليه ، وزال الطبع عن لسانه ، فسعى إلى ماشاء ، وقال ما أحب .

ودواء زوال الطمع عن القلب : هو رؤية الأشياء من مكونها بدوام الخَلْوة ، وترك الناس كما أنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

كُنْ لقعر البيت حِلْساً وارض بالوحدة أنسـا[1]

---

(١) إن من يلزم قعر البيت ليكون حلساً ـ والحلس : الفراش المهين من خيش ونحوه ، يكون تحت الفراش القيم ، من نحو البسط والنمارق ، وهو أيضاً : ما يلى ظهر الفرس أو البعير تحت السرج والرحل ـ لا بد أن يكون مهيناً حقيراً ، عالة على الناس ، معطلا عن العمل والكسب ، فاراً من ميدان الكدح والجهاد فى الحياة . بسنن الله العليم ، ولذلك جرى على ألسنة العرب : « فلان حلس بيته » على الذم ، يعنون أنه لا يصلح إلا للزوم البيت ، كما قال فى لسان العرب . ومثل هذا لايحبه الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن أن هذا لا يقطع جذور داء الطمع ، بل يزيده تأصلا ، وتمكناً فى النفس ، بماتلزمه الحياة وشئون العيش اللازم فيها إلى مافى أيدى العاملين الكادحين ، بل ويولد فيه ـ زيادة عن الطمع ـ الحسد والحقد على المجتمع كله ، وما نبتت رءوس شياطين الفتن فى المجتمع ، والثورة على النظم =

لستَ بالواجد حُرًّا أو ترد اليوم أمسا
فاغرس اليأس بأرض الزُّهد ما عُمِّرْت غرسا
وليكن يأسُك دون الطمع الكاذب تُرسا

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يجتنب الطمع إلى الأصدقاء ؛ فإنه مَذَلَّة ، ويلزم اليأس عن الأعداء ؛ فإنه مَنجاة ، وتركه مَهْلكة ، والإياس هو بذر الراحة والعز ، كما أن الطمع هو بذر التعب والذل ، فكم من طامع تعب وذل ، ولم ينل بغيته ، وكم من آيس استراح وتعزز ، وقد أتاه ما أمل وما لم يأمل .

وأنشدنى الأبرش :

يَعْرَى ويغرث من أمسى على طَمَعٍ من المكارم وَهْوَ الطاعم الكاسى
إن المطامع ذل للرقاب ، ولو أمسى أخوها مكان السيدِ الراس

وأنشدنى محمد بن إسحق الواسطى :

ألم تعلمى أنى إذا النفس أشرفت على طمع لم أنس أن أتكرما
ولست بلوام على الأمر بعد ما يفوت ، ولكن علىَّ أن أتقدما

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا الفضل بن يوسف الكوفى حدثنا عبد الله ابن جَبَلة الكِنانى عن معاوية بن عمار عن أبى جعفر قال : اليأس عما فى أيدى الناس عز ، ثم قال : أما سمعت قول حاتم الطائى :

إذا ما عزمت اليأس ألفيته الغنى إذا عرفته النفس ، والطَّمَعُ الفقرُ

ذكر الحث على مجانبة المسألة وكراهيتها

حدثنا أبو يزيد خالد بن النضر بن عمرو القرشى بالبصرة حدثنا عبد الواحد ابن غياث حدثنا حماد بن سلمة حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأن يأخذ أحدكم حبلا فيأتى بحُزْمة حَطب فيبيعَها خيرٌ له من أن يسأل الناسَ أعطَوه أو منعوه » .

= والحكومات إلا من جحور وأوكار أولئك الفارين من ميدان الحياة المستقيمة بالجد والنشاط فى حسن الانتفاع بسنن الله وآياته ونعمه، ولكن أكثر الناس لايعلمون.

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل مجانبة المسألة على الأحوال كلها ، ولزوم ترك التعرُّض ؛ لأن الإفكار فى العزم على السؤال يورث المرء مَهانة فى نفسه ، ويَحُطُّه رَتْوة[1] عن مرتبته ، وتركُ العزم على الإفكار فى السؤال يُورث المرء عزًّا فى نفسه ، ويرفعه درجة عن مرتبته .

ولقد أنبأنا محمد بن المنذر حدثنا الفيض بن الخضر التميمى حدثنا عبد الله بن خُبَيق قال : قال موسى بن طريف : إن الحاجة تعرض لى إلى الرجل ، فيُخرِج عِزِّى من قلبى قطعَ الحاجة من ناحيته ، فيرجع عِزّى إلى قلبى .

وأنشدنى الكريزى قال : أنشدنا الحسن بن أحمد لعلى بن الجَهْم :

هى النفس ، ما حَمَّلتها تتحملُ ... وللدهر أيام تجور وتَعْدِل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة ... وأفضلُ أخلاق الرجال التفضل
فلا عارَ إن زالت عن الحرِّ نعمة ... ولكنَّ عاراً أن يزول التجمل

أخبرنا زكرياء بن يحيى الساجى حدثنا عبد الواحد بن غياث حدثنا خالد ابن عبد الله حدثنا داود بن أبى هند عن الشعبى أن عمر بن الخطاب قال « من سأل الناس ليُثْرى ماله ، فإنما هو رَضفٌ[2] من النار يُلْقَمه ، فمن شاء استقلَّ ، ومن شاء استكثر » .

أنبأنا محمد بن سليمان بن فارس الدلال حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا أبو عباد يحيى بن عباد حدثنا شعبة عن قتادة قال : سمعت مطرِّف بن عبدالله يحدث عن حكيم بن قيس بن عاصم عن أبيه أنه أوصى بنيه عند موته ، فقال : يابنى ، إياكم ومسألة الناس ؛ فإنها آخرُ كسب الرجال .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لا يسأل الناس شيئاً فيردوه ، ولا يُلحِف فى المسألة فيحرموه ، ويلزم التعففَ والتكرم ، ولا يطلب الأمر مدبِراً ، ولا يتركه

---

(١) الرتوة : الخطوة الواسعة نحو القفز بشدة .

(٢) الرضف : الحجارة المحماة بالنار .

مُقبِلا ؛ لأن فَوْت الحاجة خيرٌ من طلبها إلى غير أهلها ، وإن من يسأل غير المستحق حاجة حَطَّ لنفسه مرتبتين ، ورفع المسئول فوق قدره .

أخبرنى محمد بن المنذر حدثنا أحمد بن مؤمل المصرى قال : سمعت حامد بن يحيى يقول سمعت سفيان بن عيينة يقول : من يسأل نذلا حاجة فقد رفعه عن قدره

أنشدنى ابن زنجى البغدادى :

ذلُّ السؤال شَجًى فى الحلق معترض　　من دونه شَرَقٌ،من خَلْفِه جَرَض (١)
ماماء كَفِّك إن جادت و إن بخلت　　من ماء وجهى إذا أفنيته عِوضُ

وأنشدنى محمد بن عبد الله المؤدب :

ما اعتاض باذل وجهـه بسؤاله　　عوضاً ، وإن نال الغنى بسؤال
وإذا السؤال مع النَّوال وزَنْتَه　　رجحَ السؤالُ ، وخفَّ كلُّ نوال
وإذا ابتُليتَ ببذل وجهك سائلاً　　فابذُله للمتـكرِّم المفضال

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل حدثنا أبو جعفر ابن ابنة أبى سعيد التغلبى الدمشقى حدثنا حاجب بن أبى علقمة العطاردى قال : سمعت أبى يقول : قال مطرف بن عبدالله بن الشِّخِّير لابن أخيه : يابُنَيَّ أخى ، إذا كانت لك حاجة إلىّ فاكتب بها فى رُقعة ، فإنى أصون وجهك عن ذُلِّ السؤال . وأنشدنى ذلك :

يا أيها المتعبْ بذُلِّ السؤال　　وطالب الحاجات من ذى النوال
لا تحسبنَّ الموت موت البلى　　فإنما الموتُ سؤال الرجال
كلاهما موت ، ولكنَّ ذا　　أعظمُ من ذاك لذُلِّ السؤال

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أعظم المصائب سوء الخلف ، والمسألة من الناس والهمّ بالسؤال نصف الهرم ، فكيف المباشرة بالسؤال ؟ ومن عَزَّت عليه نفسه

---

(١) الشجى : ما يعترض فى الحلق من شوكة ونحوها . والشرق : الغصة بالماء . والجرض : الغصة بالريق ، وهو أن يبتلعه على هم وخوف بجهد ومشقة لجفاف حلقه ، وأكثر ما يكون ذلك عند حضور الموت .

صغُرَت الدنيا فى عينيه ، ولا يَنْبُلُ الرجلُ حتى يَعِفَّ عما فى أيدى الناس ، ويتجاوز عما يكون منهم ، والسؤال من الإخوان مَلال ، ومن غيرهم ضِدُّ النَّوال

وأنشدنى الأبرش :

انبُل بنفسك أن تكون حريصة إن الحريص إذا يُلِحُّ يُهان
من يُكثِر التَّسآل من إخوانه يستثقلوه ، وحظه الحرمان

وأنشدنى على بن محمد البسامى :

أتيت أبا عمرو أرَجِّى عطاءه فزاد أبو عمرو على حزَنى حزنا
فكنت كباغى القَرن أسلم أذنه فبات بلا أذن ، ولم يستفد قرنا

حدثنا محمد بن عثمان العقبى [1] حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندى حدثنا عبد الله بن سليمان قال : كان أَكْثَم بن صَيْفى يقول : السؤال — و إن قَلّ — أثمن من النوال ، و إن جلّ .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا يجب للعاقل أن يبذل وجهه لمن يكرُم عليه قدره ، و يعظم عنده خطره ، فكيف بمن يهون عليه رده ، ولا يكرُم عليه قدره ؟ وأبعد اللقاء للموت ، وأشدُّ منه الحاجة إلى الناس دون السؤال ، وأشدُّ منه التكلف بالسؤال ؛ لأن السؤال إذا كان بنجاح الحاجة مقرونا لم يَخْلُ من أن يكون فيه ذل السؤال ، و إذا الحاجة لم تُقْضَ كان فيه ذلان موجودان : ذل السؤال ، وذل الردّ .

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

لا يحِسُّ الصديق منك بفقر لا ، ولا والد ، ولا مولود
ذاك ذل إذا سألت بخيلا أو سألتَ الذى عليك يجود

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار ببغداد حدثنا على بن الجعد أنبأنا شعبة عن الأعمش قال : سمعت المعرور بن سويد يحدث عن عبد الله قال « إن فى

---

(١) أنظر ص ١٣٨ السابقة .

طلب الرجل الحاجة إلى أخيه فتنة ، إذا أعطاه حَمِد غير الذى أعطاه ، و إن منعه ذم غيْر الذى منعه » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لو لم يكن فى السؤال خَصلة تذمُّ إلا وجود التذلل فى النفس عند الاهتمام بالسؤال و إبدائه لـكان الواجب على العاقل أن لو اضطره الأمر إلى أن يَسْتَفَّ الرمل ويَمُصَّ النَّوَى أن لا يتعرض للسؤال أبدا ما وجد إليه سبيلا ، فأما من دفعه الوقت إلى ذلك فسأل من يعلم أنه يقضى حاجته أو ذا سلطان لم يُحْرَج فى فعله ذلك ، كما لم يحرج فى القبول إذا أعطى من غير مسألة ، ومن استغنى بالله أغناه الله ، ومن تعزز بالله لم يفقره ، كما أن من اعتز بالعبيد أذلّه .

ولقد أنبأنا سعيد بن محمد القزاز حدثنا أبو الهيثم الرازى حدثنا خالد بن يزيد حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف عن معمر قال : قال أبو معاوية ــ رجل من ولد كعب بن مالك ــ : « لقد رأيتنى أنضح [1] أول النهار وأضرب آخر النهار على بطنى بالمعوَل فى المعدن ، قال : قلت : لقد لقيت مؤونة ، قال : أجل إنا طلبنا الدراهم من أيدى الرجال ومن الحجارة ، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا » .

ذكر الحث على لزوم القناعة

حدثنا الحسن بن سفيان الشيبانى حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى حدثنا محمد ابن عبد الرحمن الطفاوى عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر قال « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبى ، فقال : كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » .

---

(١) الناضح : هو الذى يستقى من البئر بالدلو ، وأصله فى البعير ، ويستعمل فى الإنسان على تجوز . وفى نسخة « أنصح » بالصاد المهملة : أى ينصح الناس ويعظهم ، وهو بالضاد المعجمة أقرب إلى مقصد الـكلام .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قد مكثت بُرْهَة من الدهر مُتوَهِّما أن الأعمش لم يسمع هذا الخبر من ليث بن أبى سليم ، فدلسه ، حتى رأيت على بن المدينى حدث بهذا الخبر عن الطفاوى عن الأعمش قال : حدثنى مجاهد ؛ فعلمت حينئذ أن الخبر صحيح ، لاشك فيه ، ولا امتراء فى صحته .

فقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم ابن عمر فى هذا الخبر أن يكون فى الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل ؛ فكأنه أمره بالقناعة باليسير من الدنيا ؛ إذ الغريب وعابر السبيل لايقصدان فى الغيبة الإكثار من الثروة ، بل القناعة إليهما أقرب من الإكثار من الدنيا .

ولقد أخبرنى محمد بن عثمان العقبى[1] حدثنى جعفر بن سنيد بن داود حدثنى أبى حدثنى حجاج حدثنا عتبة بن سالم قال : قال أكثم بن صيفى لابنه : يابنى ، من لم يأسَ على مافاته ودعَ بدنه ، ومن قنع بما هو فيه قرت عينه .

وأنشدنى على بن محمد البسامى :

من تمام العيش ماقرَّتْ به ... عين ذى النعمة ، أثْرَى أو أقل
وقليلٌ أنت مسرور به ... لك خير من كثير فى دَغَل

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى :

أقول للنفس : صبراً عند نائبة ... فعُسر يومك موصولٌ بيسر غد
ماسَرَّنى أنَّ نفسى غير قانعة ... وأن أرزاقَ هذا الخلق تحت يدى

أنبأنا أبو خليفة حدثنا محمد بن كثير أنبأنا سفيان الثورى عن عيسى بن عبد الرحمن عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود قال « أربع قد فرغ منها : الخَلْق ، والخُلُق ، والرزق ، والأجل . وليس أحد بأكسب من أحد » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : من أكثر مواهب الله لعباده وأعظمها خطراً

---

(١) أنظر ص ١٣٨ السابقة .

القناعة ، وليس شيء أروحَ للبدن من الرضا بالقضاء ، والثقة بالقسم ؛ ولو لم يكن فى القناعة خصلة تحمد إلا الراحة وعدم الدخول فى مواضع السوء ، لطلب الفضل لـكان الواجب على العاقل أن لايفارق القناعة على حالة من الأحوال .

ولقد أنبأنا عمر بن حفص بن عمرو البزار حدثنا أبو مسعود حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل حدثنا عبد الله بن إبراهيم المدنى حدثنا أبو بكر بن محمد بن المنكدر عن أبيه » القناعة مال لاينفد » .

سمعت محمد بن المنذر يقول : سمعت عبد العزيز بن عبد الله يقول : قال محمد بن حميد الأكَّاف :

تقنع بالـكفاف ، تعش رَخِيًّا ... ولا تبغ الفضول من الـكفاف
ففى خبز القَفـار[1] بغير أدم ... وفى ماء الفرات غِنيٌ وكاف
وفى الثوب المرقع مايغطَّى ... به من كل عُرى وانـكشاف
وكل تزيُّن بالمرء زين ... وأزينـه التزين بالعفاف

وأنشدنى الـكريزى :

لعمرك ما طول التعطل ضائرى ... ولا كل شغل فيه المرء منفعه
إذا كانت أرزاق فى القرب والنوى ... عليك سواء فاغتنم راحة الدَّعة[2]
و إن ضقت فاصبر يُفرج الله ماترى ... ألا رُبَّ ضِيق فى عواقبه سَعه

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى:

الحمـد لله حمداً دائمـاً أبداً ... لقد تزين أهل الحرص والشين
لازينَ إلا لراضٍ فى تقلله ... إن القَنُوع لَثوب العز والدين

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العـاقل يعلم أن الإنسان لم يوضع على قدر الأحظاء : وأن من عدم القناعة لم يزده المال غنى ، فتمكن المرء بالمال القليل مع

---

(١) القفار : الذى لا إدام معه .

(٢) صدر هذا البيت غير مستقيم الوزن .

قلة الهمِّ أهنأ من الكثير ذى التّبعة ، والعاقل ينتقم من الحرص بالقنوع ، كما ينتصر من العدو بالقصاص ؛ لأن السبب المانع رزقَ العاقل هو السببُ الجالب رزقَ الجاهل .

وأنشدنى محمد بن سعيد القزاز ، أنشدنا محمد بن خلف التيمى ، أنشدنى رجل من خزاعة :

رأيت الغنى والفقرَ حَظَّين قُسِّما فأحرم مُحتالٍ وذو العِىِّ كاسبُ
فهذا مُلِحٌّ دائبٌ غيرُ رابحٍ وهذا مُرِيحٌ رابحٌ غير دائبِ

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

إذا المرء لم يقنع بعيش ، فإنه و إن كان ذا مال من الفقر مُوقَرُ
إذا كان فضل الناس يغنيك بينهم فأنت بفضل الله أغنَى وأيسرُ

أخبرنا أحمد بن سعيد القيسى حدثنا محمد بن الوليد بن أبان حدثنا نعيم بن حماد قال : سمعت ابن المبارك يقول : مروءة القناعة أفضل من مروءة الإعطاء .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : القناعة تكون بالقلب : فمن غنى قلبه غنيت يداه ، ومن افتقر قلبه لم ينفعه غناه ، ومن قنع لم يَتسخَّط ، وعاش آمناً مطمئناً . ومن لم يقنع لم يكن له فى الفوائت نهاية لرغبته ، والجِد والحرمان كأنهما يصطرعان بين العباد .

ولقد أحسن الذى يقول :

فما كُلّ ماحاز الفتى من تلاده بكَيْس ، ولا ما فاته بتَوانِ
فأجْمِل إذا طالبت أمراً فإنه سيكفيكه جَدَّان يصطرعانِ

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابى حدثنا محمد بن عبيد الله الجُشَمى عن المدينى قال : كان يقال : مروءة الصبر عند الحاجة والفاقة بالتعفف والغنى أكثر من مروءة الإعطاء .

وأنشدنى عمرو بن محمد أنشدنا الغلابى أنشدنا ابن عائشة :

غنى النفس يغنى النفس حتى يعفها   وإن مَسَّها حتى بها يَضُرَّ الفقر
وما شدة ، فاصبر لهـا إن لقيتها   بدائمـة إلا سيتبعها يسر

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

فيارُبَّ كُرهٍ جاء من حيثُ لَمْ تخف   ومسرور أمرٍ بالذى أنت خائف
أرى الناسَ مالم تبلُ، إخوانَ ظاهر   وإن تبل تُنْكِرْ جُلَّ ماأنت عارف

أنبأنا محمد بن عثمان العقبى حدثنا إبراهيم بن مهدى الأبلى حدثنى محمد بن يحيى بن أبى عمر قال : سمعت سفيان بن عيينه ـ وذكر عنده الفضل ابن الربيع وضربلؤه ـ فأنشأ سفيان يقول :

كم من قوىٍّ قويٍّ فى تقلبه   مُهَذَّبِ الرأى عنه الرزقُ منحرف
ومن ضعيف ضعيفِ العَقْل مُختلطٍ   كأنه من خليج البحر يغترف

قال أبو حاتم رضى الله عنه : من نازعته نفسه إلى القَنوع ، ثم حسد الناس على مافى أيديهم فليس ذلك لقناعة ولا لسخاوة ، بل لعجز وفشل ؛ فمثله كمثل حمار السوء الذى يَعْرَج بخِفَّة حمله ، ويحزن إذا رأى العلف يُؤْثَر به ذو القوة والحمل الثقيل ، فالقـانع الكريم أراح قلبه و بدنه والشَّرِه اللئيم أتعب قلبه وجسمه ، والكرام أصبر نفوساً ، واللئام أصبر أجساداً .

وأنشدنى عمرو بن محمد أنشدنا الغلابى :

لعمركَ ما الأرزاق من حِيلة الفتى   ولا سبب فى ساحة الحىِّ ثاقب
ولكنها الأرزاق تُقْسَم بينهم   فما لك منها غير ماأنت شارب

وأنشدنى محمد بن سعيد أنشدنى هلال بن العلاء الباهلى :

تجمل إذا ما الدهر أولاكَ غِلظة   فإنَّ الغنى فى النفس ، لا فى التمول
يزين لئيمَ القوم كثرة ماله   ومازَين الأقوامَ مثل التجمل

حدثنا الحسين بن سفيان حدثنا عبد العزيز بن منيب حدثنا محمد بن يحيي الصائغ قال : قال الخليل بن أحمد :

إن لم يكن لك لحمٌ كفاكَ خَلٌّ وزيتُ
إن لا يكن ذا وهـذا فـكِسْرةٌ وبُيَيْت
تَظَلُّ فيـه وتأوى حتى يجيئكَ موت
هـذا لعمرى كفافٌ فلا يَغُرُّكَ ليتُ

أنبأنا كامل بن مكرم حدثنا محمد بن مروان البيروتى حدثنا أبو مسهر حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن محمد بن كعب القرظى فى قوله تعالى (١٦ : ٩٧ فلنحيينه حياة طيبة) قال : القناعة

ذكر الحث على لزوم التوكل على من ضمن الأرزاق

أنبأنا زكريا بن يحيى بن عبد الرحمن الساجى بالبصرة أنبأنا أبو الربيع الزهراني حدثنا المقرىء حدثنا حيوية بن شريح وابن لهيعة قالا : حدثنا أبو هانىء حميد بن هانى الخولاني قال سمعت أبا عبد الرحمن الحُبُلى يقول : سمعت عبد الله ابن عمرو بن العاص يقول : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « قدَّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسمائة سنة » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزوم التوكل على من تكفَّل بالأرزاق ؛ إذ التوكل هو نظام الإيمان ، وقرين التوحيد ، وهو السبب المؤدى إلى نفى الفقر ووجود الراحة ، وما توكل أحد على الله جل وعلا من صحة قلبه حتى كان الله جلَّ وعلا بما تضمَّن من الكفالة أوثقَ عنده بما حوته يده إلا لم يَكِلْه الله إلى عباده ، وآتاه رزقَه من حيث لم يحتسب .

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

توكل على الرحمن فى كل حاجة أردتَ ؛ فإن الله يقضى ويقدر

متى ما يُرِد ذو العرش أمراً بعبده　يُصِبْهُ ، وما للعبد ما يتخيّر
وقد يهلك الإنسان من وجه أمْنه　وينجو بإذن الله من حيث يحذر

وأنشدني على بن محمد البسامى :

أحسن الظن بمن قد عوّدكْ　كل إحسان ، وسوّى أوَدكْ[١]
إن من قد كان يكفيك الذى　كان بالأمس سيكفيك غدكْ

أنبأنا محمد بن الحسن قتيبة بعسقلان حدثنا أبو مروان الأزرق حدثنا الوليد عن بن جابر عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال « إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله » .

أنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

لو كان فى صخرة فى البحر راسية　صمّاء ململمة مُلْسٍ حواليها
رزقٌ لعبد بَرَاه الله لا نفلقتْ　حتى تؤدّى إليه كلَّ ما فيها[٢]
أو كان بين طِباق السبع مَطْلبه　يوماً لسهّل فى المرْقَى مراقيها
حتى ينال الذى فى اللوح خُطَّ له　إن هُو أتاه ، وإلا فهْوَ آتيها

وأنشدني منصور بن محمد الكريزى أنشدنى محمد بن الحسين العَمّى :

سل الحاجاتِ من سيد　ليس له سِتر ولا حاجبُ
يُعطى عطاياه إذا شاءها　من غير توقيع إلى كاتبِ

حدثنا محمد بن الحسين بن الخليل بنَسَا حدثنا القطواني حدثنا سنان حدثنا رياح القيسى قال « إن لله ملائكة موكلين بأرزاق بنى آدم ، يحملون أرزاقهم على درجاتهم ، ثم قال : أيما عبد من عبادى جعل همّه همًّا واحداً فضمنوا السموات والأرضين وبنى آدم رزقه ، وأيُّ عبد طلب رزقه أعطوه رزقه حيث

---

(١) الأود ـ بفتح الهمزة والواو ـ العوج .

(٢) براه الله : خلقه ، وأصله « برأه » خفف الهمزة بقلبها ألفا .

أراده ، فإن تحرّى مكاسبه بالعدل فطيِّبوا رزقه ، وإن تعدى إلى الحرام فليأخذه من هواه إلى غاية درجته التى ليس فوقها ، ثم حولوا بينه و بين سائر الدنيا ؛ فلا يأخذن من حلالها ولا من حرامها فوق الدرجة التى كُتبت له » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يعلم أن الأرزاق قد فُرِغ منها وتضمنها العلىُّ الوفى على أن يُوفرها على عباده فى وقت حاجتهم إليها ، والاشتغالُ بالسعى لما تضمن وتكفل ليس من أخلاق أهل الحزم إلا مع انطواء صحة الضمير ، على أنه و إن لم يسع فى قصده أتاه رزقه من حيث لم يحتسب .

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطى :

لما رأيتُك قاعداً مستقبلى ... أيقنت أنك للهموم قرينُ
فارفض لها وتعرَّ عن أثوابها ... إن كان عندك للقضاء يقين
هوّن عليك ، وكن بربِّك واثقا ... فأخو التوكل شأنه التهوين
طَرَحَ الأذى عن نفسه فى أمره ... من كان يعلم أنه مضمون

حدثنا أبو خليفة حدثنا محمد بن كثير أنبأنا سفيان الثورى عن أبى قيس عن هذيل بن شرحبيل قال « جاء سائل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى البيت تمرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هاك ، ولولم تأتها أتتك » .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى :

فنحن بتوفيق الإله وأمره ... على كل حال أمرُنا متوسعُ
عطاء مليك لايمنُّ عطاؤه ... خبير بما تُحْنَى عليه الأضالع

أنبأنا محمد بن إبراهيم الشافعى حدثنا داود بن أحمد الدمياطى حدثنا عبدالرحمن بن عفان قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول : ماهتممت برزق قط

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يعلم أن السبب الذى يدرك به العاجز حاجته هو الذى يحول بين الحازم و بين مصادفته ، فلا يجب أن يحزن العاقل لما يهوى وليس بكائن ، ولا لما لايهوى وهو لا محالة كائن ؛ فما كان

من هذه الدنيا أتى المرء من غير تعب فيه ، وما كان عليه لم يدفعه بقوته ، ولا يُدْرِكُ بالطلب المحروم ، كما لا يُحْرَم بالقعود المرزوق .

ولقد أحسن الذى يقول :

ينالُ الغنى مَنْ ليس يسعى إلى الغنى ويحرم مَنْ يسعى له ويداوم
وما العجز يحرمْهُ ولا الحِرص جالب وما هو إلا حظوة ومقاسم

وأنشدنى عمرو بن محمد الأنصارى أنشدنا الغلابى أنشدنا العتبى :

ورزق الخلق مقسوم عليهم مقاديرٌ يقدرها الجليلُ
فلا ذو المال يُرْزَقُه بعقل ولا بالمال تقتسم العقول

أنبأنا الهيثم بن خلف الدورى ـ ببغداد ـ قال : سمعت إسحاق بن موسى الأنصارى يقول : سمعت يمان النجرانى ـ وكان لايدخر شيئاً ـ يقول : مررت براهب فى قارعة فلاة من الأرض ، وأنا جائع ، فقلت : ياراهب ، هل عندك من فضل ؟ فأدلى إلىّ زنبيلا فيه فِلَقٌ من خبز فأكلت منها ، ورميت إليه الباقى ، فقال : تزوده ، قلت : الذى أطعمنى فى هذا الموضع ، وليس فيه إنسى ، يطعمنى إذا جعت ولا يكون معى شىء .

وأنشدنى بن زنجى البغدادى :

لا تتهم ربك فيما قضى وهون الأمر ، وطب نفسا
لكل هَمّ فَرَج عاجل يأتي على المُصْبَح والمُمسَى

قال أبو حاتم رضى الله عنه : التوكل هو قطع القلب عن العلائق ، برفض الخلائق ، وإضافته بالافتقار إلى محول الأحوال ، وقد يكون المرء موسراً فى ذات الدنيا وهو متوكل صادق فى توكله إذا كان العدم والوجود عنده سِيَّيْنِ لا فرق عنده بينهما ، يشكر عند الوجود ، ويرضى عند العدم ، وقد يكون المرء لايملك شيئاً من الدنيا بحيلة من الحيل ، وهو غير متوكل إذا كان الوجود أحبَّ إليه من العدم ، فلا هو فى العدم يرضى حالته ، ولا عند الوجود يشكر مرتبته .

وأنشدنى الكريزى :

فلو كانت الدنيا تُنال بفطنة وفضل عقول نلتُ أَعْلَى المراتب
ولكنما الأرزاق حَظّ وقسمة بملك مليك ، لا بحيلة طالب

وأنشدنا عمرو بن محمد الأنصارى أنشدنا الغلابى أنشدنا مهدى بن سابق :

ألا ترى الدهر لا تفنى عجائبه والدهر يخلط ميسوراً بمعسور ؟
وليس للّهو إلا كل صافية كأنها دمعة من عين مهجور

أنبأنا على بن سعيد العسكرى حدثنا إبراهيم بن الجنيد حدثنا سهل بن عاصم حدثنا نافع بن خالد قال : دخلنا على رابعة العدوية ، فذكرنا أسباب الرزق ، فخضنا فيه وهى ساكتة ، فلما فرغنا قالت رابعة : خيبةً لمن يدعى حُبّه ثم يتهمه فى رزقه !

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قد ذكرت هذا الباب بالعلل والحكايات على التقصى فى كتاب « التوكل » فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب .

ذكر الحث على لزوم الرضا بالشدائد والصَّبر عليها

أنبأنا أحمد بن على بن المثنى بالموصل ، حدثنا أحمد بن جميل المروزى ، حدثنا ابن المبارك أنبأنا عمر بن حبيب عن القاسم بن أبى بزة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول ما خلق الله القلم ، ثم أمره فكتب ما يكون إلى يوم القيامة » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يوقن أن الأشياء كلها قد فُرِغ منها ، فمنها ما هو كائن لامحالة ، وما لايكون فلا حيلة للخلق فى تكوينه فإن دفعه الوقت إلى حال شدة يجب أن يَتّزر بإزار له طرفان ، أحدهما : الصبر ، والآخر : الرضا ، ليستوفى كمال الأجر لفعله ذلك ، فكم من شِدَّة قد صَعُبت وتعذر زوالها على العالم بأسره ، ثم فرج عنها السهل فى أقل من لحظة .

ولقد أنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطى :

كم مِنْ أمرٍ قد تضايقتُ به   فأتاني الله منه بالفرج
ولعبدٍ مؤيس قربه   قَدَّرَ الله ، فعاد بالنَّهج
فله الحمد على ذى سرمدا   ما أضاء الصبح يوماً وبَلَج
وكذاك الله ربٌّ قادر   يُصلح الأمر الذى فيه عوج
وله الحمد على آلائه   يستديم اليسر منه والفَلَج [(١)]

حدثنا أبو خليفة حدثنا محمد بن كثير أنبأنا سفيان عن أبى إسحاق عن أبى الحجاج الأزدى قال : سألنا سلمان : ما الإيمان بالقدر ؟ قال : إذا علم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه [وما أخطأه لم يكن ليصيبه]

وأنشدنى الأبرش :

هَوّن على نفسك من سعيها   فليس ما قُدِّر مردود
وارْضَ بحكم الله فى خلقه   كل قضاء الله محمود

أنبأنا عبد الله بن قحطبة الطرحى حدثنا منصور بن قدامة الواسطى حدثنا محمد بن كثير عن معمر قال : لما حاصر الحجاجُ ابنَ الزبير بمكة جعلت الحجارة تضرب الحائط ، فقيل له : لا نأمن عليك أن يصيبك منها حجر ، فقال ابن الزبير :

هون عليك ، فإن الأمور   بكفِّ الإله مقاديرها
فليس بآتيك منهيها   ولا قاصرٍ عنك مأمورها

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارى حدثنا الغلابى حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادى حدثنا سفيان عن مسعر : أن رجلا ركب البحر ، فكسر به ، فوقع فى جزيرة من جزائر البحر ، فمكث فيها ثلاثا لا يرى أحداً ، ولا يأكل طعاماً ، ولا يشرب شرابا ، فأيس من الحياة ، فتمثَّل :

إذا شاب الغراب أتيتُ أهلى   وصار القارُ كاللبن الحليب

---

(١) الفلج : الفوز .

فأجابه مجيب يقول :

عسى الـكربُ الذى أمسيتَ فيه ... يكون وراءهُ فرج قريب

فنظر ، فإذا سفينة فى البحر ، فلوَّح لهم ، فأتوه ، فحملوه ، وأصـاب معهم خيراً ، ورجع إلى أهله سالماً .

وأنشدني محمد بن جعفر الهمذانى ـ بصور ـ على ساحل بحر الروم :

لاتضيقنَّ فى الأمور فقد تُـكـ ... ـشف غمـاؤها بغير احتيال

ربما تكره النفوس من الأمـــر ، له فُرجـة كحَلِّ العِقال

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصارى :

عسى فرج يأتى به الله ؛ إنه ... له كلَّ يوم فى خليقتـه أمرُ

عسى ماترى أن لايدوم ، وأن ترى ... له فرجاً مما ألحّ به العُسْرُ

إذا اشتد عُسر فارْجُ يُسْرًا ؛ فإنه ... قضى الله أن العسر يتبعه اليسر

أنبأنا محمد بن صالح الطبرى بالصيمرة حدثنا محمد بن عثمان العجلى قال : لمـا حدث شريك بحديث الأعمش عن سلمان عن ثوبان : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اسقيموا لقريش ما استقاموا لـكم ، فإذا خالفوكم فضعوا سيوفـكم على عواتقكم ، فأبيدوا خضراءهم ، فإن لم تفعلوا فـكونوا زراعين أشقياء » فسعى به إلى المهدى ، فبعث إلى شريك ، فأتاه ، فقال : حدثت بها ؟ قال : قلت : نعم قال : عمن رويتها ؟ قلت : عن الأعمش ، قال : ويلى عليه ؟ لو عرفت مكان قبره لأخرجته فأحرقته بالنار ، قلت : إن كان لمأمونا على ماروى ، قال : يازنديق لأقتلنك ، قلت : الزنديق من يشرب الخمر ويسفك الدم ، قال : والله لأقتلنك . قلت : أو يكفى الله ! قال : فخرجنا من عنده ، فاستقبلنى الفضل بن الربيع ، فقال : ليس لك موضع تهرب إليه ؟ قلت : بلى ، قال : فإنه قد أمر بقتلك ، قال : فخرجت إلى جبل ، فخرجت يوماً أتجسس الخبر ، فأقبل ملاّح من بغداد ،

فاستقبله ملاح آخر من البصرة ، فسأله : ما الخبر ؟ قال : مات أمير المؤمنين ، قلت : ياملاح قرِّب ، فقرب .

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

تجرى المقادير إن عسراً وإن يُسُرا ... وللمقادير أسبابٌ وأبوابُ
مااشتد عسر ، ولا انسدَّت مذاهبه ... إلا تفتّح من مسروره باب

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

ألاَ رب عسر قد أتى اليسر بعده ... وغَمْرةِ كَرْب فُرِّجت لِكَظيم
هو الدهر يوم ، يوم بؤس وشدة ... ويوم سرور للفتى ونعيم

أنبأنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الوهاب النيسابورى حدثنا بشر بن عبد الحكم عن على بن عثام قال : رأى إبراهيم بن أدهم متنفط الرجلين (١) ، رافعهما على ميل ، وهو يقول (٤٧ : ٣١ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخباركم) .

أنبأنا القطان بالرقة حدثنا أحمد بن أبى الحوارى حدثنا عبد العزيز بن عمير عن عطاء الأزرق عن عبد الواحد بن زيد قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، من أين أُتى هذا الخلق ؟ قال : من قلة الرضا عن الله ، قلت : ومن أين أُوتى قلة الرضا عن الله ؟ قال : من قلة المعرفة بالله .

---

(١) نفطت ـ بكسر الفاء ـ رجله ، وتنفطت : تقرحت من كثرة المشى فى الأرض الصعبة ، وهل كان تنفط رجلى ابن أدهم لكثرة جهد وسعى فى سبيل الله : لجهاد عدو ، أو لطلب علم ، أو لصلة رحم ، أو لأمر بمعروف ، أو لنهى عن منكر ؟ إنما كان ذلك لشدة ما أجهد نفسه فى الجبال والصحارى منقطعا عن الناس ، وفارا من الناس ومن الاختلاط بهم ، وقد أمر الله أولى العلم أن يعاشروا الناس ، لعلهم أن يقيموا من اعوجاجهم أو يصلحوا من فسادهم .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : يجب على العاقل إذا كان مبتدئاً أن يلزم عند ورود الشدة عليه سلوك الصبر ، فإذا تمكن منه حينئذ يرتقى من درجة الصبر إلى درجة الرضا ، فإن لم يرزق صبراً فليلزم التصبر ، لأنه أول مراتب الرضا ، ولو كان الصبر من الرجال لكان رجلا كريماً ، إذ هو بَذْر الخير ، وأساس الطاعات .

ولقد أخبرنى محمد بن سعيد القزاز حدثنا طاهر بن الفضل بن سعيد ، حدثنا سفيان بن عيينة قال : سمعت رجلا من أهل الكتاب أسلم ، قال : أوحى الله إلى داود : ياداود اصبر على المؤنة ، تأتك منى المعونة .

وأنشدنى عبد الله بن الأحوص بن عمار القاضى :

صبراً جميلا على ماناب من حَدَث ... والصبرُ ينفع أحياناً إذا صبروا
الصبر أفضل شىء تستعين به ... على الزمان إذا ما مَسَّكَ الضرر

وأنشدنى إبراهيم بن محمد بن سهل أنشدنى أبو يعلى الموصلى :

إنى رأيت ـ وفى الأيام تجربةٌ ـ ... للصبر عاقبةً محمودة الأثر
وقلَّ من جَدَّ فى شىء يحاوله ... فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وانشدنى عبدالعزيز بن سليمان الأبرش :

أتاك الرَّوح والفرج القريب ... وساعدك القضاء ، فلا تخيب
صبرت ، فنلت عُقْبَى كلِّ خير ... كذاك لكل مصطبر عقيب

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارى حدثنا الغلابى حدثنا محمد بن على قال : سمعت مضر أبا سعيد يقول : قال عبد الواحد بن زيد : ما أحببت أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا ، ولا أعلم درجة أشرف ولا أرفع من الرضا ، وهو رأس المحبة .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الصبر جماع الأمر ، ونظام الحزم ودِعَامة العقل ، و بذر الخير ، وحيلة من لا حيلة له .

وأول درجته الاهتمام ، ثم التيقظ ، ثم التثبت ، ثم التصبر [ثم الصبر]

ثم الرضا ، وهو النهاية فى الحالات .

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقبى[1] حدثنا شعيب بن عبد الله البزار حدثنا غيلان عن معبد عن أبى المليح عن ميمون بن مهران قال « مانال عبد شيئاً من جسم الخير من نبى أو غيره إلا بالصبر » .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى .

فما شدة يوماً ، و إن جَلَّ خطبُها ... بنازلة إلا سيتبعها يسرُ
و إن عسرت يوماً على المرء حاجةٌ ... وضاقت عليه كان مفتاحَها الصبر

وأنشدنى على بن محمد البسامى :

تعزَّ ، فإن الصبر بالحرِّ أجمل ... وليس على رَيْبِ الزمانِ مُعَوّلُ
فإن تكن الأيام فينا تبدَّلت ... بنُعمى و بؤسى ، والحوادث تفعل
فما ليَّنت منَّا قناةً صليبة ... ولا ذلَّلتنا للذى ليس يَجْمُل
ولكن رَحَلناها نفوساً كريمة ... تُحَمَّل مالا تستطيع فتحمل

وأنشدنا عمرو بن محمد الأنصارى أنشدنا الغلابى :

إنى رأيت الخير فى الصبر مسرعاً ... وحسبك من صبر تحوز به أجرا
عليك بتقوى الله فى كل حالة ... فإنك إن تفعل تُصيب به ذخراً

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الصبر على ضروب ثلاثة : فالصبر عن المعاصى ، والصبر على الطاعات ، والصبر عند الشدائد المصيبات .

فأفضلها الصبر عن المعاصى .

فالعاقل يدبر أحواله بالتثبت عند الأحوال الثلاثة التى ذكرناها بلزوم الصبر على المراتب التى وصفناها قبل ، حتى يرتقى بها إلى درجة الرضا عن الله جل وعلا فى حال العسر واليسر معاً ، أسأل الله الوصول إلى تلك الدرجة بمنه .

---

(١) انظر ص ١٣٨ السابقة .

وأنشدنى عبد الله بن الأحوص :

تَعَزَّ بحسن الصبر عن كل هالك ... فقى الصبر مَسلاةُ الهموم اللوازم
إذا أنت لم تسلُ اصطباراً وخشية ... سلوتَ على الأيام مثل البهائم
وليس يذود النفس عن شهواتها ... من الناس إلا كلُّ ماضى العزائم

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى :

غاية الصبر لذيذ طعمها ... وَبَدِيُّ الصبر منه كالصَّبِرْ (١)
إن فى الصبر لفضلا بَيِّنا ... فاحمل النفس عليه تصطبر

وأنشدنى الكريزى :

صبرت ومن يصبرْ يجد غِبَّ صبره ... ألذَّ وأحلى من جَنَى النحل فى الفم
ومن لا يطب نفساً ، و يستبق صاحبا ... و يغفر لأهل الود يُصْرَمْ وَيَصْرِمِ

أنبأنا محمد بن زنجويه القشيرى حدثنا عبد الأعلى عن حماد النرسى حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن معاذة امرأة صلة بن أشيم قالت : « لما أتاها نَعْىُ زوجها وابنها جاءها النساء ، فقالت : إن كنتُنَّ جئتن لتهنئتنا بما أكرمنا الله به و إلا فارجعن » .

قال ثابت : وكان صلة يأكل يوماً فأتاه رجل ، فقال : مات أخوك ، قال : هيهات ، قد نُعى إلى ، اجلس فكل ، قال الرجل : ماسبقنى إليك أحد ، فقال قال الله (٣٩ : ٣٠ إنك ميت و إنهم ميتون) .

حدثنا عمرو بن محمد الأنصارى حدثنا الغلابى حدثنا ابن عائشة قال : كتب بعض الحكماء إلى أخ له يعزيه عن ابن له يقال له محمد :

اصبر لكل مصيبة ، وتجلَّد ... واعلم بأنَّ المرء غيرُ مُخلَّد
و إذا ذكرت محمداً ومصابَهُ ... فاذكر مصابك بالنبى محمد

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

---

(١) الصبر — بفتح فكسر — ثمرة طعامها مر كريه .

يعزِّى المعزى ، ثم يمضى لشأنه ويبقى المعزّى فى أحرّ من الجمر
ويُرمَى المعزّى بعد ذاك بسلوة ويَثْوى المعزّى عنه فى وحشة القبر

وأنشدنى المنتصر بن بلال :

من يسبق السلوة بالصبر فاز بفضل الحمد والأجر
ياعجبى من هلع جازع يُصبحُ بين الذم والوزر
مصيبة الإنسان فى دينه أعظمُ من جائحة الدهر

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

تجرى المقادير إن عُسراً وإنْ يسرا حاذرت واقعَها أو لم تكن حَذِرا
والعسر عن قدَر يجرى إلى يُسْرٍ والصبر أفضل شىء وافَقَ الظفرا

سمعت إسحاق بن أحمد القطان البغدادى بتستر يقول : كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء ، وكان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم ، فقال لى : دخلت يوماً على أحمد بن حنبل ، فإذا هو مغموم مكروب ، فقلت : مالك ياأبا عبد الله؟ قال : خير ، قلت : وما الخير؟ قال : امتُحِنت بتلك المحنة ، حتى ضُربت ، ثم عالجونى ، وبرأت ، إلا أنه بقى فى صُلبى موضع يُوجعنى . هو أشدُّ علىّ من ذلك الضرب ، قال قلت : اكشف لى عن صلبك ، قال : فكشف لى ، فلم أرَ فيه إلا أثر الضرب فقط ، فقلت : ليس لى بذى معرفة ، ولكن سأستخبر عن هذا ، قال : فخرجت من عنده ، حتى أتيت صاحب الحبس ، وكان بينى وبينه فضل معرفة ، فقلت له : أدخل الحبس فى حاجة ؟ قال : ادخل ، فدخلت وجمعت فتيانهم ، وكان معى دريهمات فرقتها عليهم ، وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بى ، ثم قلت : من منكم ضرب أكثر؟ قال: فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضرباً ، وأشدهم صبراً ، قال : فقلت له : أسألك عن شىء ؟ فقال : هات ، فقلت : شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ضرب على الجوع

للقتل سياطًا يسيرة ، إلا أنه لم يمت ، وعالجوه و برأ ، إلا أن موضعاً في صلبه يوجعه وجعاً ليس له عليه صبر ، قال : فضحك ، فقلت : مالك ؟ قال : الذي عالجه كان حائكا ، قلت : إيش الخبر ؟ قال : ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها ، قلت : فما الحيلة ؟ قال : يُبَطُّ [1] صلبه ، وتؤخذ تلك القطعة و يرمى بها ، و إن تركت بلغت إلى فؤاده فقتلته ، قال : فخرجت من الحبس ، فدخلت على أحمد ابن حنبل فوجدته على حالته ، فقصصت عليه القصة ، قال : ومن يبطه ؟ قلت أنا ، قال : أو تفعل ؟ قلت : نعم ، قال : فقام ، فدخل البيت ، ثم خرج و بيده مخدتان ، وعلى كتفه فوطة ، فوضع إحداهما لى والأخرى له ، ثم قعد عليها ، وقال : إستخر الله ، فكشف الفوطة عن صلبه ، وقلت : أرنى موضع الوجع ، فقال : ضَعْ إِصبعك عليه ، فإنى أخبرك به ، فوضعت إصبعى ، وقلت : هاهنا موضع الوجع ؟ قال : ههنا أحمد الله على العافية ، فقلت : ههنا ؟ قال هاهنا أحمد الله على العافية ، فقلت : هاهنا ؟ قال : هاهنا أسأل الله العافية ، قال : فعلمت أنه موضع الوجع ، قال : فوضعت المبضع عليه ، فلما أحس بحرارة المبضع وضع يده على رأسه ، وجعل يقول : اللهم اغفر للمعتصم ، حتى بططته ، فأخذت القطعة الميتة ورميت بها ، وشددت العصابة عليه ، وهو لا يزيد على قوله : اللهم اغفر للمعتصم ، قال : ثم هدأ وسكن ، ثم قال : كأنى كنت معلقاً فأصدرت ، قلت : ياأبا عبد الله ، إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ، ورأيتك تدعو للمعتصم ؟ قال : إنى أفكرت فيما تقول ، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكرهت أن آتى يوم القيامة و بينى و بين أحد من قرابته خصومة . هو مِنِّى فى حِلٍّ .

---

(١) البط : الشق بآلة الجراحة التى هى المبضع .

ذكر الحث فى العفو عن الجاني

حدثنا الفضل بن الحباب الجمحى بالبصرة حدثنا العقبى حدثنا عبد العزيز ابن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال « أتى رجل فقال : يارسول الله ، إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى ، ويسيئون إلى ، وأحسن إليهم ، ويجهلون على ، وأحلم عنهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن كان كما تقول : فكأنما تسفهم الملل [1] ، ولا يزال من الله معك ظهير ما زلت على ذلك » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة ، وترك الخروج لمجازاة الإساءة ، إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسنُ من الإحسان ، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشدُّ من الاستعمال بمثلها .

ولقد أنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

سألزمُ نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه إلىَّ الجرائم

فما الناس إلا واحد من ثلاثة : ... شريف ، ومشروف ، ومثلٌ مقاوم

فأما الذى فوقى : فأعرف فضله ... وأتبع فيه الحَقّ ، والحقُّ لازم

وأما الذى دونى : فإن قال صنت عن ... إجابته عِرضى ، وإن لام لائم

وأما الذى مثلى : فإن زلَّ أو هفا ... تفضَّلتُ ، إن الحلم للفضل حاكم

أنبأنا محمد بن عثمان العقبى [2] حدثنا محمد بن عامر الأنطاكى حدثنا ابن توبة حدثنا محمد بن مهاجر عن يونس بن ميسرة بن جليس قال : ثلاثة يحبهم الله :

---

(١) الملل — بفتح الميم — الرماد الحار تحت الجمر ، يدفن فيه الخبز لينضج . أراد صلى الله عليه وسلم : إنما تجعل الملة لهم سفوفاً يستفؤنه ، يعنى عطاءك وصلتك وإحسانك وحلمك عليهم ، ذلك برد عليك وخير لك ، ونار فى بطونهم .

(٢) انظر ص ١٣٨ السابقة .

من كره سوءاً يأتيه إلى أخيه وصاحبه ، فذلك قَمِنٌ أن يستحى من الله ، ومن كان ذا رفعة من الناس فتواضع لله ، فذلك الذى عرف عظمة الله ، فيخاف مقته ، ومن كان عفوه قريباً من إساءته ، فذلك تقوم به الدنيا .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : من أراد الثواب الجزيل ، واسْتِرهانَ الوُدِّ الأصيل ، وتوقعَ الذكر الجميل ؛ فليتحمل من ورود ثقَلِ الردى ، ويتجرع مرارة مخالفة الهوى ، باستعمال السنة التى ذكرناها فى الصلة عند القطع ، والإعطاء عند المنع ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الظلم ، لأنه من أفضل أخلاق أهل الدين والدنيا .

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر حدثنا ابن أبى شيبة حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون عن داود بن الزبرقان قال : قال أيوب « لا يَنْبُلُ الرجل حتى يكونَ فيه خصلتان : العفة عما فى أيدى الناس ، والتجاوز عنهم » .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

وإذا مذنب أتاه به الحق فغطاه عفوه فى ستوره
راجياً للثواب فى كل رُزْءٍ من خَفِىِّ الأمور ، أو مشهوره
فهو فى عاجل الحياة كريم ومن الفائزين يوم نشوره
خَصْلَة جَزلة بها خصّه الله لزين الدنيا ويوم كروره

أنبأنا محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا عمر بن حفص الشيبانى حدثنا سفيان عن رجل ، قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول « أحب الأمور إلى الله ثلاثة : العفو فى القدرة ، والقصد فى الجِدَة ، والرفق فى العبادة ، وما رَفَق أحد بأحد فى الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة » .

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارى حدثنا الغلابى حدثنا ابن عائشة قال : كتب الحجاج إلى عبد الملك « إنك أعزَّ ماتكون أحوجُ ماتكون إلى الله ، فإذا تعززت بالله فاعفُ ، فإنك به تعز ، وإليه ترجع » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزوم الصفح عند ورود الإساءةعليه من العالَم بأسرهم ، رجاء عفو الله جل وعلا عن جناياته التى ارتكبها فى سالف أيامه ؛ لأن صاحب الصفح إنما يتكلف الصفح بإيثاره الجزاء ، وصاحب العقاب ، وإن انتقم كان إلى الندم أقرب ، فأما من له أخ يوَدُّه فإنه يحتمل عنه الدهر كلهُ زلاتِه .

ولقد أخبرنى محمد بن المنذر حدثنا أحمد بن داود التمار ، قال : سمعت مردويه الصائغ يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : احتمل لأخيك إلى سبعين زَلّة ، قيل له : وكيف ذلك ياأبا على ؟ قال : لأن الأخ الذى آخيته فى الله ليس يزل سبعين زلة .

أنشدنى على بن محمد البسامى :

إذا لم تجاوزْ عن أخ لكَ عَثْرَةً   فلستَ غداً من عثرتى متجاوزا
وكيف يرجيك البعيدُ لنفعه   إذا كان عن مولاك برُّك عاجزا

أنبأنا محمد بن صالح الطبرى حدثنا الرمادى حدثنا الجعفى يحيى بن سليمان حدثنا ابن أبجر حدثنى أبى قال : « أقبل الشعبى يوماً ، فإذا هو برجلين من قومه من وراء جدار قصير ، قال : فاستمع عليهما ، فإذاهما يقعان فيه ويشتمانه ، وينتقصانه [1] حتى أكثرا ، فلما أطالا أشرف عليهما الشعبى ، فقال [2] :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر   لعزةَ من أعراضنا مااستحلت

فقالا : والله ياأبا عمرو ، لانقَعُ فيك بعد اليوم » .

وأنشدنى بعض أهل العلم :

ولربما ابتسم الوقورُ من الأذى   وضميرُه من حَرِّه يتأوه
ولربما خَزَنَ الحليم لسانه   حَذَر الجواب وإنه لمفوه

وأنبأنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم ، أنبأنا عبد الله بن الحسين المصيصى ،

---

(١) فى نسخة « ويستنقصانه »   (٢) البيت لكثير عزة .

أنبأنا يعقوب بن أبى عباد ، قال : قال الفضيل بن عياض : مَنْ طلب أخاً بلا عيب بقى بلا أخ .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أغنى الناس عن الحقد مَنْ عظم عن المجازاة ، وأجلُّ الناس مرتبة من صَدَّ الجهل بالحلم ، وما الفضل إلا لمن يحسن إلى من أساء إليه ، فأما مجازاة الإحسان إحساناً فهو المساواة فى الأخلاق ، فلربما استعملها البهائم فى الأوقات ، ولو لم يكن فى الصفح وترك الإساءة خصلة تحمد إلا راحة النفس ووُداع القلب لكان الواجب على العاقل أن لا يكدِّر وقته بالدخول فى أخلاق البهائم ، بالمجازاة على الإساءة إساءة ، ومن جازى بالإساءة إساءة فهو المسىء ، و إن لم يكن بادئاً .

كما أنشدنى الكريزى :

أسأت ، وأنكرتُ أنى أسأتُ فأفضل ، ولا تك عينَ المسيء
لك الفضل بالعفو عما عفوت و إلا فأنت القرين السوى
وعفوك مقتدراً نعمة وعفو المندد غير الهنى

سمعت محمد بن عثمان العقبى ، قال : سمعت هلال بن العلاء الباهلى يقول : جعلت على نفسى منذ أكثر من عشرين سنة أن لا أكافىء أحداً بسوء ، وذهبتُ إلى هذه الأبيات :

لما عفوتُ ، ولم أحقد على أحد أرحتُ قلبىَ من غَمِّ العداواتِ
إنى أحيى عدوى عند رؤيته لأدفع الشر عنى بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضه كأنما قد حشى قلبى محبات

أنبأنا ابن قتيبة ، حدثنا ابن أبى السرى ، قال : سمعت أبا عمر الصنعانى يقول : حدثنا زيد بن أسلم قال : قال لقمان لابنه « كذب من قال : إن الشر يطفىء الشر ، فإن كان صادقاً فليوقد ناراً إلى جنب نار ، فلينظر هل تطفىء إحداهما الأخرى ؟ و إلا فإن الخير يطفىء الشر ، كما يطفىء الماء النار » .

حدثنى محمد بن أبى على الخلادى ، حدثنا محمد بن خلف البسامى ، حدثنا محمد بن عبد الله الدارى ، حدثنا محمد بن عمران الضبى ، قال : قال ابن السماك : لِنْ لمن يجفوا ، فَقَلَّ من يصفو .

وأنشدنى الأبرش :

توخّ من السبل أوساطها ... وعدّ عن الجائر المشتبه

وسمعك صن عن سماع القبيح ... كصون اللسان عن النطق به

فإنك عند استماع القبيح ... شريك لقائله ، فانتبه

فكم أزعج الحرص من طالب ... فوافى المنية فى مطلبه

أنبأنا عمر بن حفص البزاز بجنديسابور ، حدثنا جعفر بن محمد بن حبيب الذارع حدثنا عبد الله بن رشيد ، حدثنا مجاعة بن الزبير ، قال : قال لقمان لابنه « أى بنى ، أى شىء أقل ؟ وأى شىء أكثر ؟ وأى شىء أحلى ؟ وأى شىء أبرد ؟ وأى شىء آنس ؟ وأى شىء أوحش ؟ وأى شىء أقرب ؟ وأى شىء أبعد؟ قال : أما أقل شىء فاليقين ، وأما أى شىء أكثر فالشك ، وأما أى شىء أحلى فروح الله بين العباد يتحابون بها ، وأما أى شىء أبرد فعفو الله عن عباده ، وعفو الناس بعضهم عن بعض ، وأى شىء آنس حبيبك إذا أُغلق عليك وعليه باب واحد ، وأى شىء أوحش جسد إذا مات ، فليس شىء أوحش منه ، وأى شىء أقرب فالآخرة من الدنيا ، وأى شىء أبعد فالدنيا من الآخرة » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يحسن عند الجفوة ، ويغضى عند المجازاة عليها بمثلها .

وقد قيل : إن من لم يغضب من الجفوة لم يشكر النعمة .

وهو عندى ـ والله أعلم ـ غضب لايخرجه إلى المعاصى : ولا إلى الانتقام من الجانى ، كأنه فى نفسه يعلم محل الجفوة منه ، كما يعقل ورود النعمة عليه ، وما

أقبح قدرة اللئيم إذا قدر ، ومن أساء سمعاً أساء إجابة ، ومن أتى المكروه إلى أحد فبنفسه بدأ ؛ لأن الشرور تبدو صغاراً ثم تعود كباراً .

ولقد أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا محمد بن إدريس الرازى ، حدثنا عبد الرحمن بن يحيى و إسماعيل بن عبيد الله المخزومى ، قالا حدثنا عبد الأعلى ابن مسهر ، عن سعيد بن عبد العزيز قال : سمعت إسماعيل بن عبيد الله يقول لبنيه : « يابنى أكرموا من أكرمكم ، و إن كان عبداً حبشياً ، وأهينوا من أهانكم ، و إن كان رجلا قرشياً » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : هذا الذى قال إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر : إن استعمله العاقل فى الأحوال كلها مع الجاهل فلا ضير ، فأما من ارتفع عن حد الجهال ، واتضع عن حد العقلاء ، فالإغضاء عمن مثله فى الأوقات أحمد مخافة الازدياد منه ، ولأن يصبر المرء على حرارة الجفاء ومرارتها أولى من الانتقام مما يستجلب عليه بما هو أحر وأمرّ مما مضى ، لأن من الكلام ماهو أشد من الحجر ، وأنفذ من الإبر ، وأمر من الصبر .

ولقد أحسن الذى يقول :

لقد أسمع القول الذى كاد كلما   تذكرنيه النفس قلبى تصدَّع
فأبدى لمن أبداه منى بشاشة   كأنى مسرور بما منه أسمع
وما ذاك عن عجز به ، غير أننى   أرى أن ترك الشر للشر أقطع

أنبأنا محمد بن صالح الطبرى بالصيمرة ، حدثنا أحمد بن مقدام العجلى ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن الطفاوى عن هشام بن عروة عن أبيه عن أبى عمرو فى هذه الآية (٧ : ١٩٩ خذ العفو وأمر بالعرف) قال : « أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالعفو عن أخلاق الناس » .

ذكر صفة الكريم واللئيم

أنبأنا محمد بن الحسن بن الخليل بنسا ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبدة

ابن سليمان عن عبيد الله بن عمر ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال « قيل يارسول الله ، أى الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ؟ قال : فعن معادن العرب تسألوننى ؟ قالوا : نعم ، قال : خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام ، إذا فقهوا » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أكرم الناس من اتقى الله ، والكريم التقى .

والتقوى : هى العزم على إتيان المأمورات ، والانزجار عن جميع المزجورات[1] فمن صح عزمه على هاتين الخصلتين فهو التقى الذى يستحق اسم الكرم ، ومن تعرى عن استعمالها ، أو أحدهما ، أو شعبة من شعبهما ، فقد نقص من كرمه مثله .

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا عيسى بن محمد بن سهل الأزدى عن أبيه عن المدائنى ، قال : قال زيد بن ثابت « ثلاث خصال لاتجتمع إلا فى كريم : حسن المحضر ، واحتمال الزلة ، وقلة الملالة » .

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى :

رأيت الحق يعرفه الكريم لصاحبه وينكره اللئيم
إذا كان الفتى حسناً كريماً فكل فعاله حسن كريم
إذا ألفيته سمجاً لئيما فكل فعاله سمج لئيم

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الكريم لا يكون حقوداً ولا حسوداً ، ولا

---

(١) هذا تفسير باللازم ، وإلا فحقيقة التقوى فى اللغة : الأخذ بكل أسباب ما يدفع عن الإنسان كل ما يكره ويحذر فى الدنيا والآخرة ، واتخاذ الوقاية مما يؤذى ويضر فى الجسم والقلب والعقل ، ولا يكون ذلك إلا بالعلم واليقظة التامة ،والبصيرة النيرة فكم من آت بكل المأمورات ومنزجر عن كل المحرمات ولكنه على جهل وتقليد أعمى لاينفعه شىء مما يأتى ، ولا يدفع عنه انزجار شيئاً مما يخاف ويحذر ، والله الموفق لكل خير والهادى إلى سواء السبيل .

شامتاً ، ولا باغياً ، ولا ساهياً ، ولا لاهياً ، ولا فاجراً ، ولا فخوراً ، ولا كاذباً ، ولا ملولا ، ولا يقطع إلفه ، ولا يؤذى إخوانه ، ولا يضيع الحفاظ ، ولا يجفو فى الوداد ، يعطى من لا يرجو ، و يؤمن من لا يخاف ، و يعفو عن قدرة ، و يصل عن قطيعة .

أخبرنى محمد بن أبى على الخلادى ، حدثنا محمد بن الحسن الذهلى عن على بن محمد المرحبى عن محمد بن إبراهيم العباسى عن عبد الله بن الحجاج — مولى المهدى — عن إبراهيم بن شكلة ، قال « إن لكل شيء حياة وموتا ، و إن مما يحيى الكرم مواصلة الكرماء ، و إن مما يحيى اللؤم معاشرة اللئام » .

وأنشدنى الكريزى :

وما بال قوم لئام ليس عندهُم عهد ، وليس لهم دين إذا ائتمنوا
إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً منا ، وما سمعوا من صالح دفنوا
صُمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكرتُ به و إن ذُكرتُ بسوء عندهم أذنوا[1]

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الكريم يلين إذا استُعْطِف ، واللئيم يقسو إذا أُلطِفْ ، والكريم يُجِل الكرام ، ولا يُهين اللئام ، ولا يؤذى العاقل ، ولا يمازح الأحمق ، ولا يعاشر الفاجر ، مؤثراً إخوانه على نفسه باذلا لهم ما ملك ، إذا اطلع على رغبة من أخ لم يدع مكافأتها ، و إذا عرف منه مودة لم ينظر فى قلق العداوة ، و إذا أعطاه من نفسه الإخاء لم يقطعه بشيء من الأشياء .

كما أنشدنى الخلادى ، أنشدنا أحمد بن أبى على القاضى ، قال : أنشدنا محمد ابن مقيس الأزدى :

فإن الذى بينى و بين عشيرتى و بين بنى عمى لمختلف جدا
إذا قدحوا لى نار حرب بزَنْدهم قدحتُ لهم فى كل مكْرُمة زَندا

(١) يقال : أذن الرجل للقول : أى ألقى سمعه وأصغى بانتباه ويقظة زائدة ، والأبيات لقعنب بن أم صاحب .

و إن أكلوا لحمى وفَرْتُ لحومهمْ ... و إن هدموا مَجْدى بنيتُ لهم مجدا
ولا أحمل الحقْد القديم عليهمُ ... وليس رئيسُ القوم من يحمل الحقدا
وأعطيهمُ مالى إذا كنت واجدا ... و إن قلَّ مالى لم أكلفهمُ رفدا (١)

أنبأنا ابن حوصا ، حدثنا النحاسى حدثنا ضمرة عن إبراهيم بن أبى علية قال : رأيت سالم بن عبد الله ومحمد بن عبد العزيز يتسايران بأرض الروم ، فأبال أحدهما دابته ، فأمسك عليه الآخر حتى لحقه .

أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا أحمد بن أبي بكر بن خالد اليزيدى عن قطبة ابن العلاء بن المنهال ، قال : سمعت المبارك بن سعيد يقول سمعت الأعمش يقول : قال الشعبى « إن كرام الناس أسرعهم مودة ، وأبطؤهم عداوة ، مثل الكوب من الفضة يبطىء الانكسار ، و يسرع الانجبار ، و إن لئام الناس أبطؤهم مودة ، وأسرعهم عداوة ، مثل الكوب من الفخار : يسرع الانكسار ، ويبطىء الانجبار » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الكريم مَنْ أعطاه شكَر ، ومن منعه عذره ، ومن قطعه وصله ، ومن وصله فضله ، ومن سأله أعطاه ، ومن لم يسأله ابتدأه ، و إذا استضعف أحداً رحمه ، و إذا استضعفه أحد رأى الموت أكرم له منه ، واللئيم بضد ما وصفنا من الخصال كلها !

ولقد أنبأنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز ، حدثنا إبراهيم بن محمد الذهلى ، حدثنا أحمد بن الخليل ، حدثنا يحيى بن أيوب عن أبى عيسى قال : كان إبراهيم ابن أدهم كريم النفس ، يخالط الناس بأخلاقهم ويأكل معهم ، قال : فربما اتخذ لهم الشواء والجوذابات والخبيص ، وربما خلا وأصحابه الذين يأنس بهم فيتصارعون قال : وكان يعمل عمل رجلين ، وكان إذا صار إلى نفسه أكل عجينا .

---

(١) هذه الأبيات من شعر الحماسة منسوبة إلى المقنع الكندى من قصيدة له ، وفى بعض ألفاظها اختلاف . و « الرفد » العطاء .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أجمع أهل التجارب للدهر ، وأهل الفضل فى الدين ، والراغبون فى الجميل : على أن أفضل ما اقتنى لنفسه فى الدنيا ، وأجل مايدَّخر لها فى العقبى هو لزوم الكرم ، ومعاشرة الكرام ؛ لأن الكرم يحسن الذكر ، ويشرف القدر ، وهو طباع ركَّبها الله فى بنى آدم ، فمن الناس من يكون أكرم من أبيه ، وربما كان الأب أكرم من ابنه ، وربما كان المملوك أكرم من مولاه ، وربَّ مولًى أكرمُ من مملوكه .

ولقد أحسن الذى يقول :

رب مملوك إذا كشفته ... كان من مولاه أولى بالكرمْ
فهو ممدوح على أحواله ... وترى مولاه يُهْجَى ويُذَم
وتراه كيف يعلو دائماً ؟ ... وترى مولاه من تحت القدم
وفتى تلقى أباه دونه ... وأباً تلقاه أعلى وأتم
من بنيه ، ثم لا يعتلُّ إن ... طُلب المعروف منه بالصمم
وكذاك الناس ـ فاعلم ـ ربُّنا ... قدر الأخلاق فيهم وقسم

وأنشدنى الأبرش :

رأيت اللين لايرضى بضيم ... لأن الضيم يسخطه الكريم
وإن اللين أكرم كل شىء ... فليس يحبه خلق لئيم
فإن نَزَلَ الأذى واللين قلباً ... فإن اللين يرحل لايقيم
ويبقى للأذى فى القلب صحب ... من البغضاء يلبث لايَرِيم(١)

حدثنا القطان بالرقة ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، قال : سمعت أبى يقول : مامن أحد إلا وله توبة ، إلا سيىء الخلق ؛ فإنه لايتوب من ذنب إلا دخل فى شر منه .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الكريم محمود الأثر فى الدنيا ، مرضى العمل

(١) لايريم : لا يفارق .

فى العقبى ، يحبه القريب والقاصى ، و يألفه المتسخط والراضى ، يفارقه الأعداء واللئام ، و يصحبه العقلاء والـكرام .

وما رأيت شيئاً أ كثر عملا فى نقص كرم الـكريم من الفقر ، سواء كان ذلك بالقلب أو بالموجود .

ولقد أنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى :

لعمرك ، إن المالَ قد يجعل الفتى   نسيباً ، و إن الفقر بالمرء قد يُزرِى

ولا رَفَع النفسَ الدنيةَّ كالغنى   ولا وضع النفسَ الـكريمة كالفقر

حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن زكريا بن أبى زائدة عن على بن الأقمر عن أبى جحيفة قال : « جالسوا الـكبراء ، وخالطوا الحـكماء ، وسائلوا العلماء » .

ذكر الزجر عن قبول قول الوُشاة

أنبأنا أبو يعلى ، حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء ، حدثنا مهدى بن ميمون حدثنا واصل الأحدب عن أبى وائل عن حذيفة « أنه بلغه أن رجلا يَنِمُّ الحديثَ ، فقال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يدخل الجنة نمَّام » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على الناس كافة : مجانبة الإفكار فى السبب الذى يؤدى إلى البغضاء والمشاحنة بين الناس ، والسعى فيما يفرق جمعهم و يشتت شملهم ، والعاقل لا يخوض فى الإفكار فيما ذكرنا ، ولا يقبل سعاية الواشى بحيلة من الحيل ، لعلمه بما يرتكب الواشى من الإثم فى العقبى بفعله ذلك .

ولقد أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا عباس بن الوليد بن مزيد عن أبيه عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير قال : قال سليمان بن داود لابنه « يابنى ، إياك والنميمة ، فإنها أحدَ من السيف » .

وأنشدنى الكريزى :

من نَمَّ فى الناس لم تؤمن عقاربه على الصديق ، ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل فى الليل لا يدرى به أحد من أين جاء ، ولا من أين يأتيه ؟
فالويل للعهد منه كيف ينقضه ؟ والويل للود منه كيف يفنيه ؟

أخبرنا أحمد بن إسحاق الناقد بواسط ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون قال « لما تعجل موسى ابن عمران إلى ربه رأى رجلاً تحت العرش ، فغبطه بمكانه ، فسأل ربه أن يخبره باسمه ، قال : لكننى أخبرك من عمله بثلاث خصال : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يعق والديه ، ولا يمشى بالنميمة » .

أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمد بن يعقوب الربعى ، حدثنا محمد بن إدريس المعدل عن العتبى قال « سمعت أعرابية توصى إبناً لها ، فقالت : عليك بحفظ السرِّ ، وإياك والنميمة ، فإنها لا تترك مودة إلا أفسدتها ، ولا ضغينة إلا أوقدتها » .

ثم لابد لمن عرف بها ونسب إلى مقارفتها من أن يُحترس من مجالسته ، وأن لا يوثق بمودته ، وأن يزهد فى مواصلته ومعاشرته .

ولذلك يقول أخو ربيعة :

تمشَّيتَ فينا بالنميم ، وإنما تُفَرِّق بين الأصفياء النمائم
وما زلتَ منسوباً إلى كل آفة وما زال منسوباً إليك الملائم
لأنك لم تنـدم لشرٍّ فعلته وما تأت من خير فإنك نادم

أنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى حدثنا محمد بن عبيد الله الجشمى حدثنا على بن محمد المدائنى قال : « وشى واش بعبد الله بن همام السلولى إلى زياد ، قال : فبعث زياد إلى ابن همام ، فجاء فأدخل الرجل بيتاً ، فقال له زياد : يا ابن همام . بلغنى أنك هجوتنى ، فقال له : كلاَّ ، أصلحك الله ! ما فعلتُ ، وما أنتَ لذلك

أهل ، قالى : فإن هذا أخبرنى ـ وأخرج الرجل ـ فأطرق ابن همام هنيهة ، ثم أقبل على الرجل ، فقال :

وأنت امرؤ : إما ائتمنتك خاليا فَخُنتَ ، وما قلتَ قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذى كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

قال : فأعجب زياد بجوابه ، وأدناه ، وأقصى المساعى ، ولم يقبل منه .

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى :

يمشون فى الناس يبغون العيوبَ لمن لاعيب فيه ، لكى يستشرفَ العطب

إن يعلموا الخيرَ يخفوه ، و إنْ علموا شراً أذاعوا ؛ وإن لم يعلموا كذبوا

أخبرنى محمد بن أبى على ، حدثنا ابن أبى شيبة أبو جعفر ، حدثنا الحسن بن صالح قال : سمعت حُجين بن المثنى يقول « سعى رجل بالليث بن سعد إلى والى مصر ، فبعث إليه فدعاه ، فلما دخل عليه قال له : ياأبا الحارث ، إن هذا أبلغنى عنك كذا وكذا ، فقال له الليث : سله ـ أصلح الله الأمير ! ـ عما أبلغك : أهو شى ائتمناه عليه فخاننا فيه ، فما ينبغى لك أن تقبل من خائن ، أو شىء كذب علينا فيه ، فما ينبغى لك أن تقبل من كاذب ، فقال الوالى : صدقت ياأبا الحارث »

أخبرنا ابن حوصا ، حدثنا عبد الله بن هانىء بن عبد الرحمن عن ابن أبى عُلَيَّة عن أبيه عن عمه إبراهيم بن أبي علية قال : « كنت جالساً مع أم الدرداء فأتاها آت فقال : ياأم الدرداء ، إن رجلا نال منكِ عند عبد الملك بن مروان ، فقالت : إن نُؤْبَن [1] بما ليس فينا فطالما زُكِّينا بما ليس فينا » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزوم الإغضاء عما ينقل الوشاة وصرف جميعها إلى الإحسان ، وترك الخروج إلى مالا يليق بأهل العقل ، مع ترك الإفكار فيما يُزرى بالعقل ، لأن من وشَى بالشىء إلى الإنسان بعينه يكون قصده إلى المخَبر أكثر من قصده إلى المخبر به ، لمشافهته إياه بالشىء الذى يَشُقُّ

(١) نؤبن : نتهم .

عليه علمه وسماعه » .

ولقد أحسن الذى يقول :

من يُخبرك بشتم عن أخ فهو الشاتم ، لا من شتمك
ذاك شيء لم يشافهك به إنما اللوم على من أعلمك
كيف لم ينصرك ؟ إن كان أخا ذا وفاء عند من قد ظلمك
إنما رام بإبلاغ الذى نمّ فيه ـ فاعلمَنْ ـ أن يُرْغمك
فأهنه ، إنه من لؤمه إن تُهِنْه بهوان أكرمك
لكن الحرَّ إذا أكرمته لم يُصغِّرك ، ولكن فَخَّمكْ

أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمد بن عبدالله السويدى قال : سمعت العباس ابن ميمون يقول : شيع المأمون الحسن بن سهل ذا الوزارتين ، فلما بلغا غاية التشييع ، قال له المأمون : ياحسن ، ألك حاجة ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، تحفظ علىّ من قلبك مالا أستطيع إدراكه إلا بك ، ويكون بينى و بينك قول كُثَيِّر عزة :

وكونى على الواشين لدَّاء شَغْبة كما أن للواشى ألدُّ شَغُوب

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا محمد بن خزيمة البصرى حدثنا حذيفة حدثنا عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبى كثير قال : « الذى يعمله النمام فى ساعة لايعمله الساحر فى شهر » .

أخبرنا محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا محمد بن الحسن الهلالى حدثنا أبو عوانة البصرى ، حدثنا داود بن شبيب ، حدثنا حماد بن سلمة قال « باع رجل من رجل غلاماً له ، وقال : أبرأ إليك من النميمة ، فاشتراه على ذلك ، فجاء إلى مولاته ، فقال : إن زوجك ليس يحبك ، وهو يتسرّى عليك ويتزوج ، أفتريدين أن يعطف عليك ؟ قالت : نعم ، قال : خذى موسى فاحلقى به شعرات من باطن لحيته وبخِّريه بها ، وجاء إلى الرجل ، فقال : إن امرأتك تبغى ، وتصادق ، وهى قاتلتك ، أفتريد أن يبين لك ذلك ؟ فقال : نعم ، قال تناوم لها ، قال : فتناوم لها ،

فجاءت بموسى تحلق الشعر ، فأخذها فقتلها ، فأخذه أولياؤها فقتلوه » .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : هذا وأمثاله من ثمرة النميمة ، لأنها تهتك الأستار وتفشى الأسرار ، وتورث الضغائن ، وترفع المودة ، وتجدد العداوة ، وتبدد الجماعة وتهيج الحقد ، وتزيد الصد ، فمن وُشيَ إليه عن أخ كان الواجب عليه معاتبته على الهفوة إن كانت ، وقبول العذر إذا اعتذر ، وترك الإكثار من العتب ، مع توطين النفس على الشكر عند الحفاظ ، وعلى الصبر عند الضياع ، وعلى المعاتبة عند الإساءة .

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي :

كافِ الخليل على المودة مثلَها ... وإذا أساء فكافِه بعتابه

وإذا عتبت على امرىء أحببته ... فتوقَّ ظاهر عيبه وسبابه

وألن جناحك ما استلان لوده ... وأجب أخاك إذا دعا بجوابه

وأنشدني علي بن محمد البسامي :

أعاتب إخواني ، وأبقى عليهمُ ... ولستُ لهم بعد العتاب بقاطع

وأغفر ذنب المرء إن زَلَّ زلة ... إذا ما أتاها كارهاً غير طائع

وأجزع من لوم الحليم وعذله ... وما أنا من جهل الجهول بجازع

أخبرني محمد بن علي الخلادي ، أخبرني محمد بن يزيد النحوي عن العتبي عن أبيه قال : عتب ابن الزبير على معاوية في شيء ، فدخل عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين : اسمع أبياتاً أعتبتك فيها ، قال : هات ، فأنشده [١] :

لعمرك ما أدري ، وإني لأوجل ... على أيّنا تعْدو المنية أول

وإني على أشياء منك تريبني ... كثيراً لذو صفح على ذاك مُجمل

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طَرَف الهجران لو كان يعقل

فقال له معاوية : لقد شعرت بعدي يا أبا بكر ، فدخل عليه مَعْن بن أوس

(١) الأبيات لمعن بن أوس ، وسيذكر المؤلف ذلك .

المزنى بعد ذلك ، فقال له معاوية : هل أحدثت بعدنا شيئاً ؟ قال نعم ، ثم أنشده:

* لعمرك ما أدرى و إنى لأوجل *

فقال : علىَّ بابن الزبير ، فقال : أليس هذا لك فيما زعمت ؟ قال : أنا ألَّفت المعنى ، وهو ألف القوافى ، وهو بعدُ ظِئْرى ، ومهما قال من شىء فأنا قلته ، فضحك معاوية ، وكان مَعْن بن أوس مُسْتَرضعاً فى مُزَينة .

سمعت الحسين بن إسحاق الأصفهانى يقول : كتب على بن حجر السعدى إلى بعض إخوانه :

أحنُّ إلى عتابك ، غير أنى ... أجِلُّك عن عتابٍ فى كتاب
ونحن إذا التقينا قبل موت ... شفيتُ غليلَ صدرى من عتابى
و إن سبقتْ بنا أيدى المنايا ... فكم من عاتب تحت التراب

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

صحائف عندى للعتاب طويتها ... ستنشر يوماً ، والعتاب يطولُ
كتاب لعمرى لا بَنَانٌ يَخُطّه ... وسوف يؤديه إليك رسول
سأكتب إن لم يجمع الله بيننا ... و إن نجتمع يوماً فسوف أقول

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن لا يقصّر عن معاتبة أخيه على زلته ، لأن من لم يعاتب على الزلة لم يكن بحافظ للخُلّة ، ومن أعتب لم يذنب ، كما أن من اغتفر لم يعاقب ، وظاهر العتاب خير من مكتوم الحقد ، ورُبَّ عَتْبٍ أنفعُ من صفح ؛ ولذلك أنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

إذا ما امرؤٌ ساءتك منه خليقةٌ ... فكاتمته ، فالوهْنَ فى ذاك تركبُ
لعلك لو عاتبته ، ثم لُمته ... لَسَرك ، حتى لم تكن تتعتّبُ

وأنشدنى الكريزى :

فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبا ... وحقّ لها العتبى لدينا وقَلّتِ

وإن تكن الأخرى، فإن وراءنا ... مفاوز لو سارت بها العِيس كَلَّت

قال أبو حاتم رضي الله عنه : لا يجب على العاقل أن يناقش على تصحيح الإعتاب بالإكثار مخافةَ أن يعود المعاتب إلى ما عوتب عليه ؛ لأن من عاتب على كل ذنب أخاه ، فحقيق أن يَمَلَّه ويقلاه ، وإن من سوء الأدب كثرة العتاب . كما أن من أعظم الجفاء ترك العتاب ، والإكثار فى المعاتبة يقطع الود ، ويورث الصد

ولقد أنشدنى عبدالله بن أحمد النقيب البغدادى لابن المعتز :

معاتبة الإلفين تحسنُ مرّة ... فإن أكثروا إدْمَانها أفسد الحبَّا

إذا شئتَ أن تُقْلَى فزر مُتتابعاً ... وإن شئت أن تزداد حُبًّا فزر غِبًّا

وأنشدنى محمد بن أبى على الصيداوى [(١)] :

إذا كنتَ فى كل الأمور معاتباً ... خليلك لَمْ تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحداً ، أو صِلْ أخاك فإنه ... مقارف ذنبٍ مرةً ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مِراراً على القذى ... ظَمِئت ، وأى الناس تصفو مشاربه؟

أخبرنا محمد بن المهاجر حدثنا محمد بن الحسن الذهلى عن أبى السائب قال : قال على بن أبى طالب رضي الله عنه : « لا تكثر العتاب ، فإن العتاب يورث الضغينة والبغضة ، وكثرته من سوء الأدب » .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات فى كتاب « مراعاة الإخوان » فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب .

ذكر استحباب قبول الاعتذار من المعتذر

أنبأنا على بن الحسن بن عبد الجبار ـ بنصيبين ـ حدثنا على بن حرب الطائى حدثنا وكيع عن الثورى عن ابن جريج عن العباس بن عبد الرحمن بن مينا عن

---

(١) تنسب الأبيات لبشار بن برد .

جودان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من اعتذر إلى أخيه فلم يقبل كان عليه مثلُ خطيئة صاحب مَكْس »

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أنا خائف أن يكون ابن جريج رحمة الله ورضوانه عليه دلَّس هذا الخبر بأن سمعه من العباس بن عبد الرحمن فهو حديث حسن .

فالواجب على العاقل إذا اعتذر إليه أخوه لجرم مضى ، أو لتقصير سبق ، أن يقبل عذره ، ويجعله كمن لم يُذنب ؛ لأن من تُنُصِّل إليه فلم يقبل أخافُ أن لا يَرِدَ الحوضَ على المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن فَرَّط منه تقصير فى سبب من الأسباب يجب عليه الاعتذار فى تقصيره إلى أخيه .

ولقد أنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

إذا اعتذر الصديق إليك يوماً من التقصير عذر أخ مُقرِّ
فَصُنْه عن جفائك ، واعفُ عنه فإن الصفح شِيمَةُ كل حُرِّ

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

شفيع من أسلفه جرمه إقراره بالجرم والذنب
وتوبة المذنب من ذنبه إعتاب من أصبح ذا عتب

أنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، حدثنا ابن عائشة . قال : غضب سليمان بن عبد الملك على خالد بن عبد الله ، فلما دخل عليه قال : يا أمير المؤمنين القدرة تُذهب الحفيظة ، وأنت تَجِلُّ عن العقوبة ، فإن تعفُ فأهلُ ذاك أنت ، وإن تعاقب فأهل ذاك أنا ، قال : فعَفَا عنه .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا يجب للمرء أن يعتذر بحيلة إلى من لا يحب أن يجد له عذراً ، ولا يجب أن يكثر من الاعتذار إلى أخيه ؛ فإن الإكثار من الاعتذار هو السبب المؤدى إلى التهمة ، وإنى أستحب الإقلال من الاعتذار على الأحوال كلها ؛ لعلمى أن المعاذير يعتريها الكذب ، وقلّ ما رأيتُ أحداً

اعتذر إلا شابَ اعتذارَه بالكذب ، ومن اعترف بالزلة استحق الصفح عنها ، لأن ذُلَّ الاعتذار عن الزلة يوجب تسكين الغضب عنها والمعتذر إذا كان محقًّا خضع في قوله ، وذَلَّ في فعله ، كما أنشدني المنتصر بن بلال :

أيا ربَّ قد أحسنتَ عوداً و بدأةً إليّ ، فلم ينهض بإحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر إليك وحُجَّةٍ فعذريَ إقراري بأن ليس لي عذر

وأنشدني الكريزي :

و إني و إن أظهرتَ لي منك جفوةً وألزمتني ذنباً و إنْ كنتُ مجرماً[1]
لراضٍ لنفسي ما رضيت لها به أراكَ بها مني أبرَّ وأرحما

أنبأنا محمد بن عثمان العقبي ، حدثنا الفيض بن الجهم التميمي ، حدثنا عبد الله ابن خُبيق قال : كان يقال : احتمل من دَلَّ عليك ، واقبل ممن اعتذر إليك .

أنبأنا بكر بن محمد بن الوهاب القزاز ـ بالبصرة ـ حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أبو بشر قال : سمعت أبي قال : حدثنا مبارك بن فُضالة عن حميد الطويل عن أبي قلابة ، قال : إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذراً ، فإن لم تجد له عذراً فقل : لعل له عذراً لا أعلمه .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : لايجب للمرء أن يعلن عقوبة من لم يعلن ذنبه ، ولا يخلو المعتذر في اعتذاره من أحد رجلين : إما أن يكون صادقا في اعتذاره ، أو كاذباً ؛ فإن كان صادقا فقد استحق العفوَ ؛ لأن شرَّ الناس من لم يُقِل العثرات ، ولا يستر الزلات ، و إن كان كاذباً فالواجب على المرء إذا علم من المعتذر إثم الكذب وريبته وخضوع الاعتذار وذلته : أن لا يعاقبه على الذنب السالف

---

(١) «إن» الأخيرة نافية ، والمعنى: وما لم أكن في الواقع مجرماً ، على حد قوله تعالى (٣٥ : ٤١ إن أمسكهما من أحد من بعده) وقوله (٧٢ : ٢٥ إن أدري أقريب ماتوعدون) .

بل يشكر له الإحسان المحدَث ، الذى جاء به فى اعتذاره وليس يَعيبُ المعتذر إن ذَلّ وخضع فى اعتذاره إلى أخيه .

وأنشدنى الأبرش :

هَبْنى أسأتُ ، كما زعمـت فأين عاطفة الأخوّة ؟
أو إن أسأت ، كما أسـأ ت فأين فضلك والمروّة ؟

وأنشدنى على بن محمد البسامى :

هَبْنى مسيئاً كالذى قلتَ ظالما فعفوٌ جميل كى يكونَ لكَ الفضل
فإن لم أكن للعفو منك ـ لسُوء ما أتيتُ به ـ أهلا ، فأنتَ له أهل

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى :

هبنى أسأت ، وكان جُرمى مثـل جرم أبى لهبْ
فأنا أتوب كما أسـأ ت ، وكم أسأتَ فلم تتب ؟

وأنشدنى محمد بن أبى علىّ ، أنشدنا الربعى عن الأصمعى :

أتيتك تائباً من كل ذنب وخير الناس من أخطا فتابا[1]
أليس اللهُ يُستعفَى فيعفو وقد ملك العقوبة والثوابا ؟

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

عصيت وتبت ، كما قد عصى وتاب إلى ربه آدمُ
فقل قولَ يوسف لا تثرباً لكُمُ يغفر الغافر الراحمُ

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا محمد بن عبد الله الجرزى عن حميد ابن سنان الخالدى ـ وكان نديماً لأبى دُلَف ـ قال : دخلت على أبى دلف يوماً ـ و بين يديه كتاب وهو يضحك ، فقال : هـذا كتاب عبد الله بن طاهر ، وفيه أبيات أحبُّ أن أنشدك إياها ، وذلك أني كنت استبطأته فى بعض المرات ، فكتبت إليه :

---

(١) أخطا : أصله أخطأ ، فقلب الهمزة ألفا لانفتاح ماقبلها .

أرى وُدَّكم كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لايدوم له عهد
وودى بكم كالآس حُسناً وبَهْجَةً له نَضْرة تبقى إذا فنى الورد

فكتب إلىّ بهذه الأبيات :

شَبَّهت ودى الورد، فهو مشاكلى وهل زَهْرٌ إلا وسيدها الوردُ
وشَبّهتَ منك الود بالآس فى البقا ولم تخلف التشبيه فيك ولم تَعْدُ
فودُّك كالآس المرير مذاقُهُ وليس له فى الريح قبلُ ولا بعدُ

أخبرنا عبد الكبير بن عمر الخطابى بالبصرة ، حدثنا أبو حاتم السجستانى عن الأصمعى قال : حدثنا عيسى بن عمر قال : كان لأبى الأسود الدؤلى صديق ، فرأى عنه بعض ما يكره ، فقال أبو الأسود :

رأيت امرءاً لم أكن أبلهُ[1] أتانى ، فقال : اتخذنى خليلا
فخالَلْتُه ، ثم صافيته فلم ينقص الود منه فتيلا
فراجعته ، ثم عاتبته عتاباً رفيقاً ، وقولا جميلا
فألفيته غير مُسْتَعتِبٍ ولا ذاكرَ الله إلا قليلا
ألستُ حقيقاً بتوديعه وأُتْبِعُ ذلك هجراً طويلا ؟

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الاعتذار يذهب الهموم ، ويُجْلى الأحزان ، ويدفع الحقد ، ويذهب الصد ، والإقلال منه تستغرق فيه الجنايات العظيمة والذنوب الكثيرة ، والإكثار منه يؤدى إلى الاتهام وسوء الرأى ، فلو لم يكن فى اعتذار المرء إلى أخيه خَصْلة تُحمد إلا نفى التعجب عن النفس فى الحال لكان الواجب على العاقل أن لا يفارقه الاعتذار عند كل زَلَّة .

ولقد أنشدنى الكريزى :

فانظر إلىّ بطرف غير ذى مرض فطال ماصحّ لى من طرفك النظرُ

---

(١) هكذا فى الأصل ، والمحفوظ « أريت امرءاً كنت لم أبله » إلخ ، مع بعض اختلاف فى الباقى .

أدرك بفضلك عَظْماً كنت تَجْبُره   واجمع برفقك ماقد كاد ينتشر (١)

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارى ، حدثنا الغلابى ، حدثنا مهدى بن سابق حدثنا عطاء بن مصعب قال : قدم عبد الرحمن بن عَنْبَسة بن سعيد على معن بن زائدة باليمن ، وكانت بينهما عداوة ، فلما رآه قال له : ياعبد الرحمن ، بأى وجه أتيتنى ؟ ولأى خير أمَّلتنى ؟ قال : أصلح الله الأمير ! اسمع منى حتى أنشدك بيتين قالهما نُصَيب فى عبد العزيز بن مروان ، قال : وما هما ؟ فأنشده :

لو كان فوق الأرض حىٌّ فعالُه   كفعلك ، أو للفعل منك مقاربُ

لقلت له هذا ، ولكن تعذَّرَتْ   سواك على المستعتبين المذاهبُ

فقال : أقم ، فإنى لا أؤاخذك فيما مضى ؛ ولا أُعَنِّفُك فيما بقى .

أنبأنا الخلادى حدثنا محمد بن موسى السِّمَّرى عن حماد بن إسحاق . قال ابن السماك لمحمد بن سليمان ، أو حماد بن موسى لكاتبه ، ورآه كالمعوض عنه : مالى أراك كالمعرض عنى ؟ قال : بلغنى عنك شىء كرهته ، قال : إذاً لا أبالى ، قال : ولم ؟ قال : لأنه إن كان ذنباً غفرته ، وإن كان باطلا لم تقبله ، قال : فعاد إلى المؤانسة .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قد ذكرت مايشا كل هذه الحكايات فى كتاب « مراعاة العشرة » فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب .

ذكر الحث على لزوم كتمان السر

أنبأنا محمد بن سليمان بن فارس الدلال ، حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد العبدى ، حدثنا الهيثم بن أيوب العطار السلمى ، حدثنا سهل بن عبد الرحمن عن محمد بن مطرف أبى غسان عن محمد بن المنكدر عن عروة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على الحوائج بكتمان السر ، فإن لكل نعمة حاسداً » .

---

(١) ينتشر : يتفرق ويذهب ههنا وههنا .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : هذا إسناد حسن ، وطريق غريب ، إن كان عروة هذا هو ابن الزبير بن العوام ، وسعيد بن سلام ، ماأرى حفظ حديثه ؛ فلذلك تنكبت [١] عن ذكره .

فالواجب على من سلك سبيل ذَوِى الحجى لُزُومُ ماانطوى عليه الضمير بتركه إبداء المكنون فيه ، لا إلى ثقة ولا إلى غيره ؛ فإن الدهر لابد من أن يضرب ضرباته فيوقع ضدَّ الوصل بينهما بحالة من الأحوال فيخرجه وجود ضد ماانطوى عليه قديماً من وفائه إلى صحة الخروج بالكلية إلى جفائه ، بإبداء مكتوماته ، والكشف عن مُخَبَّآته .

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقبى ، حدثنى محمد بن عبد الكريم العبدى ، حدثنا بكر بن يونس بن بكير ، حدثنى موسى بن على عن أبيه عن عمرو بن العاص أنه قال : عجبت من الرجل يفرُّ من القدر ، وهو مواقعه ، ومن الرجل يرى القَذَاة فى عين أخيه ، ويدع الجذع فى عينه ، ومن الرجل يخرج الضِّغن من موضع ويدع الضغن فى نفسه ، وما ندمت على أمر قط فَلُمت نفسى على تندمى عليه ، وما وضعت سرى عند أحد فلمته على أن يفشيه ، كيف ألومه وقد ضقت به ؟ .

وأنشدنى على بن محمد البسامى :

تبيح بسِرِّك ضَيْقاً به ... وتبغى لسرك مَنْ يكتُمُ
وكتمانك السرَّ ممن تخاف ... ومن لا تخافَنَّهُ أَحْزَمُ
إذا ذاع سرك من مخبر ... فأنت وإن لمته ، ألوَمُ

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان :

إذا ضاق صدر المرء عن بعض سره ... فألقاه فى صدرى فصدرىَ أضيق
ومن لامنى فى أن أضيع سره ... وضيَّعه قبلى فذو السر أخرق [٢]

(١) تنكبت : أعرضت .
(٢) أخرق : أحمق .

أخبرنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا أحمد بن محمد الصيداوى ، حدثنا حماد ابن إسحاق عن المدائنى قال : كان يقال : أصبر الناس الذى لا يفشى سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شيء فيفشيه ، وأنشدنى البغدادى :

صُنِ السر بالكتمان يرضيك غِبُّه فقد يظهر المرء المضيع فيندم
فلا تلجئن سراً إلى غير حرزه فيظهرحرز السوءما كنت تكتمُ

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

إذا المرء لم يحفظ سريرة نفسه وكان لسرِّ الأخِّ غيرَ كتوم (١)
فَبُعْدًا له من ذى أخ ومودة وليس على وُدٍّ له بمقيم

قال أبو حاتم رضى الله عنه : من حَصَّنَ بالكتمان سره تم له تدبيره ، وكان له الظفر بما يريد ، والسلامة من العيب والضرر ، وإن أخطأه التمكن والظفر ، والحازم يجعل سره فى وِعَاء ويكتمه عن كل مستودع ، فإن اضطره الأمر وغلبه أوْدَعه العاقلُ الناصح له ، لأن السر أمانة ، وإفشاؤه خيانة ، والقلب له وِعَاؤه ، فمن الأوعية مايضيق بما يودع ، ومنها ما يتسع لما استودع .

وأنشدنى الكريزى :

اجعل لسرك من فؤادك منزلا لا يستطيع له اللسان دخولا
إن اللسان إذا استطاع إلى الذى كتم الفؤاد من الشئون وصولا
ألفيت سرك فى الصديق وغيره من ذى العداوة فاشياً مبذولا

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى :

سأكتمه سرى وأكتم سره ولا غَرَّنى أنى عليه كريم
حليم فيفشى ، أو جهول يذيعه وما الناس إلا جاهل وحليم

أخبرنى محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا إبراهيم بن الجنيد ، حدثنى على بن عيسى عن محمد عن ابن الأعرابى قال : كان يقال : العاقل مَنْ حَذِرَ صديقه .

(١) الأخ — ههنا بتشديد الخاء — وهى لغية .

وأنشدنى بعض إخواننا :

لعمرك كتمان الفتى سِرَّ مانوى　　أعفُّ وأدنى للرشاد وأكرمُ

وأجملُ فى بثّ الحديث مقالة　　وأحسن فى الأخلاق دوماً وأحزم

وأنشدنى الكريزى :

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها　　فأنت إذا حمَّلته الناسَ أضيعُ

ويضحك فى وجهى إذا مالقيته　　وينهشنى بالغيب يوماً ويلسع

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الإفراط فى الاسترسال بالأسرار عجز ، وما كتمه المرء من عدوه فلا يجب أن يظهره لصديقه ، وكفى لذوى الألباب عِبَراً ماجربوا ؛ ومن استودع حديثاً فليستتر ، ولا يكن مِهْتَاكاً ، ولا مِشْيَاعًا ؛ لأن السر إنما سمى سراً ؛ لأنه لا يفشى .

فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسره من صدر غيره بأن لايفشيه

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن يعقوب الأعلم قال : أنشدنى محمد بن سليمان بن سلام الجمحى لرجل من عبد شمس :

إذا ماضاق صدرك عن حديث　　فأفشاه الرجالُ فمن تلومُ

إذا عاتبتُ من أفشى حديثى　　وسرِّى عنده فأنا الظَّلوم

وإنى يوم أسأم حمل سرى　　وقد ضَمَّنه صدرى سؤوم

فلست مُحدِّثاً سرى خليلى　　ولا نفسى إذا حضرت هموم

وأطوى السرَّ دون الناس : إنى　　لما استودعت من سر كَتُومُ

وأنشدنى على بن حيدة الكاتب ، قال : أنشدنا عبد الرحمن بن بندار لشيطان الطاق :

أمتِ السر بكتمان ولا　　يُسمعن منك إذا استودعت سرّ

فإذا ضقت به ذرعاً ، فلا　　تضعنْ سرك إلا عند حُر

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا الرمادى ، حدثنا مسدد قال : سمعت ابن

داود يقول : سمعت الأعمش يقول : يضيق صدر أحدهم بسره ، حتى يحدث به ، ثم يقول : اكتمه عليّ :

وأنشدني إبراهيم بن على الظفرى[1] أنشدنى الحسين بن عبيد الله .

لا يكتم السر إلا من له شرف ... والسر عنـد كرام الناس مكتوم

السر عنديَ فى بيت له غَلَق ... ضلت مفاتيحه والبابُ مختوم

أنبأنا الخلادى ، حدثنا أحمد بن عبد الله بن شجاع البياضى ، قال : أنشدنا عبد الرحمن بن محمد :

وإنى لأنسى السر كيما أصُونه ... فيامَنْ رأى شيئاً يُصَان بأن ينسى

مخافة أن يجرى ببالى ذكره ... فيخلسه قلبي إلى منطقى خلسا

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الظفر بالحزم ، والحزم بإجالة الرأى ، والرأى بتحصين الأسرار ، ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده ، ومن أنبأ الناس بأسراره هان عليهم وأذاعوها ، ومن لا يكتم السر استحق الندم ، ومن استحق الندم صار ناقص العقل ، ومن دام على هذا رجع إلى الجهل .

فتحصين السر للعاقل أولى به من التلهف بالندم بعد خروجه منه .

ولقد أحسن الذى يقول :

خشيْتُ لسانى أن يكون خُؤونا ... فأودعتــه قلبي ، فـكان أمينا

فقلت ، ليخفى دون شخصى وناظرى : ... أيا حَرَكَاتى كنَّ فىَّ سكونا

أنبأنا إبراهيم بن إسحاق الأنماطى ، حدثنا محمد بن سليمان المصيصى ، حدثنا ابن عيينة عن ابن شُبْرُمَة عن الحسن فى قوله تعالى (٣ : ١٥٩ وشاورهم فى الأمر) قال : ما كان يحتاج إليهم ، ولـكن أحب أن يَسْتَنَّ به مَنْ بعده .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : المستشار مؤتمن ، وليس بضامن ، وللمستشير متحصن من السقط ، متخير للرأى .

---

(١) وجد فى هامش الأصل « نسخة الطرقى »

والواجب على العاقل السالك سبيل ذوى الحجى : أن يعلم أن المشاورة تفشى الأسرار ، فلايستشير إلا اللبيب الناصح الودود للفاضل فى دينه ، و إرشاد المُشِيرِ المستشير قضاء حق النعمة فى الرأى ، والمشورة لا تخلو من البركة إذا كانت مع مثل من وصفنا نَعْتَه .

ولقد أنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، حدثنا ابن عائشة ، قال : قال الحسن ماحزب[1] قوماً قط أمر فاجتمعوا فتشاوروا فيه إلا أرشدهم الله لأصو به .

وأنشدنى الكريزى :

دَبِّرْ إذا مارمت أمراً بفكرة   لتعلم ما تأتى وما تتجنبُ
وشاور نقيَّ الرأى عند التباسه   لكى يَضِحَ الأمرالذى هو أصوب[2]

وأنشدنى المنتصر بن بلال :

لا تسبقنَّ الناس بالرأى واتئد   فإنك إن تعجَل إلى القول تَزْلِلِ
ولكن تصفَّح رأى من كان حاضراً   وقل بعدهم رسلا ، و بالحق فاعمل

أنبأنا محمد بن عثمان العقبى ، حدثنى يحيى بن زيد بن محمد الأبلى ، حدثنى إسماعيل بن حبيب أبو حميد الأبلى عن عبد الله بن الديلمى عن وهب بن منبه أنه قال : فى التوراة أربعة أحرف مكتوبة : من لم يشاور يندم ، ومن استغنى استأثر ، والفقر الموت الأحمر ، وكما تَدين تُدان .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : لا أنْسَ آنَسُ مِنَ استشارة عاقل ودود ، ولا وحشةَ أوحش من مخالفته ؛ لأن المشاورة والمناظرة بابا بركة ومفتاحا رحمة ، من استشير فليشر بالنصيحة ، وليجتهد بالرأى ، وليلزم الحق ، وقصد السبيل وليجعل المستشير كنفسه بترك الخيانة ، و بذل النصيحة ، وليكن كما أنشدنى على ابن محمد البسامى :

---

(١) حزبهم : اشتد عليهم وشق .

(٢) يضح : مضارع وضح ، إذا اشتد ظهوره

ومن الرجال إذا زَكَتْ أحلامُهُمْ   مَنْ يستشار إذا استشير فيطرق
حتى يجول بكل وادٍ قلبُه   فيرى ويعرف ما يقول وينطق
إن الحليم إذا تفكر لم يكد   يخفى عليه من الأمور الأوفق

أنبأنا أبو يعلى ، حدثنا غسان بن الربيع ، حدثنا يزيد بن ثابت عن إياس ابن دغفل عن الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما شاور قوم قط إلا هدوا إلى رشدهم » .

أخبرنى محمد بن المنذر ، حدثنا أحمد بن خالد السيرافى ، حدثنا شيبان ، حدثنا أبو الأشهب قال : قال الحسن : لا يندم من شاور مرشدا .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل إذا استشير قوم هو فيهم أن يكون آخر من يشير : لأنه أمكن من الفكر وأبعد من الزلل ، وأقرب من الحزم ، وأسلم من السقط ، ومن استشار فلينفذ الحزم بان لا يستشير عاجزاً ، كما أن الحازم لا يستعين كَسِلا ، وفى الاستشارة عين الهداية ، ومن استشار لم يعدم رشدا ، ومن ترك المشاورة لم يعدم غيًّا ولا يندم من شاور مرشدا ، وقد أنشدنى الواسطى :

الهمُّ مالم تمضه لسبيله   سقمُ القلوب وآفة الأبدان
ومُعَول الرجل الموفق رأيه   عند اعتراض طوارق الأحزان
وإذا الحوادث سددت أسبابه   كان التبصر أنجد الأعوان
وإذا أضل سبيله تدبيرُه   طلب الهدى بتشاور الإخوان

أنبأنا محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا مطروح بن شاكر ، حدثنا أصبغ عن ابن وهب عن إبراهيم بن نشيط عن ابن أبى حسين قال : كان يقال : ما هلك امرؤ عن مشورة ، ولا سعد بتوحد .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن من شيم العاقل عند النائبة تنوبه : أن يشاور عاقلا ناصحا ذا رأى ثم يطيعه ، وليعترف للحق عند المشورة ، ولا يتمادى فى الباطل بل يقبل الحق ممن جاء به ، ولا يحقر الرأى الجليل إذا أتاه به الرجل الحقير ؛ لأن

اللؤلؤة الخطيرة لا يشينها قلة خطر غائصها الذي استخرجها ، ثم ليستخر الله ، وليمض فيما أشار عليه ، وقد أنشدني البغدادي :

أطع الحليم إذا الحليمُ عصاكا إن الحليم إذا عصاك هداكا
وإذا استشارك من تودُّ ، فقل له : أطع الحليم إذا الحليم نهاكا
ولئن أبيتَ لتأتينَّ خلافهُ أربا يحوطك ، أو يكون هلاكا
واعلم بأنك لن تسود ، ولن ترى سُبل الرشاد إذا أطعت هواكا

أنبأنا أبو محمد عبد الرحمن بن عبد المؤمن بجرجان ، حدثنا محمد بن حميد البزاز ، حدثنا جرير عن ابن المقفع عن وزير كسرى قال : ثلاثة ليس لهم رأى فلا تستشيروهم : صاحبُ الخفِّ الضيِّق ، وحاقن البول ، وصاحب المرأة السوء السَّليطة [1] .

ذكر الحث على لزوم النصيحة للمسلمين كافة

أنبأنا الحسين بن محمد بن أبى معشر ـ بحران ـ حدثنا عبد الرحمن بن عمرو البجلى ، حدثنا زهير بن معاوية عن سهيل بن أبى صالح عن عطاء بن يزيد الليثى عن تميم الدارى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدين النصيحة ، قيل : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزوم النصيحة للمسلمين كافة ، وترك الخيانة لهم بالإضمار والقول والفعل معا ، إذ المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يشترط على من بايعه من أصحابه « النصح لكل مسلم » مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

وأخبرني محمد بن أبى على الخلادي ، حدثنا محمد بن الحسن النهلى عن أبى السائب قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه « لا تعمل بالخديعة فانها خُلق اللئام ، وامحضْ أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة ، وزُلْ معه حيث زال » .

---

(١) السليطة : أى البذيئة اللسان التى تكثر من قول السوء .

وأنشدنى الـكريزى :

قل للنصيح الذي أهدى نصيحته سِرًّا إلينا ، وساءته التـكاليفُ

النصح ليس له حدٌّ فتعرفه والنصح مستوحش منه ومألوف

حتى إذا صَرَّحَتْ عَنَّا عواقبه كانت لنا عِظَةٌ منه وتعنيف

لو كان للنصح حدٌّ يُستبان به مانالنـا حَسْرَةً منه وتلهيف

لـكن له سُبُلٌ شَتَّى مخـالفة بعْضٌ لبعضٍ ، فمجهول ومعروف

والناس غاوٍ ، وذو رشد ، ومختلط والنصح ممضى ، ومردود ، وموقوف

قال أبو حاتم رضى الله عنه : خير الإخوان أشدهم مبالغة فى النصيحة ، كما أن خير الأعمـال أحمدها عاقبة ، وأحسنها إخلاصاً ، وضرب الناصح خير من تحية الشانىء .

ويجب أن يكون للعاقل نصيحة مبذولة للعامة مكتوماً من العام والخاص ماقدر عليه ، وليس الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح له .

وأنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابي ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن القاسم التيمى ، حدثنى أبى قال : « لما قدم على الـكوفة لقيه المغيرة بن شُعبة ، فقال له : إنى أشير عليك برأى فاقبله ، قال : هات ، قال : أقرَّ معاوية على الشام ؛ يسمح لك طاعته ، فإن أهل الشام قد ذاقوه فاستعذبوه ، ووليهم عشرين سنة لم يعتبوا عليه ، ولم يعتبوه فى عرض ولا مال ، فقال : والله لو سألنى قرية ماوليته إياها ، قال : فقال المغيرة : أراه سَيَلى أرضين وقَرْيات » .

أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا ابن أبى شيبة ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا ابن المبارك عن معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال « المؤمن شُعبة من المؤمن ، وهو مرآة أخيه ، إن رأى منه مالا يعجبه سدَّده وقوَّمه ونصحه فى السر والعلانية » وأنشدنى على بن محمد البسامى :

أَمِنْتُ على السر امرءًا غير حازم ولـكنه فى النصح غيرُ مريب

فذَاع به فى النـاس حتى كأنمـا بعلياء نارٌ أوقـدت بثَقُوب
فما كل ذى لب بمؤتيك نُصْحَه وما كل مؤتٍ نصحه بلبيب
ولـكن إذا مااستجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب

سمعت محمد بن نصر بن نوفل المروزى يقول : سمعت أبا داود السنجى يقول : سمعت ابن الأعرابى يقول : قال بعض الحـكماء « اثنان ظالمان : رجل أهديت له النصيحة فاتخذها ذنباً ، ورجل وسع له فى مكان ضيق فجلس متربعاً »

قال أبو حاتم رضى الله عنه : النصيحة محـاطة بالتهمة ، وليست النصيحة إلا لمن قبلها ، كما أن الدنيا ليست إلا لمن تركها ، ولا الآخرة إلا لمن طلبهـا ، وليس على كل ذى نصح إلا الجهد ، ولولم يقبل من نصحائه مايثقل عليه لم يحمد غب رأيه ، ومشاورة الأصم أحمد من الناصح المعرض عنه ، ومن بذل نصيحة لمن لا يشكر كان كالباذر فى السباخ ، وأكثرمايوجد ترك قبول النصيحة من المعجب برأيه ، وأنشدنى الأبرش :

إذا نصحت لذى عُجْب لترشده فلم يطعك ، فلا تنصح له أبداً
فإن ذا العجب لا يعطيك طاعته ولا يجيب إلى إرشـاده أحدا
وما عليك، وإن غاوٍ غوى حِقَباً إن لم يكن لك قُرْبَى، أو يكن ولدا

قال أبو حاتم رضى الله عنه : النصيحة تجب على الناس كافة على ماذكرنا قبل ، ولـكن إبداؤها لا يجب إلا سراً ؛ لأن من وعظ أخاه علانية فقد شانه ، ومن وعظه سرًّا فقد زانه ، فإبلاغ المجهود للمسلم فيما يزين أخاه أحرى من القصد فيما يشينه .

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا الرمادى ، حدثنا على بن المدينى ، حدثنا سفيان قال : قلت لمِسعَر « تحب أن يخبرك رجل بعيوبك ؟ قال : أما أن يجىء إنسان فيوبِّخنى بها فلا ، وأما أن يجىء ناصح فنعم » .

أخبرنا محمد بن أبى على الخلادى حدثنا محمد بن المغيرة النوفلى حدثنا محمد بن

على الشقيقى حدثنا أبى عن ابن المبارك قال « كان الرجل إذا رأى من أخيه مايكره أمره فى سِتر ، ونهاه فى ستر ، فيؤجر فى ستره ، ويؤجر فى نهيه ، فأما اليوم فإذا رأى أحد من أحد مايكره استغضب أخاه ، وهتك ستره » .

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا محمد بن منصور حدثنى على بن المدينى عن سفيان قال : جاء طلحة إلى عبد الجبار بن وائل ـ وعنده قوم ـ فسارَّه بشىء ، ثم انصرف ، فقال : أتدرون ماقال لى ؟ قال : رأيتك التفتَّ أمس وأنت تصلى »

قال أبو حاتم رضى الله عنه : النصيحة إذا كانت على نعت ماوصفنا تقيم الألفة ، وتؤدى حق الأخوة .

وعلامة الناصح إذا أراد زينة المنصوح له أن ينصحه سراً ، وعلامة من أراد شينه أن ينصحه عَلَانية ، فليحذر العاقل نصحه الأعداء فى السر والعلانية .

ولقد أنشدنى ابن زنجى البغدادى :

فكم من عدو مُعْلنٍ لك نصحَه ... علانية ، والغش تحت الأضالع
وكم من صديق مرشدٍ قد عصيته ... فكنتَ له فى الرشد غيرَ مطاوع
وما الأمر إلا بالعواقب ؛ إنها ... سيبدو عليها كل سر وذائع

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

وصاحبٍ غيرِ مأمون غوائلُهُ ... يبدى لىَ النصحَ منه وهو مشتمل
على خلاف الذى يُبْدِى ويظهره ... وقد أحطت بعلمى أنه دَغِل
عفوت عنه انتظاراً أن يثوبَ له ... عقلٌ إليه من الزلات ينتقل
دهرا فلما بدا لى أنَّ شيمته ... غش وليس له عن ذاك مُنْتَقَلُ
تركته ترك قالٍ لا رجوع له ... إلى مودته ماحَنَّت الإبل (١)

أخبرنا عبد الله بن محمد القيراطى حدثنا محمد بن يزيد الملقب يَحْمش حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا أبو حيان عن أبيه قال : كتب الربيع بن خيثم وصية :

(١) الإبل : لاتترك الحنين ، فهذه كناية عن دوام تِركه إياه .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به الربيع بن خُثَيم ، وأشهد عليه وكفى بالله شهيداً وجازياً لعباده الصالحين مثيباً ، إنى رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وأن يعبد الله[1] من أطاعنى فى العابدين ويحمَدَه فى الحامدين ، وينصح لجماعة المسلمين » .

وصية الخطاب بن المعلى المخزومى ابنه

أخبرنى محمد بن المنذر بن سعيد حدثنا أبو حاتم محمد بن إدريس الحنظلى حدثنى عبد الرحمن بن أبي عطية الحمصى عن الخطاب بن المعلى المخزومي القرشي : أنه وعظ ابنه فقال « يابنى ، عليك بتقوى الله وطاعته ، وتجنب محارِمَه باتباع سنته ومعالمه حتى تصح عيوبك ، وتقر عينك ، فإنها لا تخفى على الله خافية ، وإنى قد وَسمت لك وَسْماً ، ووضعت لك رسماً ، إن أنت حفظته ووعيته وعملت به ملأت أعين الملوك ، وانقاد لك به الصعلوك ، ولم تزل مرتجًى مشرفا يُحتاج إليك ، ويُرغب إلى مافى يديك ، فأطع أباك ، واقتصر على وصية أبيك ، وفرِّغ لذلك ذهنك ، واشغل به قلبك ولُبَّك ، وإياك وهَذَرَ الكلام ، وكثرةَ الضحك والمزاح ، ومهازلةَ الإخوان ، فإن ذلك يذهب البهاء ، ويوقع الشحناء . وعليك بالرزانة والتوقر ، من غير كِبر يوصف منك ، ولا خُيلاء تحكى عنك ، والقَ صديقك وعدوك بوجه الرضى ، وكفّ الأذى ، من غير ذِلَّة لهم ولا هيبة منهم ، وكن فى جميع أمورك فى أوسطها ؛ فإن خير الأمور أوساطُها ، وقلل الكلام ، وأفش السلام وامش متمكناً قَصْدا ، ولا تخطّ برجلك ، ولا تسحب ذيلك ، ولا تَلوِ عنقك ، ولا ردائك ، ولا تنظر فى عِطْفك ، ولا تكثر الالتفات ، ولا تقف على الجماعات ، ولا تتخذ السوق مجلسا ، ولا الحوانيت متحدثا ، ولا تكثر المراء ، ولا تنازع السفهاء ، فإن تكلمت فاختصر ، وإن مزحت فاقتصر ، وإذا جلستَ فتربع ، وتحفظ من تشبيك أصابعك وتفقيعها ، والعَبَث بلحيتك وخاتمك ، وذؤابة سيفك

(١) فى الأصل « وأن يعبد الله ومن أطاعنى » والواو مقحمة .

وتخليل أسنانك ، و إدخال يدك فى أنفك ، وكثرة طرد الذباب عنك ، وكثرة التثاؤب والتمطِّى ، وأشباه ذلك مما يستخفه الناس منك ، و يغتمزون به فيك .

وليكن مجلسك هادياً ، وحديثك مقسوماً ، وأصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك ، بغير إظهار عجب منك ، ولا مسألة ولا إعادة ، وغُضَّ عن الفكاهات من المضاحك والحكايات ، ولا تحدث عن إعجابك بولدك ، ولا جاريتك ، ولا عن فرسك ، ولا عن سيفك ، و إياك وأحاديثَ الرؤيا ، فإنك إن أظهرت عجباً بشىء منها طمع فيها السفهاء ، فولدوا لك الأحلام ، واغتمزوا فى عقلك ، ولا تصَنَّع تصَنُّعَ المرأة ، ولا تَبذَّل تبذُّل العبد ، ولا تهلُب[1] لحيتك ولا تُبَطِنها ، وتوق كثرة الحفّ ، ونتف الشيب ، وكثرة الكحل ، والإسراف فى الدهن ، وليكن كحلك غِبًّا ، ولاتلحَّ فى الحاجات ، ولا تخشع فى الطلبات ، ولا تُعلم أهلك وولدك — فضلا عن غيرهم — عدَد مالك ، فإنهم إن رأوه قليلاً هُنتَ عليهم ، و إن كان كثيراً لم تبلغ به رضاهم ، وأخِفْهمُ فى غير عنف ، ولِنْ لهم فى غير ضعف ، ولا تهازل أمَتك . و إذا خاصمت فتوقَّر ، وتحفظ من جهلك ، وتجنب من عجلتك ، وتفكر فى حُجَّتك ، وأر الحاكم شيئاً من حلمك ، ولا تكثر الإشارة بيدك ، ولا تَحَفَّز على ركبتيك ، وتوقَّ حمرة الوجه ، وعرَق الجبين و إن سُفِه عليك فاحلم ، و إذا هدأ غضبك فتكلم ، وأكرم عرضك ، وألق الفضول عنك ، و إن قربك سلطان فكن منه على حد السنان ، و إن استرسل إليك فلا تأمن من انقلابه عليك ، وارفُق به رفقك بالصبى ، وكلمه بما يشتهى ، ولا يحملنك ما ترى من إلطافه إياك ، وخاصته بك : أن تدخل بينه و بين أحد من ولده وأهله وحشمه ، و إن كان لذلك منك مستمعاً ، وللقول منك مطيعاً، فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله صَرْعةٌ لاتنهض ، وزلَّة لا تُقال ، و إذا وعدت

---

(١) هلب الشعر : نتف ماغلظ منه ، وتبطين اللحية: أن لايؤخذ مما تحت الذقن والحنك من الشعر .

فحقق ، وإذا حدثت فاصدق ، ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصم ، ولا تخافت به كتخافت الأخرس ، وتخير محاسن القول بالحديث المقبول ، وإذا حدثت بسماع فانسبه إلى أهله ، وإياك والأحاديث العابرة المشنِّعَة التي تنكرها القلوب ، وتقفُّ لها الجلود(١) ، وإياكِ ومضعَّف الكلام ، مثل : نعم ، نعم ، ولا ، لا ، وعجل، عجل ، وما أشبه ذلك ، وإذا توضأت فأجدْ عَرْكَ كفيك ، وليكن وضعك الحُرْض(٢) من الأُشنان في فيك كفعلك بالسواك ، ولا تنخَّع في الطِّسْت ، وليكن طرحك الماءَ من فيك مترسلا ، ولا تَمُجَّ فتَنْضَحَ على أقرب جلسائك ، ولا تعَضَّ نصف اللقمة ، ثم تعيد مابقي منها منصبغاً ، فإن ذلك مكروه ، ولا تكثر الاستسقاء على مائدة الملك ، ولا تعبث بالمُشاش(٣) ، ولا تعِبْ شيئاً مما يقرب إليك على مائدة بقلة خل أو تابل أو عسل ، فإن السحابة قد صيرت لنفسها مهابة . ولا تمسك إمساك المثبور ، ولا تبذِّر تبذير السفيه المغرور ، واعرف في مالك واجبَ الحقوق ، وحرمةَ الصديق ، واستغن عن الناس يحتاجوا إليك ، واعلم أن الجشع يدعو إلى الطَبع ، والرغبةُ — كما قيل — تدق الرقبة، ورُبَّ أكلة تمنع أكلات ، والتعفف مال جسيم وخلق كريم ، ومعرفة الرجل قدره ، تشرف ذكره ، ومن تعدى القدر ، هوى في بعيد القعر . والصدق زين ، والكذب شين ، ولَصِدقٌ يُسرع عطبَ صاحبه أحسنُ عاقبة من كذب يسلم عليه قائله ، ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق، ولزوم الكريم على الهوان خير من صحبة اللئيم على الإحسان ، ولَقرب ملك جواد ، خير من مجاورة بحر طرّاد ، وزوجة السوء الداء العُضال . ونكاح العجوز يذهب بماء الوجه ، وطاعة النساء تزرى بالعقلاء .

تشبه بأهل العقل تكن منهم ، وتصنع للشرف تدركه .

---

(١) تقف لها الجلود : تقشعر .

(٢) الحرض — بزنة قفل أو عنق — الأشنان تغسل به الأيدي إثر الطعام .

(٣) المشاش — بزنة غراب — العظم الذى لامخ فيه .

واعلم أن كل امرىء حيث وضع نفسه ، وإنما ينسب الصانع إلى صناعته ، والمرء يعرف بقرينه ، وإياك وإخوانَ السوء فإنهم يخونون من رافقهم، ويحزنون من صادقهم ، وقربهم أعدى من الجرب ، ورفضهم من استكمال الأدب ، واستخفار المستجير لؤم . والعجلة شؤم ، وسوء التدبير وهن .

والإخوان اثنان : فمحافظ عليك عند البلاء ، وصديق لك فى الرخاء ، فاحفظ صديق البلاء ، وتجنب صديق العافية ، فإنهم أعدى الأعداء .

ومن اتبع الهوى ، مال به الردى ، ولا يعجبنك الجهم من الرجال ، ولا تحقر ضئيلا كالخلال[1] فإنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، ولا ينتفع به أكثر من أصغريه .

وتوق الفساد ، وإن كنت فى بلاد الأعادى ، ولا تفرش عرضك لمن دونك ، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك ، ولا تكثر الكلام فتثقل على الأقوام . وامنح البشر جليسك ، والقبول ممن لاقاك .

وإياك وكثرة التبريق والتزليق ، فإن ظاهر ذلك ينسب إلى التأنيث . وإياك والتصنع لمغازلة النساء ، وكن متقرباً ، متعززاً ، منتهزاً فى فرصتك ، رفيقاً فى حاجتك ، متثبتاً فى حملتك ، والبس لكل دهر ثيابه ، ومع كل قوم شكلهم .

واحذر مايلزمك اللائمة فى آخرتك ، ولا تعجل فى أمر حتى تنظر فى عاقبته ، ولا ترد حتى ترى وجه المصدر .

وعليك بالنورة فى كل شهر مرة ، وإياك وحلاق الإبط بالنورة ، وليكن السواك من طبيعتك ، وإذا استكت فعرضاً . وعليك بالعمارة ، فإنها أنفع التجارة ، وعلاج الزرع خير من اقتناء الضرع ، ومنازعتك اللئيم تطمعه فيك ، ومن أكرم عرضه أكرمه الناس ، وذم الجاهل إياك أفضل

---

(١) الخلال ــ بكسر الخاء ، بزنة الكتاب ــ العود الذى تخلل به الأسنان ، يريد الرجل النحيف البالغ النحافة .

من ثنائه عليك ، ومعرفة الحق من أخلاق الصدق ، والرفيق الصالح ابن عم،ومن أيسر أكبرَ ، ومن افتقر احتقر . قصّر فى المقالة ، مخافة الإجابة ، والساعى إليك غالب عليك ، وطول السفر ملالة ، وكثرة المنى ضلالة ، وليس للغائب صديق ، ولا على الميت شفيق ، وأدب الشيخ عناء ، وتأديب الغلام شقاء ، والفاحش أمير ، والوَقاح[1] وزير ، والحلم مطية الأحمق ، والحمق داء لاشفاء له . والحلم خير وزير ، والدين أزين الأمور ، والسماجة سفاهة ، والسكران شيطان ، وكلامه هذيان ، والشعر من السحر، والتهدد هُجْر، والشح شقاء ، والشجاعة بقاء،والهدية من الأخلاق السَّرية ، وهى تورث المحبة ، ومن ابتدأ المعروف صار دَيناً ، ومن المعروف ابتداء من غير مسأله ، وصاحب الرياء يرجع إلى السخاء ، ولَرياء بخير خير من معالنة بشر ، والعرق نزَّاع ، والعادة طبيعية لازمة: إن خيراً فخير ، و إن شراً فشر ، ومن حل عَقداً اختمل حقداً ، ومراجعة السلطان خُرْق بالإنسان ، والفرار عار ، والتقدم مخاطرة ، وأعجل منفعة إيسار فى دعة ، وكثرة العلل من البَخَل ، وشر الرجال ، الكثير الاعتلال وحسن اللقاء ، يذهب بالشحناء ، ولين الكلام ، من أخلاق الكرام .

يابنى ، إن زوجة الرجل سَكَنه ، ولا عيش له مع خلافها ، فإذا هممت بنكاح امرأة فسلْ عن أهلها ، فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة .

واعلم أن النساء أشد اختلافاً من أصابع الكف ، فتوقَّ منهن كل ذات بَذاء مجبولة على الأذى ، فمنهن المعجبة بنفسها ، المزرية ببعلها ، إن أكرمها رأته لفضلها عليه ، لاتشكر على جميل ، ولا ترضى منه بقليل ، لسانها عليه سيف صقيل ، قد كشفت القِحَة ستر الحياء عن وجهها ، فلا تستحى من عوارها ، ولا تستحى من جارها ، كلبة هَرَّارة ، مُهارشة عَقَّارة[2] ، فوجه زوجها مكلوم ،

---

(١) الوقاح ــ بفتح الواو ــ الوصف من الوقاحة ، وهى الإفراط فى سوء الأدب

(٢) هر الكلب هريراً : نبح . وعقارة : تعقر صاحبها كما يعقر الكلب .

وعرضه مشتوم ، ولا ترعى عليه لدين ولا لدنيا ، ولا تحفظه لصحبة ولا لكثرة بنين ، حجابه مهتوك ، وستره منشور ، وخيره مدفون ، يصبح كئيبا ، ويمسى عاتبا ، شرابه مر ، وطعامه غيظ ، وولده ضياع ، وبيته مستهلك ، وثوبه وسخ ، ورأسه شعث ، إن ضحك فواهن ، وإن تكلم فمتكاره ، نهاره ليل ، وليله ويل ، تلدغه مثل الحية العقارة ، وتلْسَعُه مثل العقرب الجرارة .

ومنهن شفشليق شعشع سلفع [1] ، ذات سم منقع ، وإبراق واختلاق ، تهب مع الرياح ، وتطير مع كل ذى جناح ، إن قال : لا ، قالت : نعم ، وإن قال : نعم ، قالت : لا ، مولدة لمخازيه ، محتقرة لما فى يديه ، تضرب له الأمثال ، وتقصر به دون الرجال ، وتنقله من حال إلى حال ، حتى قلا بيته ، ومَلَّ ولده ، وغثَّ عيشه ، وهانت عليه نفسه ، وحتى أنكره إخوانه ، ورحمه جيرانه .

ومنهن الورْهاء الحمقاء [2] : ذات الدَّل فى غير موضعها ، الماضغة للسانها ، الآخذة فى غير شأنها ، قد قنعت بحبه ، ورضيت بكسبه ، تأكل كالحمار الراتع ، تنتشر الشمس ولما يُسمعْ لها صوت ، ولم يكنس لها بيت ، طعامها بائت ، وإناؤها وضِر [3] ، وعجينها حامض ، وماؤها فاتر ، ومتاعها مزروع ، وماعونها ممنوع ، وخادمها مضروب ، وجارها محروب .

ومنهن العطوف الودود ، المباركة الولود ، المأمونة على غيبها ، المحبوبة فى جيرانها ، المحمودة فى سرها وإعلانها ، الكريمة التبعل ، الكثيرة التفضل ، الخافضة صوتا ، النظيفة بيتا ، خادمها مسمن ، وابنها مزين ، وخيرها دائم ، وزوجها ناعم ، موموقة مألوفة ، وبالعفاف والخيرات موصوفة .

---

(١) الشفشليق : العجوز المسترخية ، والشعشع : الطويلة ، والسلفع : الصخابة البذيئة السيئة الخلق ، والسم المنقع : المربى .

(٢) الورهاء : الحمقاء ، وأصله من قولهم « سحابة ورهاء » أى كثيرة المطر .

(٣) الوضر ـ بفتح الواو والضاد ـ بقية الدسم والدهن فى الإناء ، والوضر ـ بكسر الضاد ـ الوصف منه .

جعلك الله يابنى ممن يقتدى بالهدى ، ويأتم بالتقى ، ويجتنب السخط ، ويحب الرضى .

والله خليفتى عليك ، والمتولى لأمرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على محمد نبى الهدى وعلى آله وسلم تسليما كثيرا .

ذكر الزجر عن تهاجر المسلمين كافة

حدثنا أبو يعلى الموصلى حدثنا وهب بن بقية الواسطى حدثنا خالد بن عبدالله عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهرى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تباغَضوا ، ولا تنافَسوا ، ولا تحَاسدوا ، ولا تَدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا يحل التباغض ولا التنافس ولا التحاسد ولا التدابر بين المسلمين ، والواجب عليهم أن يكونوا إخوانا كما أمرهم الله ورسوله فإذا تألم واحد منهم تألم الآخر بألمه ، وإذا فرح فرح الآخر بفرحه ، ينفى الغش والدَّغل ، مع استسلام الأنفس لله عز وجل ، مع الرضا بما يوجب القضاء فى الأحكام كلها . ولا يجب الهجران بين المسلمَيْنِ عند وجود زلة من أحدهما ، بل يجب عليهما صرفها إلى الإحسان والعطف عليه بالإشفاق ، وترك الهجران .

ولقد حدثنى محمد بن المهاجر حدثنى موسى بن محمد الإخبارى عن النميرى حدثنى محمد يحيى الكتانى قال : أنشدنى أبو غزية لمعاوية بن عبد الله بن جعفر :

لا يُزْهِدَنَّكَ فى أخ   لك أن تراه زل زلّه

والمرء يطرحه الذيـــن يلونه فى شر ألّه (1)

ويخونه من مأمن   أهل البطانة والدِّخلةْ (2)

---

(١) « الألة » بفتح الهمزة ـ أصله الحربة والسلاح ، وأراد فى شر موضع .

(٢) « الدخلة » الدخيلة وباطن الأمر ، وأصلها بسكون الخاء فأتبع حركتها حركة الدال .

والموت أعظم حادث ... مما يمر على الجِبلة

أنشدنى محمد بن الحسن بن قتيبة أنشدنى حميد بن عياش :

ولا تك فى حب الأخلاء مفرطا ... فإن أنت أبغضت البغيض فأجملِ

فإنك لا تدرى متى أنت مبغض ... حبيبَك أو تهوى البغيض ، فاعقل

وأنشدنى عمرو بن محمد بن عبد الله النسوى لثعلب :

وما صدودُ ذوات الدّل يُرْمضُنى ... لكنما الموت عندى صدُّ إخوانى

إنى لأصْبَرُ من عَوْد به جُلَب ... عند الملمّاتِ إلا عند هجران[1]

إذا رأيت ازورارا من أخى ثقة ... ضاقت علىَّ برحب الأرض أوطانى

وأنشدنى الأبرش :

أبلُ الرجال إذا أردتَ إخاءهم ... وتوسمنَّ أمورهم وتفقّدِ

فإذا ظفرت بذى اللبابة والتقى ... فبه اليدين قريرَ عينٍ فاشدُدِ

فمتى يَزلَّ ، ولا محالة ، زلةً ... فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

وإذا الخَنى نقض الُحبى فى مجالس ... ورأيتَ أهل الطيش قاموا فاقعد

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا يجب للمرء أن يدخل فى جملة العوام والهمج بإحداث الود لإخوانه ، وتكديره لهم بالخروج بالسبب الذى يؤدى إلى الهجران الذى نهى المصطفى صلى الله عليه وسلم عنه بينهم ، بل يقصد قصده الإغضاء عن ورود الزلات ، ويتحرى ترك المناقشة على الهفوات ، ولا سيما إذا قيل فى أحدهم الشىء الذى يحتمل أن يكون حقا وباطلا معا ، فإن الناس ليس يخلو وصلهم من رشق أسهم العذال فيه .

ولقد سمعت محمد بن عثمان العقبى يقول : سمعت عبدالعزيز بن عبدالله يقول : قال محمد بن حميد :

ومن ذا من عيوبِ الناس ناجٍ ... بحقٍّ قيل فيه ، أو قراف[2]

(١) العود ـ بالفتح ـ الجمل المسن ، والجلب : القروح .

(٢) أقرفه بكذا وقرفه : اتهمه .

قبيح بى إذا خالتُ خلا ولازَم خُلقى أن لا أكافى
وكلُّ مودة لا خير فيها إذا لم تحتمل حقَّ المُصافى
فأما فى الكلام فكم وفىٍّ ولكنْ فى الشدائد لا يوافى
إذا أحببتُ لم أنقض إخائى ولم أَبْن الإخاء على اعتساف
ولكن أمنحُ الكرماء وُدًّا ولا أدعو اللئام إلى العطاف
متى تقطعْ صديقك بعد وصل ولا تثبت ، فعهدك غير واف
إذا ما المرء أدبر لم تُطِقْه وصار المستقيم إلى خلاف

سمعت محمد بن المنذر يقول : سمعت محمد بن عبد الرحمن يقول : سمعت أبا عمار الحسين بن حريث يقول : قيل لرجل : ألك عيوب ؟ قال : لا ، قيل له : فلك مَنْ يلتمسها ؟ قال : نعم ، قال : فما أكثر عيوبك ! .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : السبب المؤدى إلى الهجران بين المسلمين ثلاثة أشياء : إما وجود الزلة من أخيه ـ ولا محالة يزل ـ فلا يغضى عنها ولا يطلب لها ضدها ، و إبلاغ واشٍ يقدح فيه ، ومشى عاذل بثلب له ، فيقبله ولا يطلب لتكذيبه سبباً ولا لأخيه عذراً ، وورود ملل يدخل على أحدهما ، فإن الملالة تورث القطع ولا يكون لملول صديق .

ولقد أخبرنى محمد بن أبى على الخلادى ، حدثنا محمد بن إبراهيم اليعمرى حدثنى عبد الرحمن بن إبراهيم الأصبهانى أنشدنى بعض أهل الأدب :

إنَّ الملولةَ ودُّهُ مثل السراب يذم وِردُهْ
أو كالسحاب الزائد البرَّاق لم يصدقك وعدُهْ
أو كالحسام هززته عند الضراب فكَلَّ حدُّه (١)
لا تقبلنَّ إخاءه فوعيده كَذِبٌ ووعده
بينا يودك رأىَ عينك إذ بدا لك منه صده

(١) كل حده : ضعف .

وتغـــيرت أخـلاقه   وازورَّ ، حَتّى مال خده

أنبأنا محمد بن يعقوب الخطيب بالأهواز حدثنا معمر بن سهل حدثنا إبراهيم ابن بشار عن سفيان قال : كان لابن شُبْرُمَةَ أخ لجفاه ، فكتب إليه :

كلانا غني عن أخيه حياتهُ   ونحن إذا متنا أشد تغانيا

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام ؛ فمن فعل ذلك كان مرتكباً لنهى النبى صلى الله عليه وسلم ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام ، والسَّابق بالسَّلام يكون السابق إلى الجنة ، ومَنْ هجر أخاه سنة كان كسفك دمه ، ومن مات وهو مهاجر أخاه دخل النار . إن لم يتفضل الله عليه بعفو منه ورحمة ، وغاية ماأبيح من الهجران بين المسلمين ثلاثة أيام .

ولقد أنشدنى عبيد الله بن محمد الأنماطى قال : أنشدنى محمد بن الحسن :

ياسيدى عندك لى مظلَمَة   فاستفت فيها ابن أبى خيثمة

فإنه يرويه عن شيخه   قال : روى الضحاك عن عكرمة

عن ابن عباس عن المصطفى   نبينا المبعوث بالمرحمة

إن صدود الخل عن خِلِّهِ   فوق ثلاثٍ رَبُّنَا حرمه (١)

وأنشدنى محمد بن شاه الأبيوردى بالموصل :

ماودنى أحد إلا بذلت له   صفو المودةِ منى آخرَ الأبدِ

ولا جفانى وإن كنت المحب له   إلا دعوت له الرحمن بالرشد

ولا ائتمنت على سر فبحتُ به   ولا مددتُ إلى غير الجميل يدى

ولا أخون خليلى فى خليلته   حتى أُغَيَّبَ فى الأكفان واللحد

أنبأنا محمد بن المهاجر حدثنا أحمد بن عبد الله بن شجاع حدثنا محمد بن سماعة ،

---

(١) وفى غير الأصل بعد الأبيات :

وأنت منذ شهر لنا هاجر   فيم نخاف الله فينا فمه

قال : جئت يوماً إلى أبى على المصرى أسلم عليه ، قال : فبشَّ بى واحتملنى فى حِجْرِهِ ، ثم قال :

حسبى بوصلك فى حياتى لذة ورضيتُ فى ذاك المعاد ثوابا
لو كنتَ رزقى ماأردت زيادة ولقلتُ أحسنَ خالقى وأطابا

ذكر الحث على لزوم الحلم عند الأذى

أنبأنا محمد بن الحسن بن قتيبة حدثنا يزيد بن خالد بن موهب الرملى حدثنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج أبى الهيثم عن أبى سعيد قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « لاحليم إلا ذو عَثْرة ، ولا عليم إلا ذو تجربة » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : هذا الخبر فى الضرب الذى ذكرت فى كتاب « فصول السنن » بأن العرب تُضيف الاسم إلى الشىء للقرب من التمام ، وتنفى الاسم عن الشىء للنقص من الكمال ، فلما كان الغالب على المرء أن لا يكون حليما حتى يكون ذا عَثْرة نفى النبى صلى الله عليه وسلم اسم الحليم عمن لم يكن بذى عثرة ، لنقصه عن الكمال .

فالحليم عظيم الشان ، رفيع المكان ، محمود الأمر ، مرضى الفعل .

والحلم : اسم يقع على زَمِّ النفس عن الخروج عند الورود عليها ضد ماتحب إلى مانهى عنه .

فالحلم يشتمل على المعرفة والصبر والأناة والتَّثَبُّت ، ولم يقرن شىء إلى شىء أحسنَ من عفو إلى مقدرة .

والحلم أجمل مايكون من المقتدر على الانتقام .

ولقد حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفى ببغداد حدثنا يحيى ابن معين قال : حدثنا الحسن بن واقع عن ضمرة قال « الحلم أرفع من العقل ؛ لأن الله تبارك وتعالى تسمى به » .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

ألم تر أنَّ الحلم زَيْنٌ مُسَوَّدٌ لصاحبه والجهلَ للمرء شائن
فكن دافناً للشر بالخير تسترحْ من الهم ، إن الخير للشر دافن

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطى :

إذا شئت يوماً أن تسود عشيرة فبالحلم سُدْ ، لا بالتسرع والشتم
ولَلحلمُ خيرٌ ـ فاعلمنّ ـ مَغَبَّةً من الجهل ، إلا أن تَشَرَّسنّ من الظلم(١)

وأنشدنى على بن محمد البسامى :

فارضَ بما حُمَّ من قضاء يُصِبْكَ من ذلك الخيار
وعِشْ حميداً ، رَخِيَّ بال ما زَانَكَ الحلم والوقارُ

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن من نفاسة اسم « الحلم » وارتفاع قدره : أن الله جل وعلا تسمى به ، ثم لم يُسَمِّ بالحلم فى كتابه أحداً إلا إبراهيم خليله وإسحاق ذبيحه ، حيث قال (٩ : ١١٤ إن إبراهيم لأَوَّاهٌ حليم) وقال : (٣٧ : ١٠١ فبشرناه بغلام حليم)(٢)

ولو لم يكن فى الحلم خصلة تحمد إلا ترك اكتساب المعاصى ، والدخول فى المواضع الدنسة لكان لواجب على العاقل أن لا يفارق الحلم ماوجد إلى استعماله سبيلا .

والحلم : سَجِيَّة ، أو تجربة ، أو هما .

---

(١) يعنى أن الظالم المعتدى لايناسبه الحلم معه ، فلا ينبغى أن يعامل إلا بالشراسة التى تردعه .

(٢) هذه الآية من سورة الصافات ، والسياق فيها واضح جداً بأنه إسماعيل ، فإنه سبحانه وتعالى بعد أن ساق قصة الذبيح وصبره وصبر أبيه ورضاهما التام عن ربهما وأمره ونجاحهما فى هذا البلاء العظيم ـ قال تعالى (٣٧ : ١٠٩ ـ ١١٣ سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ، وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) =

حدثنا أبو حمزة محمد بن عمر بن يوسف حدثنا عبد الله بن سعيد الكندى حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه قال : سمعت معاوية بن أبى سفيان يقول « لا حلم إلا بالتجربة » .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى :

صافِ الصديق بُودِّه ... وإذا دنا شبراً فزدْهُ

واحلم إذا نطق السفيـه ، فمن يُرِدْ جهلاً يَجده

أنبأنا محمد بن على الصيرفى بالبصرة حدثنا ابن أبى الشوارب حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير عن رجاء بن حيوة عن أبى الدرداء قال « إنما العلم بالتعلُّم ، وإنما الحلم بالتحلم ، ومن يتوخَّ الخير يُعْطَه ، ومن يتوق الشر يُوَقَّه » .

وأنشدنى الكريزى :

إذا أنا كافيت الجهول بفعله ... فهل أنا إلا مثلُهُ ، إذ أحاوره ؟

ولكن إذا ماطاش بالجهل طائش ... علىّ ، فإنى بالتحلم قاهره

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار حدثنا يحيى بن معين حدثنا عثمان ابن صالح حدثنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث ، أن رجلا كتب إلى أخ له : اعلم أن الحلم لباسُ العلم . فلا تعْرَيَنَّ منه .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يلزم الحلم عن الناس كافة ، فإن صَعُب ذلك عليه فليتحالَمْ ؛ لأنه يرتقى به إلى درجة الحلم .

وأول الحلم : المعرفة ، ثم التثبت ، ثم العزم ، ثم التصبر ، ثم الصبر ، ثم الرضا ، ثم الصمت والإغضاء ، وما الفضل إلا للمحسن إلى المسىء ، فأما من أحسن إلى المحسن ، وحَلُم عمن لم يؤذه ، فليس ذلك بحلم ، ولا إحسان .

= والعجب العاجب أن يخفى هذا على ابن حبان وغيره ، حتى يقولوا : إن الذبيح إسحاق ، مقلدين فى ذلك أهل الكتاب ، من غير بيان حجة . ثم غافلين عن النصوص القرآنية الصريحة . وبالأخص فى هذه السورة بهذا السياق البين .

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقبي حدثنا إسحاق بن زكريا حدثنا عبد الصمد ابن حسان حدثنا أبو عمر المازني عن وهب بن منبه، أنه قال : يابني لاتجادلن العلماء فتهونَ عليهم فيرفضوك ، ولا تمارِيَنَّ السفهاء فيجهلوا عليك ويشتموك ، فإنه يلحق بالعلماء من صبر ورأى رأيهم ، وينجو من السفهاء من صَمت وسكت عنهم ، ولا تحسبن أنك إذا ماريتَ الفقيه إلا زدته غيظاً دائبا ، ولا تَحْمَيَنَّ من قليل تسمعه فيوقعك في كثير تكرهه ، ولا تفضح نفسك لتشفيَ غيظك ، فإن جهل عليك جاهل فلينفعنَّ إياك حلمُك ، وإنك إذا لم تحسن حتى يحسن إليك فما أجرُك ، وما فضلك على غيرك ؟ فإذا أردت الفضيلة فأحسن إلى من أساء إليك ، واعف عمن ظلمك ، وانفع من لم ينفعك ، وانتظر ثواب ذلك من قبل الله ، فإن الحسنة الكاملة : التي لا يريد صاحبها عليها ثواباً في الدنيا .

وأنشدني محمد بن حبيب الواسطي :

إذا المرء لم يصرفْ عذاباً من الأذى حياءً ، ولم يغفر لأخرَق مذنب
فلم يصطنع إلاّ قليـلا صـديقه ومن يدفع العوراء بالحلم يغلب

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

احفظْ لسانك إن لقيتَ مشاتمـا لا تجرِيَنَّ مع اللئـيم إذا جرى
من يشترى عِرْض اللئيم بعرضـه يحوى الندامة حين يقبض مااشترى

أنبأنا إبراهيم بن نصر العنبري حدثنا على بن الأزهر الرازى حدثنا إبراهيم ابن رستم قال : سمعت ابن المبارك يقول: دعانا عبدالله بن عون إلى طعامه ، فكنا نأكل ، فجاءت الخادم ومعها صحفة ، فعثرت في ثوبها ، فسقطت الصحفة من يدها فقال لها ابن عون : مترَس آزادى [1] .

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، حدثنا ابن عائشة قال : قال محمد بن

---

(١) معناه بالفارسية : لا تخافى ، أنت حرة .

السعدى لابنه عروة ، لما ولى اليمن : إذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك ، و إلى الأرض تحتك ، ثم عظِّم خالقهما .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل ، إذا غضب واحتدّ أن يذكر كثرة حلم الله عنه ؛ مع تواتر انتهاكه محارمه وتعديه حرماته ، ثم يحلم ، ولا يخرجه غيظه إلى الدخول فى أسباب المعاصى .

والناس على ضروب ثلاثة : رجل أعزُّ منك ، ورجل أنت أعزُّ منه ، ورجل ساواك فى العز ؛ فالتجاهل على من أنت أعزُّ منه لؤم ، وعلى من هو أعز منك جنَف ، وعلى من هو مثلك هِراش كهراش الكلبين ، ونقار كنقار الديكين ، ولا يفترقان إلا عن الخَدْش والعَقْر والهُجْر ، ولا يكاد يوجد التجاهل وتركُ التحالم إلا من سفيهين ، ولقد حسن الذى يقول :

ماتمَّ حلمٌ ولا علمٌ بلا أدبٍ ولا تجاهلَ فى قوم حليمانِ
وما التجاهل إلا ثوبُ ذى دنَس وليس يَلْبَسُهُ إلا سفيهانِ

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى :

وما شىء أسرُّ إلى لئيم إذا شتم الكرام من الجواب
متاركة اللئيم بلا جواب أشدُّ عليه من مُرِّ العذاب

وأنشدنى الكريزى :

تجرد ما استطعت من السفيه بحسن الحلم ، إن العزّ فيه
فقد يعصى السفيه مؤدبيه ويُبْرِمُ باللجاجة منصفيه [1]
تلينُ له ، فيُغلظ جانباه كعير السوء يرمَحُ عالفيه [2]

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا الحسن بن محمد الأزدى الكوفى ، حدثنا عمر بن حفص بن غياث عن أبيه قال : كنت جالساً عند جعفر بن محمد ، ورجل

---

(١) أبرمه باللجاجة : أى غاظه بكثرة الماحلة والتمادى فى السفه والجهل . ولج فى الأمر : أوغل فيه وزاد . (٢) العير : الحمار ، ورمح : يعنى رفس .

يشكو رجلا عنده ، قال لى كذا ، وفعل لى كذا ، فقال له جعفر : من أكرمك فأكرمه ، ومن استخف بك فأكرم نفسك عنه .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : ماضُمَّ شىء إلى شىء هو أحسن من حلم إلى علم ، وما عدم شىء فى شىء هو أوحش من عدم الحلم فى العالم ، ولو كان للحلم أبوان لكان أحدها العقل والآخر الصمت ، وربما يُدفع العاقل الوقت بعد الوقت إلى من لا يُرضيه عنه الحلم ، ولا يقنعه عنه الصفح ؛ فحينئذ يحتاج إلى سفيه ينتصر له ؛ لأن ترك الحلم فى بعض الأوقات من الحلم .

ولقد حدثنى محمد بن المنذر ، حدثنا يزيد بن عبد الصمد ، حدثنا عبدالرحمن ابن إبراهيم ، حدثنا الوليد عن سعيد بن عبد العزيز ؛ أن رجلا استطال على سليمان بن موسى ، فسكت سليمان وانتصر له أخوه ، قال : فقال مكحول : ذَلَّ مَنْ لاسفيه له .

حدثنا عمرو بن محمد الأنصارى ، حدثنا الغلابى ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن ابن القاسم عن أبيه قال : قال أبو حنيفة لشيطان الطاق [1] : ماتقول فى المتعة ؟ قال : حلال ، قال : فيَسُرُّك أن أمَّك تزوجت متعة ؟ فسكت عنه ساعة ، ثم قال يا أبا حنيفة ، ماتقول فى النبيذ ؟ قال : حلال ، قال : وشربه وبيعه وشراؤه ؟ قال : نعم ، قال : فيسرك أن أمك نبَّاذة ؟ قال : فسكت عنه أبو حنيفة .

أنشدنى على بن محمد البسامى :

إذا كنت بين الحلم والجهل قاعداً ... وخُيِّرت : أنى شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفا ... ولم يرض منك الحلم فالجهل أفضل

وأنشدنى محمد بن حبيب الواسطى :

إذا أمن الجهَّال جهلك مرة ... فعرضُك للجهال غُنْمٌ من الغنم
فعُمَّ عليه الجهلَ والحلم وَالْقَهُ ... بمرتبة بين العداوة والسِّلم

(١) شيطان الطاق : شاعر رافضى مشهور .

فيرجوك تاراتٍ ، ويخشاك تارة وتأخذُ فيما بين ذلك بالحزم

حدثنا محمد بن عثمان العقبي ، حدثنا يزيدُ بن عبد الصمد الدمشقي ، حدثنا أبو مسهر ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال : لا حلم لمن لاجاهل له

وحدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابي ، حدثنا مهدى بن سابق قال : قال المأمون : يحسنُ بالملوك الحلم عن كل أحد ، إلا عن ثلاثة : قادح فى ملك ، أو مذيع لسر ، أو متعرض لحرمة .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الحلم على ضربين :

أحدهما : مايرد على النفس من قضاء الله من المصائب التى امتحن الله بها عباده ، فيصبر العاقل تحت ورودها ، ويحلم عن الخروج إلى مالايليق بأهل العقل .

والآخر : مايرد على النفس بضد ماتشتهيه من المخلوقين ، فمن تعود الحلم فليس بمحتاج إلى التصبر ، لاستواء العدم والوجود عنده .

كما حدثنا أبو حمزة محمد بن يوسف بن عمر بنسا ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقى حدثنا عبد الله بن صالح العجلى قال : سمعتُ ابن أبى عتبة يقول :

قيل للاحنف بنُ قيس التميمى ، ممن تعلَّمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم التميمى ، أتاه آتٍ وهو محتبٍ ، فقال : ابن أخيك قتلَ ابنك ؟ قال : عصى ربه ، وفتَّ عَضُده ، وقطع رحمه ، جهزوه ، وما حَلَّ حُبْوته ، فمنه تعلمت الحلم .

حدثنا محمد بن شاذ الهاشمى ، حدثنا أحمد بن الخليل البغدادى ، حدثنا على بن الحسين بن شقيق ، أخبرنا عبد الله عن جعفر بن سليمان قال : كانت امرأة بالبصرة متعبدة تصيبها المصائب ، فتنكر من صبرها ، حتى أصابتها مصيبة موجعة ، فصبرت ، فذكرت ذلك لها ، فقالت : ما من مصيبة تصيبنى فأذكر معها النار إلا صارت فى عينى مثل التراب .

حدثنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحى بالبصرة ، حدثنا عمرو بن إسحاق بن خلاد الجهضمى ، حدثنا خالد بن خراش ، حدثنا وهب عن بكر بن مُضَر

قال : كان أبو الهيثم مات ولده ، وبقى له بُنَىٌّ صغير ، فمات ، فأتاه إخوانه يعزونه ، وهو فى ناحية المسجد ، فقال لهم : تركنى حزن يوم القيامة لا آسَى على شىء فاتنى ، ولا أفرح لما أتانى .

حدثنا محمد بن إسحاق الثقفى ، حدثنا القاسم بن الحسن الزبيدى ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، قال : مات ابن لشريح ، فلم يصيحوا عليه ، ولم يشعر به أحد ، فقيل له : يا أبا آمنة ، كيف هو ؟ قال : قد سكن عَلَزُه (١) ورجاه أهله ، ولم يكن منذ اشتكى أسكنَ منه الليلة .

ذكر الحث على لزوم الرفق فى أمور ، وكراهية العجلة فيها

حدثنا محمد بن صالح الطبرى بالصيمرة ، حدثنا عبد الجبار بن العلاء العطار حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن أبى مليكة عن يعلى بن مَمْلك عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أعطى حَظَّه من الرفق فقد أُعْطِىَ حظَّهُ من الخير ، ومن مُنِع حظه من الرفق فقد منع حظه من الخير » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزوم الرفق فى الأمور كلها وترك العجلة والخِفَّة فيها ؛ إذ الله تعالى يحب الرفق فى الأمور كلها ، ومن مُنِع الرفق منع الخير ، كما أن من أعطى الرفق أعطى الخير ، ولا يكاد المرء يتمكن من بغيته فى سلوك قصده فى شىء من الأشياء على حسب الذى يُحِبُّ إلا بمقارنة الرفق ومفارقة العجلة .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى :

الرفق يُمن سيلقى اليُمْنَ صاحبُهُ ... والخُرْق منه يكون العُنْفُ والزللُ
والحزم أن يتأنَّى المرء فرصته ... والكف عنها إذا ماأمكنت فَشَلُ

---

(١) العلز ـ محركة ـ قلق وخفة وهلع يصيب المريض والمحتضر .

والبرُّ لله خير الأمر عاقبةً   والله للبِرِّ عونٌ ماله مثل
خيرُ البرية قولا خيرهم عملاً   لايصلح القول حتى يصلح العمل

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

الرفق أيمن شىء أنت تتبعه   والخرق أشأم شىء يقدم الرجلا
وذو التثبت من حمد إلى ظَفَر   من يركبِ الرفق لايستحقبِ الزَّللا

حدثنا محمد بن أبى على الخلادى ، حدثنا محمد بن مخلف البسامى عن أحمد ابن موسى الأزرق أنه أنشده :

وزِنِ الكلام إذا نطقت ، فإنما   يبدى العقولَ أو العيوبَ المنطقُ
لا أَلفينك ثاوياً فى غربة   إن الغريب بكل سَهْم يُرشَق
لو سار ألف مُدَجّج فى حاجة   لم يقضها إلا الذى يترفق

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يلزم الرفق فى الأوقات ، والاعتدال فى الحالات ؛ لأن الزيادة على المقدار فى المبتغى عيب ، كما أن النقصان فيما يجب من المطلب عجز ، ومالم يصلحه الرفق لم يصلحه العنف . ولا دليل أمهر من رفق ، كما لا ظهير أوثق من العقل ، ومن الرفق يكون الاحتراز ، وفى الاحتراز ترجى السلامة . وفى ترك الرفق يكون الخرق ، وفى لزوم الخرق تخاف الهلكة .

ولقد أنشدنى الأبرش :

عليك بوجه القصْد ، فاسلكْ سبيلَهُ   ففى الجور إهلاكٌ ، وفى القصد مسلك
إذا أنت لم تعرف لنفسك قدرها   تُحَمِّلها مالا تطيق فتهلِك

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الرافق لايكاد يُسبق ، كما أن العَجِل لايكاد يَلْحق ، وكما أن من سكت لا يكاد يندم ، كذلك من نطق لا يكاد يسلم والعَجِل يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويحمد قبل أن يُجرِّب ، ويذم بعد مايحمد ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويمضى قبل أن يعزم ، والعَجَل تصحبه الندامة ، وتعتزله السلامة ، وكانت العرب تكنى العَجلة : أمّ الندامات .

ولقد أنشدني بعض أهل العلم :

العجز ضُرٌّ ، وما بالحزم من ضرر　　وأحزم الحزم سوء الظن بالناس
لا تترك الحزم في أمر تحاذره　　فإن أمنت فما بالحزم من باس

أخبرنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب قال : كان يقال : لا يوجد العجول محموداً ، ولا الغضوب مسروراً ، ولا الحر حريصاً ، ولا الكريم حسوداً ، ولا الشره غنياً ، ولا الملول ذا إخوان .

وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي :

إذا ما أتيتَ الأمر من غير بابه　　تَصَعَّبَ ، حتى لا ترى فيه مُرْتَقِي
وإن الذي يصطاده الفَخُّ إن عتا　　على الفخ كان الفخ أعتى وأضيقا

قال أبو حاتم رضي الله عنه : العجلة تكون من الحِدَّة ، وصاحب العجلة إن أصاب فرصته لم يكن محموداً ، وإن أخطأها كان مذموماً ، والعجل لا يسير إلا منا كباً للقصد ، منحرفا عن الجادَّة ، يلتمس ماهو أنكد وأوعر وأخفى مَسَارا ، يحكم حكم الوَرْهاء ، ويناسب أخلاق النساء .

ولقد حدثنا عمرو بن محمد الأنصاري حدثنا الغلابي حدثنا مهدي بن سابق قال : قال خالد بن بَرْمك : من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق أن لا ينزل به كبير مكروه : العجلة ، واللَّجاجة ، والعُجب ، والتواني ، فثمرة العجلة الندامة ، وثمرة اللجاجة الحيرة ، وثمرة العجب البغضة ، وثمرة التواني الذل .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : العجلة موكل بها الندم ، وما عجل أحد إلا اكتسب ندامة ، واستفاد مذمة ؛ لأن الزلل مع العجل ، والإقدامُ على العمل بعد التأني فيه أحزم من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه ، ولا يكون العجول محموداً أبداً ، والعاقل يعلم أن العجز في الأمور يقوم في النقص مقام الإفراط في السعي فيتجنبهما معاً ، ويجعل لنفسه مسلكا بينهما .

ولقد حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن مُنيب

حدثنى إبراهيم بن عاصم قال : سمعت صدقة يقول : سمعت الشمردل يقول : نكح العجزُ التوانى ، فولّد الندامة .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : سبب النجاح ترك التوانى ، ودواعى الحرمان الكسل ،لأن الكسل عدو المروءة ، وعذاب على الفتوة ، ومن التوانى والعجز أنتجت الهلكة ، وكما أن الأناة بعد الفرصة أعظم الخطأ كذلك العجلة قبل الإمكان نفس الخطأ ، والرشيد من رَشَدَ عن العجلة ، والخائب من خاب عن الأناة ، والعجِل مخطىء أبداً ، كما أن المتثبت مصيب أبداً .

حدثنى محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا محمد بن الحسن المصرى حدثنى نعيم ابن حماد حدثنا ابن المبارك حدثنا معمر قال : كتب عمرو إلى معاوية يعاتبه فى التأنى « أما بعد ، فإن التفهم فى الخير زيادة ورشد ، وإنه من لاينفعه الرفق يضره الُخرْق ، ومن لا تنفعه التجارِب لايدرك المعانى ـ أو قال : المعالى ـ ولا يبلغ الرجل مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله ، وتصبره شهوته ، ولا يدرك ذلك إلا بقوة الحلم » .

وأنشدنى محمد بن حبيب الواسطى :

بُنىَّ إذا ماساقك الضر فاتئِد ... فَللرِّفْقُ أولى بالأريب وأحرز
فلا تحمين عند الأمور تعزُّزًا ... فقد يُورث الذل الطويل التعزز

أخبرنى محمد بن المنذر حدثنا إسماعيل بن إسحاق حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد عن أيوب قال : قال أكثم بن صَيْفى : مايسرنى أنى نزلت بدار معجزة ، فأسمنت وألبنت (١) ، قيل له : لم ؟ قال : لإنى أخاف أن أتخذ العجزعادة .

وأنشدنى المنتصر بن بلال :

وعليك فى بعض الأمور صعوبة ... والرفق للمستعصبات مدان
وبحسن عقل المرء يثبت حاله ... وعلى المَغَارس تثمر العيدان

(١) أسمنت : صرت ذا سمن . وألبنت : صرت ذا لبن .

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، حدثنا مهدى بن سابق عن عبد الله ابن عياش عن أبيه قال : شهد أعرابي عند معاوية شهادة ، فقال معاوية : كذبت ، فقال الأعرابى : إن الكاذب للمتزمِّلُ فى ثيابك ، فقال معاوية : هذا جزاء من يعجل .

ذكر الحث على تعلم الأدب ولزوم الفصاحة

حدثنا الحسين بن إدريس الأنصارى أنبأنا أحمد بن أبى بكر عن مالك عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ من البيان لسحراً » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قد شبه النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الخبر البيان بالسحر ؛ إذ الساحر يستميل قلب الناظر إليه بسحره وشعوذته . والفصيح الذَّرِبُ اللسان يستميل قلوب الناس إليه بحسن فصاحته ونظم كلامه ، فالأنفس تكون إليه تائقة ، والأعين إليه رامقة .

ولقد حدثنا أبو خليفة حدثنا أبو محمد التوزى البغوى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا حبان بن عليّ قال : سمعت ابن شُبرمة يقول : ما رأيت لباساً على رجل أحسن من فصاحة ، ولا على امرأة أحسن من شحم ، وإن الرجل ليتكلم فيُعرِب ؛ فكأن عليه الخزّ الأدكن ، وإن الرجل ليتكلم فيلحن فكأن عليه أسمالا [1] وإن أحببت أن يصغر فى عينك الكبير ، ويكبر فى عينك الصغير ؛ فتعلم النحو

وأنشدنى الكريزى :

أكرم بذى أدب أكرم بذى حسب ... فإنما العزم فى الأحساب والأدب
والناس صنفان ذو عقل وذو أدب ... كمعدِن الفضة البيضاء والذهب
وسائر الناس من بين الورى هَمَج ... كانوا موالىَ أو كانوا من العرب

وأنشدنى البسَّامى :

---

(١) الأسمال : الثياب البالية .

ليس المسوّدُ مَنْ بالمال سؤدده ... بل المسود من قد ساد بالأدب
لأن من ساد بالأموال سؤدده ... مادام فى جمع ذى الأموال والنشب
إن قَلَّ يوماً له مال يصير إلى ... هُون من الأمر فى ذُل وفى تعب

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الفصاحة أحسن لباس يلبسه الرجل ، وأحسن إزار يتّزر به العاقل ، والأدب صاحب فى الغربة ، ومؤنس فى القلة ، وزين فى المحافل ، وزيادة فى العقل ، ودليل على المروءة ، ومن استفاد الأدب فى حداثته انتفع به فى كبره ؛ لأن من غرس فَسيلاً [1] يوشك أن يأكل رُطَبَها ، وما يستوى عند أولى النهى ، ولا يكون سيان عند ذوى الحجى : رجلان : أحدهما يلحن ، والآخر لا يلحن .

وقد حدثنا الحسين بن محمد بن مصعب السمجى حدثنا أبو داود حدثنا عبد الله بن بكر بن حبيب حدثنا أبى عن سالم بن قتيبة قال : كنت عند ابن هبيرة فجرى الحديث ، حتى ذكروا العربية ، فقال : والله مااستوى رجلان حَسَبهما واحد ، ومروءتهما واحدة ، أحدهما يلحن ، والآخر لا يلحن ، إلا أن أفضلهما فى الدنيا والآخرة الذى لا يلحن ، قال : فقلت : أصلح الله الأمير ! هذا أفضل فى الدنيا لفضل فصاحته وعربيته ، أرأيت الآخرة ، ماباله فُضِّل فيها ؟ قال : إنه يقرأ كتاب الله على ماأنزل ، والذى يلحن يحمله لحنه على أن يدخل فى كتاب الله ماليس فيه ، ويخرج منه ماهو فيه . قال : قلت : صدق الأمير وبَرَّ .

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

أيها الطالب فخراً بالنسبْ ... إنما الناس لأم ولأب
هَلْ تراهم خلقوا من فضة ... أو حديد أو نحاس أو ذهب ؟
أو ترى فضلهم فى خَلقهم ... هل سوى لحمٍ وعظمٍ وعَصَب ؟
إنما الفضل بحلم راجح ... وبأخلاق كرام وأدب

---

(١) الفسيل : صغار النخل .

ذلكَ مَن فاخر فى الناس به   فاق من فاخر منهم وغلب

وأنشدنى محمد بن نصر بن نوفل أنشدنى عبد العزيز بن أحمد بن بكار إمام مسجد مكة :

ما حُـلَّةٌ نُسجت بالدُّرِّ والذهب   إلا وأحسن منها المرء بالأدب

حدثنا محمد بن أبى على الخلادى حدثنا أحمد بن محمد المسروقى حدثنا محمد بن الحسين البرجلانى حدثنا أبو عمر العمرى حدثنى عبد الله بن سلمة بن مرداس عن أبيه قال : قال لى رجل من حكماء الفرس : أقربُ القرابة المودة الدائمة ، وأفضل ماورث الآباء الأبناء حسن الأدب .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أفضل ماورث أب ابناً ثناء حسن وأدب نافع ، والخرس عندى خير من البيان بالكذب ، كما أن الحصور خير من العاهر .

فيجب على العاقل أن يذكى قلبه بالأدب ، كما يذكى النار بالحطب ؛ لأن من لم يذكِ قلبه رَان حتى يَسْوَدَّ ، ومن تعلم الأدب فلا يتخذه للمماراة عُدَّة ، ولا للمباراة ملجأ ، ولكن يقصد قصد الانتفاع بنفسه ، وليستعن به على مايقربه إلى بارئه .

ولقد أنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

أدبُ المرء كلحم ودمٍ   ماحواه رجل إلا صَلحْ

لو وزنتم رجلا ذا أدب   بألوف من ذوى الجهل رجح

أنبأنا أحمد بن بشر الكوخى حدثنا محمود بن الخطاب حدثنا رُستَه عبدالرحمن بن عمر قال : سمعت عبد الرحمن بن مهدى يقول : ماندمت على شىء ندامتى أنى لم أنظر فى العربية .

سمعت إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضى يقول : سمعت ابن أخى الأصمعى يقول: سمعت عمى يقول : تعلموا النحو ، فإن بنى سرائيل كفروا بكلمة

واحدة ، كانت مشددة فخففوها : قال الله « ياعيسى إنى ولّدْتك » فقرأوا يا عيسى إنى ولَدْتك مخفف فكفروا .

حدثنا الحسن بن إسحاق الإصبهانى حدثنا أبو أمية حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا أبو زيد النحوى قال : جاء رجل إلى الحسن ، فقال : ماتقول فى رجل ترك أبيه وأخيه ؟ فقال الحسن : ترك أباه وأخاه ، قال الرجل : فما لأباه ولأخاه ؟ فقال الحسن : فما لأبيه ولأخيه ، فقال الرجل : كلما تابعتك خالفت .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا زينة أحسن من زينة الحسب ، كما أن من أجمل الجمال استعمال الأدب ، ولا حسن لمن لا أدب له ، ومن كان من أهل الأدب ممن لا حسب له يبلغ به أدبه مراتب أهل الأحساب ؛ لأن حسن الأدب خَلَف من الحسب ، وليست الفصاحة إلا إصابة المعنى والقصد ، ولا البلاغة إلا تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، ومن أحمد الفصاحة الاقتدار عند البداهة والغزارة عند الإطالة ، وأحسن البلاغة وضوح الدلالة ، وحسن الإشارة .

ولقد سمعت محمد بن نصر بن نوفل المروزى يقول : سمعت أبا داود السنجى يقول : سمعت الأصمعى يقول : ليست البلاغة بخفة اللسان ، ولا كثرة الهذيان ، ولكن بإصابة المعنى والقصد إلى الحاجة ، و إن أبلغ الكلام مالم يكن بالقروى المجدّع ، ولا البدوى المعرّب .

وأنشدنى الكريزى :

ولم أر فضلاً تَمَّ إلا بشيمة ... ولم أر عقلا صح إلا على أدب

ولم أر فى الأعداء حين اختبرتهم ... عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب

حدثنا عمر بن محمد حدثنا الغلابى حدثنا محمد بن عبيد الله الجشمى قال : قال المدائنى : ذكر عند على بن عبد الله بن عباس بلاغة رجل ، فقال : إنى لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلا على مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الكلام مثل اللؤلؤ الأزهر ، والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر ، إلا أن بعضه أفضل من بعض ، ومنه ما يكون مثل الخزف والحجر والتراب والمدَرِ ، وأحوج الناس إلى لزوم الأدب وتعلم الفصاحة أهل العلم ؛ لكثرة قراءتهم الأحاديث ، وخوضهم فى أنواع العلوم .

ولقد سمعت محمد بن نصر بن نوفل يقول : سمعت أبا داود السنجى أو حدثنى سهل بن هانى عنه ، قال : سمعت الأصمعى يقول : إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل فيما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن لحاناً ، ولم يلحن فى حديثه ، فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه .

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى :

ليس الفتى كلُّ الفتى ... إلا الفتى فى أدبه
وبعضُ أخلاق الفتى ... أولى به من نسبه
حَتْفُ امرىء لسانه ... فى جِدّه أو لعبه
بين اللَّهَى مقتله ... رُكِّبَ فى مركَّبه

سمعت أحمد بن الخطاب بن مهران بتُسْتَر يقول : سمعت عثمان خُرْزَاذَ يقول : سمعت على بن الجعد يقول : سمعت شعبة يقول : مثل الذى يطلبُ الحديث ولا يعرف النحو مثل الدّابة عليها المخلاة ، ليس فيها شىء .

ذكر إباحة جمع المال للقائم بحقوقه

حدثنا أحمد بن محمد بن الحسين ابن بنت الحسن بن عيسى بن ماسَرْجِسَ حدثنا جدى حدثنا ابن المبارك أنبأنا موسى بن على بن رباح عن أبيه عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ياعمرو نِعِمَّا المال الصالح للرجل الصالح » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : هذا الخبر يصرح عن النبى صلى الله عليه وسلم بإباحة جمع المال من حيث يجب ، ويحل للقائم فيه بحقوقه ؛ لأن فى تقرينه الصلاح بالمال والرجل معاً بياناً واضحاً ؛ لأنه إنما أباح فى جمع المال الذى لا يكون بمحرم على جامعه ، ثم يكون الجامع له قائماً بحقوق الله فيه ، ولقد ذكرت هذه المسألة بتمامها بالعلل والحكايات فى كتاب « الفصل بين الغنى والفقر » بما أرجو الغنية فيها لمن أراد الوقوف على معرفتها ، فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب .

أنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

إذا كان ماجمّعت ليس بنافع فأنتَ وأقصى الناسِ فيه سواءُ
على أن هذا خارجٌ من أثامه وأنت الذى تجزى به وتساء

أنبأنا محمد بن سليمان بن فارس حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا أبو عياد حدثنا شعبة عن قتادة قال : سمعت مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير يحدث عن حكيم بن قيس بن عاصم عن أبيه أنه أوصى بنيه عند موته ، فقال : عليكم بالمال واصطناعه فإنه مَنبهة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم ، وإياكم ومسألة الناس ؛ فإنها كسبُ الرجل .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن من أحسن ماينتفع المرء [به] فى عمره وبعد الممات تقوى الله والعمل الصالح .

فالواجب على العاقل أن يعمل فى شبابه فيما يقيم به أَوَدَهُ ، كالشىء الذى لا يفارقه أبداً ، وفيما يصلح به دينه كالشىء الذى لا يجده غداً ، وليكن تعاهدهُ لله مايصلحُ به معاشُه ، ويصون به نفسه ، وفى دينه مايقدم به لآخرته ، ويرضى به خالقه ، والفاقة خير من الغنى بالحرام ، والغنىُّ الذى لامروءة له أهون من الكلب ، وإن هو طُوِّقَ وَخُلْخِلَ .

حدثنى محمد بن عثمان العقبى حدثنا عمران بن موسى بن أيوب حدثنى أبى

حدثني عيسى بن يونس عن محمد بن سُوقة عن محمد بن المنكدر قال : نعم العون على تقوى الله الغنى .

وأنشدني علي بن محمد البسامي :

أرى كلَّ ذي مال يسود بماله ... وإن كان لا أصلٌ هناك ولا فصلُ
وآخرَ منسوباً إلى الرأي خاملا ... وأنوَكَ مجهولا ، لهُ الجاهُ والنُّبْلُ
فلا ذا بفضل الرأي أدرك بُلْغَةً ... ولم أرَ هذا ضَرَّهُ النَّوْكُ والجهلُ

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي ليحيي بن أكثم :

إذا قَلَّ مال المرء قَلَّ بهاؤه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لايدري ، وإن كان حازماً ... أَقُدَّامهُ خيرٌ له أم وراؤه
ولم يمض في وجه من الأرض واسع ... من الناس إلا ضاق عنه فضاؤه
وأصبح مردوداً عليه مقالُه ... وكان به قد يقتدى خطباؤه
وإن يبق لم يَضْرُرْ عدوًّا بقاؤه ... وإن يَفْنَ لم يفقد لخير فَناؤه

حدثني محمد بن المهاجر حدثنا أحمد بن حماد البربري عن سليمان بن أبي شيخ حدثني الزبيري قال : مر عمر بن الخطاب بمحمد بن مَسلَمَة وهو يغرس وَدِيًّا [1] ، فقال : ماتصنع يا ابن مسلمة ؟ قال : ماترى ، أستغني عن الناس ، كما قال صاحبكم أحيحة بن الُجلاح :

استغن ، أو مُت فلايَغْرُرْكَ ذونسَبٍ ... من ابن عم ، ولا عم ، ولا خال
إني أُظَلَّ على الزوراء أعمرها ... إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال

أنبأنا محمد بن المنذر حدثنا علي بن عبد الرحمن عن عبدان قال : دخلت على عبد الله بن المبارك ، وهو يبكي ، فقلت له : مالك ياأبا عبد الرحمن ؟ قال : بضاعة لي ذهبتْ ، قال : قلت : أو تبكي على المال ؟ قال : إنما هو قوام ديني .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : إن من أسعد الناس من كان في غناه عفيفاً .

(١) الودي ـ بفتح الواو وكسر الدال وياء مشددة ـ صغار النخل ، واحدته ودية

وفى مسكنته قنعاً ؛ لأن من نزل به الفقر لم يجد بُدًّا من ترك الحياء ، والفقرُ يذهب العقل والمروءة ، و يذهب العلم والأدب ، وكاد الفقر أن يكون كفراً ، ومن عُرف بالفقر صار مَعْدناً للتهمة ، ومجمعاً للبلايا ، اللهم إلا أن يرزق المرء قلباً نقيًّا قنعاً ، يرى الثوب المدَّخر من الضجر الشديد ، فحينئذ لا يبالى بالعالم بأسرهم والدنيا وما فيها ، والفقر داعية إلى المَهانة ، كما أن الغنى داعية إلى المهابة ، ولقد أحسن الذى يقول :

يغطِّي عيوبَ المرءِ كثرةُ ماله ... وصُدِّقَ فيما قال ، وهو كذوبُ
ويُزْرى بعقل المرء قِلَّةُ ماله ... يُحَمِّقه الأقوام وهو لبيبُ

أنبأنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحى حدثنا النمر بن قادم حدثنا حماد بن زيد عن أيوب قال : قال لى أبو قِلابة : ياأيوب ، الزم سوقك ، فإنك لا تزال كريماً على إخوانك مالم تحتج إليهم .

وأنشدنى العقبى أنشدنى محمد بن خلف التيمى بالكوفة .

كأنَّ مُقِلاًّ حين يغدو لحاجة ... إلى كل من يلقى من الناس مذنبُ
وكان بنو عمى يقولون : مرحباً ... فلما رأونى مُعْدِمًا مات مرحبُ

وأنشدنى الكريزى :

لعمرك إن المال قد يجعل الفتى ... نسيباً ، و إن الفقر بالمرء قد يُزْرى
ولا رفع النفس الدنيئة كالغنى ... ولا وضع النفس الكريمة كالفقر

حدثنا محمد بن يحيى العمى ببغداد حدثنا الصمت بن مسعود حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب قال : قال لى أبو قلابة : الزم السوق ، فإن الغنى من العافية .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : ليس خلة هى للغنىِّ مدح إلا وهى للفقير عيب ؛ فإن كان الفقير حليما قيل : بليد ، و إن كان عاقلا قيل : مكار ، و إن كان بليغاً قيل : مهذار ، و إن كان ذكياً قيل : حديد ، و إن كان صموتاً قيل : عَيِيٌّ ، و إن

كان متأنياً قيل : جبان ، و إن كان عارماً قيل : جرىء ، وإن كان جواداً قيل : مسرف ، و إن كان مقدِّراً قيل : ممسك .

وشر المال ما اكتُسب من حيث لايَحِلّ وأُنفق فيما لايَجْمُل ، ووجوده وعدمه ليسا بتجلد ولا بكثرة حيلة ، ولكنه أقسام ومواهب من الخلّاق العليم (١)

ولقد أنشدنى الأبرش :

يشقى رجالٌ ، و يشقى آخرون بهم ... ويُسعدُ الله أقواماً بأقوام

وليس رزق الفتى من حُسن حيلته ... لكن جُدود بأرزاق وأقسام

كالصيد يُحْرِمُهُ الرامى المجيد ، وقد ... يَرمى فيُرزقُهُ من ليس بالرامى

حدثنى محمد بن سعيد القزاز حدثنا أحمد بن داود بن موسى العطار حدثنا أحمد بن نصر العدنى حدثنا المندنى قال : قال أبو قيس بن معد يكرب ، وكان له أحد عشر ذَكرا : يا بَنِيَّ ، اطلبوا هذا المال أجمل الطلب ، واصرفوه فى أحسن مذهب ، صِلوا به الأرحام ، واصطنعوا به الأقوام ، واجعلوه جُنَّةً لأعراضكم تحسن فى الناس قالَتُكم ، فإن جمعه كمال الأدب ، و بذلَه كمال المروءة ، حتى إنه ليسود غير السيد ، و يقوِّى غير الأيَّد ، وحتى إنه ليكون فى أنفس الناس نبيها ، وفى أعينهم مهيبا . ومن جمع مالا فلم يَصُن عرضا ، ولم يعط سائلا ، بحث الناسُ عن أصله ؛ فإن كان مدخولا هتكوه ، و إن كان صحيحاً نسبوه إما إلى عِرْضٍ دنية ، و إما إلى لَوْص (٢) لئيم حتى يُهَجِّنوه .

---

(١) فإذا كان كذلك فما بال أبى قلابة يقول « الزم سوقك فإن الغنى من العافية » ؟ نعم هو هبة من الخلاق العليم ، ولكن الخلاق العليم هو سبحانه الخبير الحكيم ، الذى جعل لكل شىء سبباً ، ودعا الإنسان إلى الأخذ بأسباب ماسخر له فى السموات والأرض ، متوكلا على الله ، ضارعاً إليه أن يديم عليه التوفيق لهذه الأسباب ، والإحسان فيها والتقدير لها ، وشكرها لمسديها ، والله يقول (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لايبخسون)

(٢) فى اللسان : لاصه بعينه لوصا ، ولاوصه : طالعه من خلل أو ستر . وقيل: =

حدثنى مطهر بن يحيى بن ثابت بواسط حدثنا سنان القطان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال « سمع رجل صوتا فى غمام : اذهبى إلى أرض فلان فاسقيه ، قال : فقال الرجل : : لآتين فلانا هذا فلأنظرنّ مايعمل فى أرضه ، فأتاه وقد مُطر فيها وهو قائم يفتح الأواعى ، فسلم عليه وقال : ياعبد الله ، أخبرنى ماتعمل فى أرضك هذه ؟ قال : أنظر إلى ما أخرج الله منها ، فأرد فيها ثلثه ، وأتصدق بثلثه ، وآكل أنا وعيالى ثلثه . قال علقمة : فكان ابن مسعود يبعثنى إلى أرض له بزازان أفعل فيها مثل ذلك .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن شر المال مالا يُخرج منه حقوقه ، وإن شرًّا منه ما أخذ من غير حِلِّه ، ومنع من حقه ، وأنفق فى غير حله ، واستثمار المال قِوام المعاش ، ولا بد للمرء من إصلاح ماله ، وما ارتفع أحد قط من إصلاح ماله صالحا كان أو طالحا .

ولا يجب للعاقل أن يعتمد على مجاورة نعم الله عنده فلا يقضى منها حقوقها ؛ لأن من أساء مجاورة نِعَم الله أساءت مجاورته ، وتحولت عنه إلى غيره .

ولقد أنشدنى ابن زنجى البغدادى :

فإن كنتَ فى خير ، فلا تغترر به ... ولكن قل : اللهمَّ سَلِّم وتمم
فمن لَمْ يَصُنْ عِرْضا إذا ما استفاده ... ويشكر لأهل الخير يُسْلَبْ ويُذمم

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابى أنشدنا مهدى بن سابق :

ورُبَّ مُمَلَّكٍ مالا كثيرا ... ولكن حَظُّهُ منه قليل
يعيش بفضله هذا وهذا ... وقد سالت به فيه سيول
له منه الذى يحيا عليه ... بعيشته ، وسائره فضول

= الملاوصة : النظر يمنة ويسرة ، كأنه يروم أمرا ـ إلى أن قال ـ والإنسان يلاوص الشجرة إذا أراد قلعها بالفأس ، فتراه يلاوص فى نظره يمنة ويسرة كيف يضربها ، وكيف يأتيها ليقتلعها .

حدثنا أحمد بن الحسين الحرازى ـ بالموصل ـ حدثنا أحمد بن سنان القطان حدثنا كثير بن هشام عن عيسى بن إبراهيم عن معاوية بن عبد الله عن كعب قال : أول من ضرب الدينار والدرهم آدم ، وقال : لاتصلح المعيشة إلا بهما .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قد ذكرت ما شاكل هذه الحكايات فى كتاب « السخاء والبذل » فأغنى عن ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب .

ذكر الحث على إقامة المروءات

حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضى وعبد الله بن محمود بن سليمان السعدى قالا : حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله العتكى حدثنا مسلم بن خالد الزنجى عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « كرم الرجل دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه خُلُقُهُ » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : صرح النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الخبر بأن المروءة هى العقل ، والعقل اسم يقع على العلم بسلوك الصواب واجتناب الخطأ .

فالواجب على العاقل أن يلزم إقامة المروءة بما قدر عليه من الخصال المحمودة ، وترك الخلال المذمومة .

وقد نبغت نابغة اتكلوا على آبائهم ، واتكلوا على أجدادهم ، فى الذكر والمروءات ، و بعدوا عن القيام بإقامتها بأنفسهم .

ولقد أنشدنى منصور بن محمد فى ذَمِّ مَنْ هذا نعته :

إن المروءة ليس يُدركها امرؤ ... ورثَ المروءة عن أبٍ ، فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا ... ونهته عن طلب العلى فأطاعها
فإذا أصاب من الأمور عظيمةً ... يبنى الكريم بها المروءة باعها

وأنشدنى محمد بن إسحاق :

خساسة أخلاق الرجال تُشينهم ... وقلَّ غناء عنهم النسب المحضُ

يصولون بالآباء فى كل مشهد ... وقد غيَّبَت آباءهم عنهمُ الأرضُ
طويلٌ تبدِّيهم بمجـدِ أبيهمُ ... وما لهمُ فى المجد طول ولا عرضُ

وأنشدنى الحسين بن أحمد البغدادى :

ليس الـكريم بمن يُدَنِّس عرضه ... ويرى مروءته تكون بمن مضى
حتى يشـيدَ بنـاءه ببنَائه ... ويزينَ صالحَ ما أتوه بمـا أتى

قال أبو حاتم رضى الله عنه : ما رأيت أحداً أخسرَ صفقة ، ولا أظهر حسرة ، ولا أخيب قصداً ، ولا أقلَّ رشدا ، ولا أحمقَ شعارا ، ولا أدنسَ دثارا ، من المفتخر بالآباء الـكرام وأخلاقهم الجسام ، مع تعَرِّيه عن سلوك أمثالهم ، وقصد أشباههم ، متوهِّما أنهم ارتفعوا بمن قبلهم ، وسادوا بمن تقدمهم ، وهيهات ! أنَّى يسود المرء على الحقيقة إلا بنفسه ؟ وأنَّى يَنْبُل فى الدارين إلا بكده ؟

ولقد أنشدنى البسامى :

وكم قائل : إنى ابن بيت ، هو ابنه ... وقد هدم البيتَ الذى مات عامرُهْ
فأودى عَمُودَاه ، ورثَّت حِباله ... وأصلحَ أُولاهُ ، وأفسد آخرُهْ

وأنشدنى الأبرش :

فإن قلتَ : لى آباءُ صدق ومنصبٌ ... كريم وإخوانٌ مضتْ وجـدودُ
صدقتَ ، ولـكن أنت هدَّمت ما بَنَوْا ... بكفك عمـداً ، والبنـاء جديدُ

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

إن لم تـكن بفِعَال نفسك سامياً ... لم يغن عنك سُموُّ من تسمو به
ليس القديم على الحديث براجع ... إن لم تجـده آخذاً بنصيبه
ولربمـا اقترب البعيـد بوُدِّه ... وغدا القريب مباعِـداً لقريبه

أنبأنا الحسين بن محمد بن مصعب السنجى حدثنا أبو داود السنجى حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الحسن قال : لا دين إلا بمروءة .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : اختلف الناس فى كيفية المروءة :

فمن قائل قال : المروءة ثلاثة : إكرام الرجل إخوانَ أبيه ، وإصلاحه مالَه ، وقعوده على باب داره .

ومن قائل قال : المروءة : إتيان الحق ، وتعاهد الضيف .

ومن قائل قال : المروءة : تقوى الله ، وإصلاح الضيعة ، والغداء والعشاء فى الأفنية .

ومن قائل قال : المروءة : إنصاف الرجل مَنْ هو دونه ، والسمو إلى من هو فوقه ، والجزاء بما أُتىَ إليه .

ومن قائل قال : مروءة الرجل: صدق لسانه ، واحتماله عَثَرات جيرانه ، وبذله المعروف لأهل زمانه ، وكَفُّه الأذى عن أباعده وجيرانه .

ومن قائل قال : إن المروءة : التباعد من الخُلق الدَّنِىّ فقط .

ومن قائل قال : المروءة : أن يعتزل الرجل الريبة ؛ فإنه إذا كان مريباً كان ذليلا ، وأن يصلح ماله ؛ فإن من أفسد ماله لم يكن له مروءة ، والإبقاء على نفسه فى مطعمه ومشربه .

ومن قائل قال : المروءة : حسن العشرة ، وحفظ الفرج واللسان ، وترك المرء مايعاب منه .

ومن قائل قال : المروءة : سَخَاوة النفس ، وحسن الخلق .

ومن قائل قال : المروءة : العِفَّة والحِرْفة ، أى يَعفَّ عما حرم الله ، ويحترف فيما أحل الله .

ومن قائل قال : المروءة : كثرة المال والولد .

ومن قائل قال : المروءة : إذا أُعطيتَ شكرتَ ، وإذا ابْتُلِيت صبرتَ ، وإذا قدرتَ غفرت ، وإذا وعدت أنجزت .

ومن قائل قال : المروءة : حسن الحيلة فى المطالبة ، ورقة الظرف فى المكاتبة .

ومن قائل قال : المروءة : اللطافة فى الأمور ، وجودة الفطنة .

ومن قائل قال : المروءة : مجانبة الريبة ؛ فإنه لاينبُل مريب ، و إصلاح المال ؛ فإنه لاينبل فقير ، وقيامه بحوائج أهل بيته ؛ فإنه لاينبل من احتاج أهل بيته إلى غيره .

ومن قائل قال ؛ المروءة : النظافة ، وطيب الرائحة .

ومن قائل قال : المروءة : الفصاحة والسماحة .

ومن قائل قال : المروءة : طلب السلامة ، واستعطاف الناس .

ومن قائل قال : المروءة : مراعاة العهود ، والوفاء بالعقود .

ومن قائل قال: المروءة : التذلل للأحباب بالتملق ، ومداراة الأعداء بالترفق.

ومن قائل قال : المروءة : ملاحة الحركة ، ورقة الطبع

ومن قائل قال : المروءة : هى المفاكهة ، والمباسمة .

حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا سويد بن سعيد حدثنا مسلم بن عبيد أبو فراس قال : قال ربيعة : المروءة مروءتان : فللسفر مروءة ، وللحضر مروءة :

فأما مروءة السفر فبذل الزاد ، وقلة الخلاف على الأصحاب ، وكثرة المزاح فى غير مَسَاخط الله .

وأما مروءة الحضر : فالإدْمَان إلى المساجد ، وكثرة الإخوان فى الله ، وقراءة القرآن .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : اختلفت ألفاظهم فى كيفية المروءة ، ومعانى ماقالوا قريبة بعضها من بعض .

والمروءة عنـدى خصلتان : اجتناب ما يكره الله والمسلمون من الفعال ، واستعمال مايحب الله والمسلمون من الخصال .

وهاتان الخصلتان يأتيان على ماذكرنا قبلُ من اختلافهم ، واستعمالها هو العقل نفسه ، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم « إن مروءة المرء عقله » .

ومن أحسن مايستعين به المرء على إقامة مروءته المال الصالح .

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

احتل لنفسك أيها المحتالُ　　فمن المروءة أن يُرَى لك مالُ
كم ناطق وسط الرجال وإنما　　عنهم هناك تَكلَّمُ الأموالُ

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يقيم مروءته بما قدر عليه ، ولا سبيل إلى إقامة مروءته إلا باليسار من المال ، فمن رزق ذلك وضَنَّ بإنفاقه فى إقامة مروءته . فهو الذى خسر الدنيا والآخرة ، ولا آمن أن تفجأه المنية فتسلبه عما ملك كريها ، وتودعه قبراً وحيداً . ثم يرث المال بعد من يأكله ولا يحمده ، وينفقه ولا يشكره ، فأى ندامة تشبه هذه ؟ وأى حسرة تزيد عليها ؟

ولقد أنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

ياجامع المال فى الدنيا لوارثه　　هل أنت بالمال قبل الموت منتفعُ
قدم لنفسك قبل الموت فى مَهَلٍ　　فإنّ حظك بعد الموت منقطعُ

أنبأنا الفضل بن محمد الجندى ـ بمكة ـ حدثنا إسحاق بن إبراهيم الطبرى حدثنا أزهر عن ابن عون عن ابن سيرين قال : ثلاثة ليست من المروءة : الأكل فى الأسواق ، والادِّهان عند العطار ، والنظر فى مرآة الحجام .

حدثنا محمد بن إسحاق الثقفى حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى حدثنا هُشَيْمَ عن مغيرة عن الشعبى قال : ليس من المروءة النظر فى مرآة الحجام .

حدثنا محمد بن يحيى بن الحسن العمى ببغداد حدثنا الصلت بن مسعود حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب قال : سمعت أبا قلابة يقول : ليس من المروءة أن يربح الرجل على صديقه .

وأنشدنى البسامى :

اعلم بأنك ـ لا أبالك ـ فى الذى　　أصبحت تجمعُهُ لغيرك خازنُ
إنَّ المنية لاتؤامر مَنْ أتت　　فى نفسه يوماً ، ولا تستأذنُ

أنبأنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابى حدثنا ابن عائشة عن أبيه قال : كان

يقال : مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلب صَدَأَ الذنوب ، ومجالسة ذوى المروءات تدل على مكارم الأخلاق ، ومجالسة العلماء تذكى القلوب .

حدثنى محمد بن أبى على الخلادى حدثنا أبو أحمد بن حماد البربرى عن سليمان بن أبى شيخ حدثنا محمد بن الحكم عن عوانة قال : قال معاوية بن أبى سفيان : آفة المروءة إخوان السوء .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : والواجب على العاقل تفقد الأسباب المستحقرة عند العوام من نفسه حتى لا يثلم مروءته ؛ فإن المحقرات من ضد المروءات تؤذى الكامل فى الحال بالرجوع فى القهقرى إلى مراتب العوام وأوباش الناس (١) .

ولقدحدثنا جعفر بن محمد الهمدانى ــ بصور ــ قال : سمعت طلحة بن إسحاق ابن يعقوب قال : سمعت موسى بن إسحاق الأنصارى يقول : سمعت على بن حكيم الأودى يقول : سمعت شريكا يقول : ذل الدنيا خمسة : دخول الحمام سَحَرًا بلا كرنيب (٢) ، وعبور المعبر بلا قطعة ، وحضور مجلس العلم بلانسخة ، وحاجة الشريف إلى الدنىّ ، وحاجة الرجل إلى امرأته .

حدثنا أبو شعبة الحسن بن محمد الاصطخرى ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد ابن منصور حدثنا محمد بن عبد العزيز الرملى ، حدثنا رشدين بن سعد ، حدثنا طلحة بن زيد عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « من قلة مروءة الرجل نظره فى بيت الحائك ، وحمله الفلوس فى كمه » .

---

(١) عربية هذه الكلمة « أوشاب الناس » أى أخلاطهم .

(٢) فى القاموس : الكرنيب ــ بالفتح ، ويكسر ــ المجيع ، والكرنبة : إطعامه للضيف ، وأكل التمر باللبن . وهذه المعانى لا تناسب ماهنا ، والظاهر : أنه أراد إناء يغرف به ، وفى مدينة حلب من سوريا يستعمل هذا اللفظ لإناء على شكل مخصوص معد لغرف الجامدات من بر ونحوه .

باب الحث على لزوم السخاء ، ومجانبة البخل

أنبأنا أحمد بن يحيى بن زهير بتُسْتَرَ ، حدثنا الحسن بن عرفة بن يزيد العبدى حدثنا سعيد بن محمد الوراق ، حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخىّ قريب من الله قريب من الناس ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس ، ولَسَخِيٌّ جاهلٌ ، أحبُّ إلى الله من بخيل عابد » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن كان حفظ سعيد بن محمد إسناد هذا الخبر فهو غريب غريب .

فالواجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى من حُطام هذه الدنيا الفانية ، وعلم زوالها عنه ، وانقلابها إلى غيره ، وأنه لا ينفعه فى الآخرة إلا ماقدم من الأعمال الصالحة : أن يبلغ مجهوده فى أداء الحقوق فى ماله ، والقيام بالواجب فى أسبابه ، مبتغياً بذلك الثواب فى العقبى ، والذكر الجميل فى الدنيا ، إذ السخاء محبة ومحمدة كما أن البخل مذمة ومبغضة ، ولا خير فى المال إلا مع الجود ، كما لا خير فى المنطق إلا مع المخبر .

ولقد أنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى :

الجود مكرمة ، والبخل مبغضة لا يستوى البخل عند الله والجودُ
والفقر فيه شخوص ، والغنى دَعَة والناس فى المال مرزوق ومحدود [1]

حدثنى محمد بن أبى على الخلادى حدثنا محمد بن الحسن الذهلى ، حدثنا محمد ابن يوسف السدوسى ، حدثنا أحمد بن خالد القُثَمى ، حدثنا سليمان مولى عبد الصمد بن على : أن المنصور أمير المؤمنين قال لابنه المهدى « اعلم أن رضاء الناس غاية لاتدركُ ، فتحبب إليهم بالإحسان جهدك ، وتودَّد إليهم بالإفضال ، واقصد بإفضالك موضع الحاجة منهم » :

(١) المحدود ــ بالحاء المهملة ــ : الممنوع من البخت وغيره .

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

أعاذلتىّ اليوم ، ويحكما مَهْلاً وكُفَّا الأذى عنى ، ولا تكثرا العذلا
دعانى تَجُد كَفِّى بما ملكت يدى سأصبح يوماً أترك الجود والبخلا
إذا وضعوا فوق الضريح جنادلا علىّ وخلَّفْتُ المطية والرحلا
فلا أنا مختار إذا ما نزلته ولا أنا لاق ما ثَويت به أهلا

أنبأنا إبراهيم بن إسحاق الأنماطى حدثنا لوين ، حدثنا ابن أبى الزناد عن هشام بن عروة قال : كان أبى يقول « ما لِمْ قومٌ قطٌّ أقاموا على ماء عذب » .

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابى حدثنا بكر بن عامر العترىّ ، حدثنا هشام ابن محمد عن أبيه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال « من آتاه الله منكم مالا فليصل به القرابة ، وليُحْسِن فيه الضيافة ، وليَفُكَّ فيه العانى والأسير وابن السبيل والمساكين والفقراء والمجاهدين ، وليصبر فيه على النائبة ، فإن بهذه الخصال ينال كرم الدنيا وشرف الآخرة » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أجود الجود من جاد بماله ، وصان نفسه عن مال غيره ، ومن جاد ساد ، كما أن من بخل رذل

والجود حارس الأعراض ، كما أن العفو زكاة العقل ، ومن أتم الجود أن يتعرَّى عن المِنَّة ؛ لأن من لم يمتن بمعروفه وفَّره ، والامتنان بهذه الصنائع ، و إذا تعرَّت الصنيعة عن إزار له طرفان ، أحدهما الامتنان ، والآخر طلب الجزاء — كان من أعظم الجود ، وهو الجود على الحقيقة .

ولقد أنشدنى ابن زنجى :

يا رُبَّ عاذلة فى الجود قلتُ لها : قِلِّي ، على الله فيما أنفقُ الخلفَا
هَلْ من بخيل رأيت المال أخلده ؟ أم هل رأيت جواداً ميتاً عجفاً ؟[1]
لما رأتنى أوتى المال طالبَهُ ولا أبالى تِلادا كان أم طرُفا[2]
عدَّت سماحى تبذيراً ولست أرى مايُكسِبُ الحمدَ تبذيرا ولا سرفا

(١) العجف : الهزال (٢) الطريف : المال المستحدث ، وطرف ككرم .

أنبأنا الحسين بن سفيان ، حدثنا حبان بن موسى قال : قسم ابن المبارك يوماً بين إخوانه وأصحاب الحديث ألف درهم ، ثم أنشأ يقول :

لاخير فى المال لكُنّازه   إلا جواد الكف وهّابه
يفعل أحياناً بزوّاره   ما تفعل الخمر بشرابه

حدثنى محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا الحسن بن محمد عن ابن السماك ، قال : يا عجبى لمن يشترى المماليك بالثمن ، ولا يشترى الأحرار بالمعروف .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن من أحسن خصال المرء الجود من غير امتنان ، ولا طلب ثواب ، والحلم من غير ضعف ولا مهانة .

وأصل الجود ترك الضّن بالحقوق عن أهلها ، كما أن أصل تربية الجسد أن لا يحمل عليه فى الأكل والشرب والباه ، فكما لا تنفع المروءة بغير تواضع ، ولا الحفظ بغير كفاية ، كذلك لا ينفع العيش بغير مال ، ولا المال بغير جود ، وكما أن القرابة تبع للمودة ، كذلك المحمدة تبع للإنفاق .

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار ، حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا المبارك ابن سعيد الثورى قال : كان يقال : ثلاث هنّ أحسن شىء فيمن وجدت فيه : تُؤَدة فى غير ذل ، وجود لغير ثواب ، ونصب لغير الدنيا .

حدثنا أبو يعلى ـ بالموصل ـ حدثنا محمد بن الصباح الدولابى ، حدثنا إسماعيل ابن زكريا عن عاصم الأحول قال : قلت للحسن : مامعنى قوله صلى الله عليه وسلم « اليد العليا خير من اليد السفلى » ؟ قال : يد المعطى خير من يد المانع .

حدثنا أبو خليفة ، حدثنا ابن كثير ، أنبأنا سفيان عن الأعمش عن ذكوان وعبد الله بن مرة عن كعب قال : من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله : فقد استكمل الإيمان .

وأنشدنى الكريزى ليحيى بن أكثم :

ويُظهِرُ عيبَ المرء فى الناس بُخله   ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغطَّ بأثواب السخاء ؛ فإننى   أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وأنشدنى أحمد بن محمد بن عبد الله اليمانى لبعض القرشيين :

سأبذلُ مالى كلما جاء طالبٌ وأجعله وقفا على القَرض والفَرض
فإما كريماً صُنتُ بالجود عِرْضه وإما لئيما صُنت عن لؤمه عرضى

وأنشدنى كامل بن مكرم أبو العلاء ، أنشدنى هلال بن العلاء بن عمر الباهلى :

ملأتُ يدى من الدنيـا مراراً فمـا طمع العواذل فى اقتصـادى
وما وجبتْ على زكاة مالٍ وهل تجب الزكاة على الجواد ؟

قال أبو حاتم رضى الله عنه : البخل شجرة فى النار ، أغصانها فى الدنيا ، مَنْ تعلق بغصن من أغصانها جَرَّه إلى النار ، كما أن الجود شجرة فى الجنة أغصانها فى الدنيا ، فمن تعلق بغصن من أغصانها جرَّه إلى الجنة ، والجنة دار الأسخياء .

والبخيل يقال له فى أول درجته : البخيل ، فإذا عتا وطغى فى الإمساك يقال له : الشحيح ، فإذا ذم الجود والأسخياء يقال له : لئيم ، فإذا صار يحتج للبخلاء ويعذرهم فى فعالهم يقال له : : الملائم .

وما اتزر رجل بإزار أهتك لعرضه ، ولا أثلم لدينه من البخل .

ولقد أنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

لـكلِّ همٍّ من الهمـوم سَعَهْ والبخل واللؤم لافلاح مَعَهْ[1]
قد يجمع المـالَ غيرُ آكله ويأكل المـال غير من جمعه
اقبـلْ من الدهر ما أتاك به من قرَّ عينـا بعيشـه نفعه

سمعت الخطابى بالبصرة يقول : سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سأل كسرى : أى شىء أضر على ابن آدم ؟ قالوا : الفقر ، قال : الشح أضَرُّ منه ، إن الفقير إذا وجد اتسع ، وإن الشحيح لايتسع إذا وجد .

أنبأنا إبراهيم بن محمد بن يعقوب حدثنا ابن أبى القعقاع قال : قال أبو الهزيل : كنت عند يحيى بن خالد البرمكى ، فدخل عليه رجل هندى ، ومعه مترجم له ،

---

(١) الأبيات محفوظة لأوس بن حجر ، وفيها « والصبح والمسى لا فلاح معه »

فقال المترجم : إن هـذا رجل شاعر ، قد حاول مدحتك ، فقال يحيي : لينشد ، فقال الهندى :

أرَهِ أصرَهِ كَـگرا كى كَرَهِ مَنْدَرِهِ

فقال يحيي للمترجم : مايقول ؟ قال : يقول :

إذا المكارم فى آفاقنـا ذكرت ‌ ‌ ‌ فإنما بك فيهـا يضربُ المثـل

قال : فأمر له بألف دينار .

وأنشدنى عبد الرحمن بن محمد المقاتلى[١] :

إذا المرء لم يدنَس من اللؤم عِرْضُهُ ‌ ‌ ‌ فـكلُّ رِداءٍ يرتديه جميـلُ

إذا قلتَ : لا ، فى كل شيء سُئلته ‌ ‌ ‌ فليس إلى حسن الثناء سـبيلُ

وأنشدنى عمرو بن محمد الأنصارى أنشدنى الغلابى أنشدنى مهدى بن سابق :

يا مانع المـال ، كم تَضِنُّ به ‌ ‌ ‌ تطمع بالله فى الخـلود مَعَهْ ؟

هل حمـل المـالَ ميتٌ معه ؟ ‌ ‌ ‌ أما تراه لغـيره جمَعَـهْ ؟

أنبأنا عمران بن موسى السختيانى حدثنا سليمان بن معبد المروزى حدثنا عثمان بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرنى يحيي بن أيوب عن أبى على الغافقى سمع عامر بن عبد الله اليحصبى قال : كان ابن منبه يقول : أجود الناس فى الدنيا من جاد بحقوق الله ، وإن رآه الناس بخيلا بمـا سوى ذلك ، وإن أبخل الناس فى الدنيا من بخل بحقوق الله ، وإن رآه الناس كريماً جواداً بما سوى ذلك .

وأنشدنى علىّ بن محمد البسامى :

رب مال سينعَمُ النـاس فيـه ‌ ‌ ‌ وهو عن ربه قليل الغَنـــاء[٢]

كان يشقى به ، وينصب فيه ‌ ‌ ‌ ثم أضـحى لمعشر غرباء

ماله عنـدهم جزاء إذا ما ‌ ‌ ‌ نعموا فيـه غير سـوء الثناء

(١) أول هذين البيتين وعجز ثانيهما فى كلة مشهورة للسموأل بن عادياء .

(٢) الغناء بالفتح والمد : النفع .

رب مال يكون ذمًّا وغَمًّا　　وغنيٍّ يعد في الفقراء

حدثنا أحمد بن الحسن بن أبي الصغير المدائني حدثنا الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: كان أبو حاتم ـ يعني الطائي ـ سخيًّا، وكان يضع الأشياء مواضعها، وكان حاتم مبذراً، فاجتمع يوماً عند أبيه أصحابه، وشكا إليهم حاتما، قال: والله ما أدري ما أصنع؟ لا يأخذ شيئاً إلا بذَّره، فاجتمع رأيهم على أن لا يعطيه شيئاً سنة، قال: فأقام أبوه، ولم يمكنه من شيء سنة، مع ما هو فيه من الضر، فلما مضت السنة أمرْ له بمائة ناقة حمراء، قال: فلما وقفت عليه قال حاتم: من أحب شيئاً فهو له، حتى أخذوها كلها، فدعاه أبوه، فقال له: أي بني، ماذا تصنع؟ قال: والله يا أبي لقد بلغ الجوع مني شيئاً، لا يسألني أحد شيئاً إلا أعطيته إياه.

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان:

تجودُ بالمال على وارثٍ　　ولا ترى أهلا له نفسكا
قدَّمَ حسن الظن بالله مَنْ　　جادَ، وسوء الظن من أمسكا

أنبأنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة قال: كان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يتمثل بهذا الشعر ويعجبه.

وما تزوّدَ مما كان يجمعه　　إلا حَنوطا غداة البين مع خِرَقِ
وغيرَ نَفْحةِ أعواد تُشدُّ له　　وقلَّ ذلك من زادٍ لمنطلِقِ

أنبأنا أبو يعلى حدثنا يحيى بن أيوب المقابري حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن نافع قال « مرض ابن عمر بالمدينة، فاشتهى عنباً في غير زمانه، قال: فطلبوا، فلم يجدوا إلا عند رجل، فاشترى سبع حبات بدرهم، فجاء سائلٌ فأمر له به، ولم يذقه ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: ما رأيت أحداً من الشرق إلى الغرب ارتدى برداء الجود واتّزر بإزار ترك الأذى إلا رأسَ أشكاله وأضداده، وخضع له

الخاص والعام ، فمن أراد الرفعة العالية فى العقبى ، والمرتبة الجليلة فى الدنيا ، فليلزم الجود بما ملك ، وتركَ الأذى إلى الخاص والعام ، ومن أراد أن يهتك عرضه ، ويثلم دينه ، ويَمَلّه إخوانه ، ويستثقله جيرانه ، فليلزم البخل .

ولقد ذم البخل أهل العقل فى الجاهلية والإسلام إلى يومنا هذا ، فمنه ما أنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى .

كأنما نُقرت كفَّاه من حجر ... فليس بين يديه والنَّدَى عملُ

يرى التيمم فى بحر وفى بلد ... مخافة أن يُرى فى كَفِّه بللُ

وأنشدنى عمرو بن محمد أنشدنى الغلابى أنشدنا مهدى بن سابق :

لو أن دارك أنبتت لكَ ، واحْتَشَتْ ... إبَرًا يضيق بها فِناء المنزلِ

وأتاك يوسفُ يستعيرُك إبرة ... ليخيط قَدَّ قميصه لم تفعل

وأنشدنى أحمد بن محمد بن أيوب :

وكفَّاك لم يخلقا للندى ... ولم يك بخلهما بدْعَه

فكفٌّ عن الخير مقبوضة ... كما حط من مائة سبعه[1]

وأخرى ثلاثة آلافها ... وتسع مئيها لها شِرْعه

سمعت محمد بن نصر بن نوفل المروزى يقول : سمعت محمد بن صالح الوركانى يقول : قيل للنضر بن شُميل : أى بيت قالته العرب أسخى ؟ قال : الذى يقول :

فلو لم تكن فى كفِّه غيرُ روحه ... لجادَ بها ، فليتق الله سائلهُ

قال : وأى بيت قالته العرب أبخل ؟ فقال :

لو جُعِلَ الخردلُ فى كفِّه ... ما سَقَطَتْ من كفه خردَلَة

قال : وأى بيت قالته العرب أهجى ؟ قال :

العَجْرَفيُّون لايوفون ما وعدوا ... والعجرفيَّات ينجزن المواعيدا

---

(١) فى المحاسن والمساوى (كما نقصت مائة تسعة)

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل ، إذا لم يُعرف بالسماحة ، أن لا يعرف بالبخل ، كما لا يجب ، إذا لم يعرف بالشجاعة ، أن يعرف بالجبن ، ولا إذا لم يعرف بالشهامة أن يعرف بالمهانة ، ولا إذا لم يعرف بالأمانة ، أن يعرف بالخيانة ، إذ البخل بئس الشعارُ فى الدنيا والآخرة ، وشر مايُدّخر من الأعمال فى العقبى .

حدثنا أحمد بن عمرو بن جابر بالرملة ، حدثنا أبو عتبة الحمصى أحمد بن الفرج حدثنا ضمرة ، حدثنا إبراهيم بن أبى عبلة قال : سمعت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز تقول : أفٍّ للبخل ، والله لو كان طريقاً ماسلكته ، ولو كان ثوباً مالبسته .

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابى حدثنا العباس بن بكار الهذلى قال : قال الحسن : من أيقن بالْخَلَفِ جاد بالعطية .

ذكر الزجر عن ترك قبول الهدايا من الإخوان

حدثنا محمد بن صالح الطبرى حدثنا عبد الله بن عمران الأصبهانى – بالرى – حدثنا يحيى بن ضريس ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا سفيان الثورى عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أجيبوا الداعى ، ولا تردوا الهدية ، ولا تضربوا المسلمين » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : زجر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الخبر عن ترك قبول الهدايا بين المسلمين .

فالواجب على المرء إذا أهديت إليه هدية أن يقبلها ولا يردها ، ثم يثبت عليها إذا قدر ، ويشكر عنها ، وإنى لأستحب للناس بعثَ الهدايا إلى الإخوان بينهم ، إذ الهدية تورث المحبة وتذهب الضغينة .

ولقد حدثنا محمد بن المهاجر ، حدثنا الدارمى ، حدثنا عبد الله بن صالح ،

أنبأنا الليث قال : سمعت عبد الملك بن رفاعة الفهمى يقول : الهدية هو السِّحْر الظاهر .

حدثنى إبراهيم بن أبى أمية بطرسوس ، حدثنا حامد بن يحيى البلخى ، حدثنا سفيان قال : لما قعد أبو حنيفة قال للناس مُسَاور الوراق :

كنا من الدِّين قبل اليوم فى سَعة ... حتى بلينا بأصحاب المقاييس

قوم إذا اجتمعوا صاحوا كأنهم ... ثعالب ضَبَحت بين النواويس

قال : فبلغ ذلك أبا حنيفة ، فبعث إليه بمال ، فقال مساور حين قبض المال :

إذا ما الناسُ يوماً قايسونا ... بآبدةٍ من الفتيا طريفة

أتيناهم بمقياس صحيح ... مصيب من طراز أبى حنيفة

إذا سمع الفقيه بها وعاها ... وأثبتها بحبر فى صحيفة

وأنشدنى الكريزى :

إن الهدية حلوة ... كالسحر تختلبُ القلوبا

تدنى البعيد من الهوى ... حتى تُصيره قريبا

وتعيد مضطغن العدا ... وة بعد بغضته حبيبا

تنفى السخيمة من ذوى الشَّحْنَا ... وتمتحق الذنوبا

أنبأنا الحسين بن إسحاق الأصبهانى ـ بالكرج ـ و إبراهيم بن محمد الدستوائى بتستر قالا : حدثنا محمد بن عبيد بن عتبة الكندى حدثنا بكار بن أسود العامرى حدثنا إسماعيل بن أبان قال : بلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ، فبعث إليه بكسوة ، فلما كان بعد ذلك مدحه الأعمش ، فقيل له : كيف تذمه ثم تمدحه ؟ قال : إن خيثمة حدثنى عن عبدالله قال : « إن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها ، و بغض من أساء إليها » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قال لنا هذان الشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنا أهابه ، قال : والبَشر مجبولون على محبة الإحسان ، وكراهية

الأذى ، واتخاذ المحسن إليهم حبيباً ، واتخاذ المسىء إليهم عدواً .

فالعاقل يستعمل مع أهل زمانه لزوم بعث الهدايا بما قدر عليه لاستجلاب محبتهم إياه ، ويفارقه تركه مخافة بغضهم .

ولقد أنشدنى الأبرش :

هدايا الناس بعضِهمُ لبعض تُولّد فى قلوبهمُ الوصالا
وتزرع فى الضمير هوًى وودا وتكسوك المهابة والجلالا
مصايد للقلوب بغير لَغَب[1] وتمنحك المحبة والجمالا

حدثنى محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا عبد الله بن لقمان البهرانى النجرانى حدثنا موسى بن أيوب ، حدثنا خداش بن المهاجر عن الحسن بن دينار عن ابن سيرين قال : كانوا يتهادَون الدراهم فى الجوالقات[2] والأطباق .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يستعمل الأشياء على مايوجب الوقت ، ويرضى بنفاذ القضاء ، ولا يتمنى ضد مارزق ، وإن كان عنده الشىء التافه لايجب أن يمتنع من بذله لاستحقاره واستقلاله ؛ لأن أهون مافيه لزوم البخل والمنع ، ومن حقر شيئاً منعه ، بل يكون عنده الكثرة والقلة فى الحالة سيان ؛ لأن مايورث الكثير من الخصال أورث الصغير بقدره من الفعال .

حدثنا عمرو بن محمد الأنصارى ، حدثنا الغلابى ، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب عن الأصمعى قال : دخلنا على كَهْمَس العابد ، فجاء بخمسة وعشرين بُسرة حمراء ، فقال : هذا الجهد من أخيكم ، والله المستعان .

وأنشدنى ابن زنجى :

إن المنى عجبٌ لله صاحبها لعلَّ حَتْفَ امرىء فيما تمناه
فإن ترى عبراً فيهنَّ معتبرٌ يجرى بها قدر ، فالله أجراه

---

(١) كذا بالأصل . واللغب واللغوب : التعب

(٢) الجوالقات : أوعية من الخيش ونحوه كالزكايب والأخراج ، واحدها جوالق

لا تحقِرنّ من الإحسان محقرة أحسن ، فعاقبة الإحسان حُسناه

حدثنا محمد بن أيوب بن مشكان ـ بطبرية قصبة الأردنّ ـ حدثنا أبو عتبة حدثنا سلمة بن عبد الملك العرضى حدثنا المعافى بن عمران قال : سمعت ميمون يقول : من رضى من خلة الإخوان بلا شىء فليواخ أهل القبور .

حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسى حدثنا محمد بن الوليد بن أبان العقيلى حدثنا نعيم بن حماد قال : أنشدنى ابن المبارك :

ما ذاق طعمَ الغنى من لا قُنوع له ولن ترى قانعا ما عاش مفتقرا

والعرف من يأته يَحمد عواقبه ما ضاع عُرْف ، ولو أوليته حجرا

سمعت يوسف بن يونس الفَرْغَانى يقول : بعث أبو السنور الشاعر إلى الأمير أبى الأشعث بطبق وردٍ يوم النيروز هدية ، و بعث إليه بهذه الأبيات :

بعثنا ببرٍّ تافهٍ ، دون قدركم وما تبعث الألطاف للقُلِّ والكثر

ولكنَّ ظرفا أن تزيد مودة فهل تكْرِمَنّا بالقبول و بالعذر ؟

فلو كان يِرى حَسْبَ ما أنت أهله أتاك إذاً روحى على طبق البر

سمعت عمر بن محمد الهمدانى يقول : سمعت وزيره بن محمد الغسانى يقول : قدم بعض الكتاب العسكر ، فأهدى إليه إخوانه ، وكان فيهم مَنْ قعدت به الحال ، فوجَّه إليه بدُقَّة وأشنان ، وكتب إليه : لو تمت الإرادة ـ جعلت فداءك ! ـ ببلوغ النية فيه ، وملّكتنى الجِدَة بَسْط القدرة لأتعبت السابقين إلى برك ، ولبرزت أمام المجتهدين فى فضلك ، ولكن البضاعة قعدت بالهمة ، وقصرت عن مساماة أهل النعمة ، وكرهت أن تطوى صحيفة البر ، وليس لى فيها ذكر ، فوجهت إليك بالمبتدأ به ليمنه و بركته ، و بالمختتم به لطيبه ونفعه ، مقتصراً عن ألم التقصير فيه ، فأما ما سوى ذلك فالمعبر عنى فيه قول الله (٩ : ٩١ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج) والسلام .

حدثنا محمد بن يوسف الأرمنى ، حدثنا إبراهيم بن عبد العزيز الموصلى ، حدثنا

محمد بن على بن الفضل المدينى ، حدثنا عبد الله بن شعيب الزبيرى ، حدثنا محمد ابن إسحاق المسيبى عن القاسم بن المعتمر عن حميد بن معيوف عن أبيه قال « كنت ممن شهد الحكم بن حنطب بمنبج ، وهو يريد أن يموت ، وقد كان لقى من الموت شدة ، فقلت ـ أو قال رجل ـ : اللهم هَوِّنْ عليه الموت ، فلقد كان ، ولقد كان . فأثنى عليه ، فأفاق من غشيته ، قال : من المتكلم ؟ قال المتكلم : أنا . قال : إن ملك الموت يقول : إنى بكل رجل سخى رفيق ، قال : ثم كأنَّ فتيلة أطفئت . فمات ، فبلغ ابن هَرْمَةَ الشاعر موتهُ فأنشأ يقول :

سألا عن المجد والمعروف أين هما ؟ فقلت : إنهما ماتا مع الحكمِ
ماتا مع الرجل الموفى بذمتــه يوم الحفاظ إذا لم يوفَ بالذِّمَمِ
ماذا بمَنْبِجَ لو تُنْبش مقابرها من التهدُّم بالمعروف والـكرمِ

حدثنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمد بن موسى السمرى عن حماد بن إسحاق ابن إبراهيم عن أبيه قال : قيل للمغيرة بن شعبة : مابقي من لذتك؟ قال : الإفضال على الإخوان ، قيل : فمن أحسنُ الناس عيشاً ؟ قال : من عاش بعيشهِ غيره ، قيل : فمن أسوأ الناس عيشاً ؟ قال : من لايعيش بعيشه أحد .

ذكر استحباب التفريج عن الناس بقضاء الحوائج

حدثنا أبو عمرو محمد بن محمود النسائى ، حدثنا حميد بن زنجويه ، حدثنا محاضر بن المورع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نَفَّس عن أخيه كُرْبَةَ من كُرَب الدنيا نَفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يَسَّر على معسر ، يَسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر على مسلم ستر الله عليه فى الدنيـا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على المسلمين كافة نصيحة المسلمين والقيام بالـكشف عن همومهم وكربهم ؛ لأن من نَفَّس كربة من كرب الدنيا عن مسلم

نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن تَحرَّى قضاء حاجته ولم يُقضَ قضاؤها على يديه فكأنه لم يقصر فى قضائها ، وأيسر ما يكون فى قضاء الحوائج استحقاق الثناء ، والإخوان يعرفون عند الحوائج ، كما أن الأهل تختبر عند الفقر ؛ لأنَّ كل الناس فى الرخاء أصدقاء ، وشر الإخوان الخاذل لإخوانه عند الشدة والحاجة ، كما أن شرَّ البلاد بلدة ليس فيها خِصْب ولا أمن .

وأنشدنى الكريزى :

خيرُ أيامِ الفتى يومٌ نَفَعْ ... واصطناعُ العُرف أبقى مصطَنَعْ

ما يُنالُ الخيرُ بالشر ، ولا ... يَحصُدُ الزارع إلا ما زَرَعْ

ليس كلَّ الدهر يوما واحدا ... ربما انحط الفتى ، ثم ارتفَعْ

حدثنا محمد بن سليمان بن فارس ، حدثنا أحمد بن سعيد الدارمى ، حدثنا بشر ابن عمر ، حدثنا الربيع قال : كان الحسن يقول « قضاء حاجة أخ مسلم أحب إلىّ من اعتكاف شهرين » .

وأنشدني على بن محمد البسامى :

سابق إلى الخير وبادرْ به ... فإنَّ مِن خَلفكَ ما تعلمُ

وقدّمِ الخير ، فكل امرىء ... على الذى قدمه يَقْدَمُ

حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسى، حدثنا محمد بن موسى البصرى ، حدثنا الأصمعى ، حدثنا أبو معمر شبيب بن شيبة الخطيب قال : لما حضرَت ابنَ سعيد ابن العاص الوفاةُ قال لبنيه « يا بنىّ ، أيُّكم يقبل وصيتى ؟ فقال ابنه الأكبر : أنا قال : إن فيها قضاءَ دينى ، قال : وما دينك يا أبت ؟ قال : ثمانون ألف دينار ، قال : يا أبت فيم أخذتها ؟ قال : يابنى فى كريم سددت خَلَّته[1] ، ورجل جاءنى فى حاجة وقد رأيت السوء فى وجهه من الحياء ، فبدأت بحاجته قبل أن يسألها »

قال أبو حاتم رضى الله عنه : حقيق على من علم الثواب أن لا يمنع ما ملك

---

(١) الخلة ، بالفتح : الحاجة والفقر .

من جاه أو مال إن وجد السبيل إليه قبل حلول المنية ، فيبقى عن الخيرات كلها ، ويتأسف على ما فاته من المعروف .

والعاقل يعلم أن من صحب النعمة فى دار الزوال لم يخلُ من فقدها ، وأن من تمام الصنائع وأهناها إذا كان ابتداء من غير سؤال .

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن المهلبى قال: دخل أبو العتاهية على الرشيد ، فقال : سل يا أبا العتاهية ، فقال :

إذا كان المنال ببذل وجه   فلا قرَّبْتُ من ذاك المنال

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان :

يبقى الثناء وتنفَدُ الأموال   ولكل دهر دولةٌ ورجال

ما نال مَحْمَدة الرجال وشكرَهُمْ   إلا الصبور عليهمْ المفضال

حدثنى محمد بن عبدل بن المهدى الشعرانى ، حدثنا محمد بن يزيد الطرسوسى حدثنا ابن عائشة قال : قال أبى « جاء رجل إلى يحيى بن طلحة بن عبيد الله ، فقال له : هب لى شيئاً ، قال: ياغلام أعطه مامعك ، فأعطاه عشرين ألفاً ، فأخذها ليحملها فثقلت عليه ، فقعد يبكى ، فقال : ما يبكيك ، لعلك استقللتها فأزيدك ، قال : لا ، والله ما استقللتها ، ولكن بكيت على ما تأكل الأرض من كرمك ، فقال له يحيى : هذا الذى قلت لنا أكثر مما أعطيناك » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لايجب الإلحاف عند السؤال فى الحوائج ؛ لأن شدة الاجتهاد ربما كانت سبباً للحرمان والمنع ، والطالب للفلاح كالضراب بالقِداح : سهم له ، وسهم عليه ، فإن أعطى وجب عليه الحمد ، و إن منع لزمه الرضاء بالقضاء ، ولا يجب أن يكون السؤال إلا فى ديار القوم ومنازلهم ، لا فى المحافل والمساجد والملأ ؛ لأن محمد بن محمود النسائى حدثنا ، قال : حدثنا على بن خَشْرم ، حدثنا جرير بن عبد الحميد الضبى عن حنيف المؤذن قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لا تسألوا الناس فى مجالسهم ومساجدهم

فتفحشوهم ، ولـكن سلوهم فى منازلهم ، فمن أعطى أعطى ، ومن منع منع » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الذى قاله عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه إذا كان المسئول كريماً ، فإنه إن سئل الحاجة فى نادى قومه ولم يكن عنده قضاؤها تشور وخجل . وأما إذا كان المسئول لئيما ودُفع المرء إلى مسألته فى الحاجة تقع له فإنه إن سأله فى مجلسه ومسجده كان ذلك أقضى لحاجته ، لأن اللئيم لا يقضى الحاجة ديانة ولا مُروءة ، وإنما يقضيها إذا قضاها طلباً للذكر والمحمدة فى الناس ، على أنى أستحب للعاقل أنْ لو دفعه الوقت إلى أكل القِدِّ[1] ومَصِّ الحَصى ثم صبر عليه لـكان أحرى به من أن يسأل لئيما حاجة ؛ لأن إعطاء اللئيم شَين ، ومنعه حَتْف .

ولقد أنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

إذا أعطى القليل فتىً شريف ... فإن قليل مايعطيك زَينُ

وإن تـكن العطية من دنيٍّ ... فإنَّ كثير مايعطيك شينُ

أنبأنا محمد بن الفضـلى السجستانى بدمشق ، حدثنا على بن خشرم قال : سمعت سعيد بن مسلم بن قتيبة بن مسلم الباهلى يقول : خرجت حاجا فملَت المحمل ، فنزلت أساير القُطرَات ، فقال : أتانا أعرابى ، فقـال لى : يافتى لمن الجمال بما عليها ؟ قلت : لرجل من باهلة ، قال : يالله أن يعطى الله باهلياً كل ماأرى ، قال : فأعجبنى ازدراؤه بهم ، ومعى صُرَّة فيها مائة دينـار ، فرميت بها إليه ، فقـال : جزاك الله خيراً ! وافقت منى حاجة ، فقلت : ياأعرابى ، أيسرك أن تـكون الجمال بما عليها لك ، وأنت من باهلة ؟ قال : لا ، قلت : أفيسرك أن تـكون من أهل الجنة وأنت باهلى ؟ قال : بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أنى من باهلة ، فقلت : ياأعرابى ، الجمال بما عليها لى وأنا من باهلة ، قال : فرمى بالصُّرة إلىَّ فقلت : سبحان الله ! ذكرتَ أنهـا وافقت منك حاجة ، قال : مايسرنى

(١) القد : السير من الجلد تخصف به النعال .

أن ألقى الله ، ولباهلىّ عندى يد ، فحدثت بها المأمون ، فجعل يتعجب ويقول : ويحك ياسعيد ! ما كان أصبرك عليه .

حدثنا محمد بن الرقام بتستَرَ حدثنا أبو حاتم السجستانى حدثنا الأصمعى حدثنا هاشم بن القاسم قال : سألت سالم بن قتيبة حاجة فقضاها ، ثم سألته أخرى ، فانتهرنى وقال : حاجتين فى حاجة ، أو قال : على الريق ؛ ثم دعا بالطعام ، فلما تغدى قال : هات حاجتك ، أما سمعت قول الصبيان :

إذا تغديتُ وطابتْ نفسى فليس فى الحق غلام مثلى

* إلا غلام قد تغدى قبلى *

أنبأنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابى حدثنا مهدى بن سابق عن عطاء بن مصعب قال : قال أبو عمرو المنذرى : أتيت مسلم بن قتيبة فى حاجة ، وكان له صديق من أهل الشام فكلمته أن يكلمه فى حاجتى ، فجعل يقول : اليوم ، غداً ، فطال علىَّ ، فتراءيت له ، وقد كان يعرفنى ، فدعانى فقال : أبا عمرو ، إنك لهاهنا ؟ قلت : نعم ، أطالبك بحاجة منذ كذا وكذا وسيلتى فيها فلان ، فضحك وقال : قد كنت أراك قد أحكمت الآداب ، لا تستعن إلى من تطلب إليه حاجة بمن له عنده طُعْمةٌ : فإنه لا يؤثرك على طعمته ، ولا تستعن بكذاب : فإنه يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب ، ولا تستعن بأحمق ، فإن الأحمق يجهد لك نفسه ولا يكون عنده شىء ، ولا يبلغ لك ماتريد ، فانصرفت ، فقلت : يكفينى هذا ، قال : لا ، ولكن تقضى لك حاجتك ، فقضاها .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا يجب للعاقل أن يتوسل فى قضاء حاجته بالعدو ، ولا بالأحمق ، ولا بالفاسق ، ولا بالكذّاب ، ولا بمن له عند المسئول طعمة ، ولا يجب أن يجعل حاجتين فى حاجة ، ولا أن يجمع بين سؤال وتقاض ، ولا يظهر شدة الحرص فى اقتضاء حاجته ، فإن الكريم يكفيه العلم بالحاجة دون المطالبة والاقتضاء .

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

وإذا طلبتَ إلى كريم حاجة فاصبر ، ولا تكُ لِلمِطال مَلُولاَ
لا تُظْهِرَنْ شَرَهَ الحريص ، ولا تكن عند الأمور إذا نهضت ثقيلا

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى العرزمى :

وإذا طلبت إلى كريم حاجة فحضوره يكفيك والتسليم
فإذا رآك مسلماً عرف الذى حمَّلته فكأنه ملزوم

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لا يتسخط ماأعطى ، وإن كان تافهاً ؛ لأن من لم يكن له شىء فكل شىء يستفيده ربح ، ولا يجب أن يسأل الحاجة كل إنسان : فرب مهروب منه أنفع من مستغاث إليه ، ولا يجب أن يكون السائل متشفعاً لآخر ؛ لأن من لم يقدر على أن يسبح فلا يجب أن يحمل على عنقه الآخر ، ومن سئل فليبذل ؛ لأن مال المرء نصفان ، له ماقدم ، ولوارثه ماخلَّف ، وأقرب الأشياء فى الدنيا زوالا المال والولاية ، والتعاهد للصنيعة بالتحفظ عليها أحسن من ابتدائها ، ومَنْ غرس غراساً فلا يَضْنَنْ بالنفقة على تربيته ، فتذهب النفقةُ الأولى ضياعاً .

حدثنى محمد بن أبى على الخلادى حدثنى محمد بن أبى يعقوب الربعى حدثنا عبد الكريم بن محمد الموصلى حدثنا أبى ، قال : سمعت أبا تمام حبيب بن أوس الطائى يقول : وقفت على باب مالك بن طَوْق الرحبى أشهراً فلم أصل إليه ، ولم يعلم بمكانى ، فلما أردت الانصراف قلت للحاجب : أتأذن لى إليه أم أنصرف ؟ قال : أما الآن فلا سبيل إليه ، قلت : فإيصال رقعة ؟ قال : لا ، ولا يمكن هذا ، ولكن هو خارج اليوم إلى بستان له فاكتب الرقعة وارْمِ بها فى موضع أرانيه الحاجب ، فكتبت :

لعمرى ، لئن حَجَبتنى العبيــد عنك ، فلم تحجب القافيهْ
سأرمى بها من وراء الجدا ر شنعاء تأتيك بالداهيهْ

تصم السميع وتعمى البصير ومن بعدها تسأل العافيهْ

فكتبت بها ورميت بها من المكان الذى أرانيه الحاجب فوقعت بين يديه ، فأخرجها ، فنظر فيها ، فقال : علىَّ بصاحب الرقعة ، فخرج الخادم ، فقال : من صاحب الرقعة ؟ قلت : أنا ، فأدخلت عليه ، فقال لى : أنت صاحب الرقعة ؟ قلت : نعم ، فاستنشدنى فأنشدته ، فلما بلغت ـ ومن بعدها تسأل العافية ـ قال : لا ، بل نسأل العافية من قبلها ، ثم قال : حاجتك ؟ فأنشأت أقول :

ماذا أقول إذا انصرفت وقيل لى : ماذا أصبت من الجواد المفضل ؟
و إن قلتُ : أغنانى كذبت ، و إن أقل ضنّ الجواد بماله ، لم يجمل
فاختر لنفسك ماأقولُ ، فإننى لابد أخبرهم ، و إن لم أُسأل

فقال : إذاً والله لا أختار إلاأحسنها ، كم أقمت ببابى ؟ قلت : أربعة أشهر ، قال : يعطى بعدد أيامه ألوفاً ، فقبضت مائة وعشرين ألف درهم .

سمعت محمد بن نصر بن نوفل بقوقل يقول : سمعت أبا داود السنجى يقول : كان ببغداد رجل يقال له : ابن الهفت ، فمر يوماً على سائل واقف على الجسر ، وهو يقول : اللهم ارزق المسلمين حتى يعطونى ، فقال له : تسأل ربك الحوالة ؟ .

ذكر الحث على إعطاء السؤال وطلب المعالى

حدثنا محمد بن صالح الطبرى بالصيمرة حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء الهمدانى حدثنا مصعب بن المقدام حدثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : « ماسئل النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال : لا ، ولا ضرب بيده شيئاً قط » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إنى لأستحب للمرء طلب المعالى من الأخلاق ، مع ترك رد السؤال ؛ لأن عدم المال خير من عدم محاسن الأخلاق ، والندامة موكلة بترك معالجة الفرصة ، و إن الحرَّ ـ حقَّ الحر ـ من أعتقته الأخلاق الجميلة ، كما أن أسوأ العبيد من استعبدته الأخلاق الدنية ، ومن أفضل الزاد فى

المعاد اعتقاد المحامد الباقية ، ومن لزم معالى الأخلاق أنتج له سلوكها فراخا تطير بالسرور .

ولقد حدثنى محمد بن سعيد القزاز حدثنا هارون بن صدقة القاضى حدثنا المسيب بن واضح يقول : سمعت يوسف بن أسباط يقول : ما كان المال مذ كانت الدنيا أنفع منه فى هذا الزمان .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى :

بادر هواك إذا هَمَمْت بصالح ... خوف العوائق أن تجىء فتغلب
وإذا هممت بسىء فتعده ... وتجنب الأمر الذى يتجنب

قال أبو حاتم رضى الله عنه : ماضاع مال ورّث صاحبه مجداً ، ولولا المتفضلون مات المتجملون ، وليس يستحق المرء اسم الكرم بالكف عن الأذى إلا أن يقرنه بالإحسان إليهم ، فمن كثر فى الخير رغبته ، وكان اصطناع المعروف همته ، قصده الراجون ، وتأمله المتأملون ، ومن كان عيشه وحده ولم يعش بعيشة غيره فهو — وإن طال عمره — قليل العمر ، والبائس من طال عمره فى غير الخير ، ومن لم يتأسَّ بغيره فى الخير كان عاجزاً ، كما أن من استحسن من نفسه مايستقبحه من غيره كان كالغاش لمن تجب عليه نصيحته ، ومن لم يكن له همة إلا بطنه وفرجه عُدَّ من البهائم ، والهمة تُبلِّغ الرتبة العالية ؛ لأن الناس بهمتهم .

ولقد حدثنا عمرو بن محمد الأنصارى حدثنا الغلابى حدثنا ابن عائشة قال : قال عبيد الله بن زياد بن ظبيان : كان لى خال من كلب ، فكان يقول لى : ياعبيد الله ، هِمّ ؛ فإن الهمة نصف المروءة .

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى .

قد بلونا الناس فى أخلاقهم ... فرأيناهم لذى المال تَبَعْ
وحبيب الناس مَن أطعمهم ... إنما الناس جميعاً بالطمع

حدثنا عمر بن حفص البزاز — بجنديسابور — حدثنا إسحاق بن الضيف

حدثنا الحسن بن واقع الرملى حدثنا ضمرة بن ربيعة ، قال : سمعت كديرا أبا سليمان الضبى يقول « كان لقصر إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ثمانية أبواب من حيث جاء السائل أعطى » .

حدثنا محمد بن أحمد الرقام ـ بتستر ـ حدثنا إسحاق بن الضيف حدثنا أبو مسهر حدثنا سعيد بن عبد العزيز أن الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم : سمع رجلا إلى جنبه يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم ، فانصرف فبعث بها إليه .

وأنشدنى الكريزى :

لاتحقرنَّ صنيع الخير تفعله ولا صغير فعال الشر من صغره
فلو رأيت الذى استصغرت من حَسَنٍ عند الثواب أطلت العجب من كبره

سمعت أحمد بن محمد بن عبد الله اليمانى يقول : سمعت صالح بن آدم يقول : أنشد إنسان عند عبد الله بن جعفر هذين البيتين :

إن الصنيعة لاتكونُ صنيعةً حتى يُصابَ بها طريقُ المصنع
فإذا صنعت صنيعة فاعمد بها لله ، أو لذوى القرابة ، أودَعِ

فقال عبد الله بن جعفر : إن هذين البيتين يبخلان الناس ؛ ينبغى لمن عمل بهذا أن يدعو لمن طلب حاجة بالبينة ، بل تُبَثُّ الصنائع ويُرمَى بها مواضع القَطْر حيث حَلَّت ، وفى مثله يقول العتابى :

له فى ذوى المعروف نُعمَى ، كأنه مواقعُ ماءِ القَطْرِ فى البلد القَفْرِ
إذا ما أتاه السائلون لحاجة علَته مصابيحُ الطلاقة والبِشْرِ

حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسى حدثنا أحمد بن مسروق حدثنى ابن أبى سعيد عن شيخ له قال : رأيت ابن المبارك يَعَضُّ يد خادم له ، فقلت له : تعضُّ يدَ خادمك ؟ قال : كم آمره أن لايعد الدراهم على السؤال ، أقول له : أَحْثُ لهم حَثْواً .

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابى حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال : قال إبراهيم بن أبى البلاد : حدثنى أخى قال : رأيت الحجاج بمنى فى عمله على العراق ، وقام إليه رجال من أهل الحجاز يسألونه ، فقال : توهمتم بنا أنا بغير بلادنا وما لكم مَتْرك ، مَن ههنا من أهل العراق ؟ فقام إليه تجار أهل العراق ، فقال : هل من سلف ؟ فقالوا : نعم ، فحملوا إليه ألف ألف درهم ، فقسمها ، فلما قدم العراق ردها ، وأكثر ظنى أنها ومثلها معها .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يبدأ بالصنائع والإحسان الأفْرضَ فالأفرضَ ، يبدأ بأهل بيته ، ثم بإخوانه وجيرانه ، ثم الأقرب فالأقرب ، ويتحرَّى المعروف والإحسان فى أهل الدين والعلم منهم ، ويجتنب ضد ماقلنا ؛ لأن مثَلَ من لم يفعل ما أوْمَأْنا إليه كما أنشدنى الحسين بن أحمد البغدادى :

تَصُول على الأدنى ، وتجتنب العِدَا وما هكذا تبنَى المكارمُ يايحيى
فكنتَ كفحل السوء ينزو بأمه ويترك باقى الخيل سائمة ترعى

وأنشدنى البسامى :

وكنت كمهريق الذى فى سقائه لرَقْراق ماء فوق رابية صَلْدِ
كمرضعة أولادَ أخرى ، وضَيَّعت بنى بطنها ، هذا الضلالُ من القصد

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يبتدىء بالصنائع قبل أن يسأل ؛ لأن الابتداء بالصنيعة أحسن من المكافأة عليها ، والإمساك عن التعرض خير من البذل ، والصنائع إنما تحسن بإتمامها ، والتحافظ عليها بعدها ؛ لأن بصلاح الخواتم تزكو الأوائل ، والعطية بعد المنع أجمل من المنع بعد العطية ، والناس فى الصنائع على ضربين : شاكر ، وكافر ، ولقد أنشدنى بعض إخواننا .

وما الناسُ فى حسن الصنيعة عندهم وفى كفرهم إلا كبعض المزارع

فمزرعة طابت وأضعف رَيْعُهــا ومزرعةٍ أكْدتْ[١] على كل زارع

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

ومَن يَضَع المعروف فى غير أهله يكن ضائعاً فى غير حمــد ولاأجر
وحسب امرىء من كُفر نُعْمَى جُحودُها إذا وقعت عند امرىء غير ذى شكر

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

لعمركَ ما المعروفُ فى غير أهله وفى أهله إلا كبعض الودائع
فمستودَع ضاع الذى كان عنده ومستودَع ماعنده غير ضائع

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الهَمَج من النــاس إذا أحسن إليه يرى ذلك استحقاقاً منه له ، ثم يرى الفضل لنفسه على المحسن إليه ، فلا يحمد عند الخير ، ولا يشكر عند البر ، ويتعجب ممن يشكر ، ويذُم من يحمد ، وإذا امتحن العاقل بمثل مَنْ هذا نعته استعمل معه ما أنشدنى الــكريزى :

إن ذا اللؤم إذا أكرمته حَسِبَ الإكرام حقــاً لزمكْ
فأهِنْه بهوان ، إنه إن تُهنــه بهوان أكــرمك

وأنشدنى الأبرش :

إذا أَوْلَيْتَ معروفاً لئيما يَعدُّك قد قتلتَ له قتيلا
فــكنْ من ذاك معتذراً إليه وقلْ : إنى أتيتك مستقيلا
فإن تغفر ، فمجترمى عظيمٌ وإنْ عاقَبْتَ لم تَظلم فتيلا
ولستُ بعائد أبداً لهذا وقد حَمَّلتنى حِملا ثقيلا

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أهنأ الصنائع ، وأحسنها فى الحقائق ، وأوقعها بالقلوب ، وأكثرها استدامة للنعم ، واستدفاعاً للنقم ، ماكانت خالية عن المنن فى البداءة والنهاية ، متعرية عن الامتنان ، وهو الغاية فى الصنيعة ، والنهاية فى الإحسان .

---

(١) أى : منعت وخيبت ظن الزارع ، وأصله من الــكدية ، وهى القطعة الغليظة الصلبة من الأرض لايعمل الفأس فيها.

ولقد أنشدني محمد بن عبد الله البغدادي :

أحسنُ من كل حَسَنْ في كل وقت وزمنْ
صنيعــــة مربوبة خاليـــة من المِنَنْ

حدثنا محمد بن غندار بن محمد الحارثي بالبصرة حدثنا سهل بن زاذويه حدثنا محمد بن أبي الدواهي عن أبيه قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

ما أحسن الدنيا وإقبالَهـا إذا أطاعَ اللهَ من نالهـا
من لم يُوَاس الناس من فضلها عرَّض للإدبار إقبالهـا
فاحذر زوال الفضل ياحائراً واعطِ من الدنيا لمن سالها
فإن ذا العرش سريع الجزا يُخلف بالحبـة أمثالهـا

حدثنا محمد بن المهاجر حدثنا محمد بن أحمد بن النضر المعنى حدثني سعيد حدثني أبوك ــ يعني أباه أحمد بن النضر ــ قال : كان بالكوفة قوم من العرب ، فأصابت رجلا منهم حاجة . فكان عيالُه يغزلون ويبيعون ، وكان يَشْرَكهم ، فقالوا : لاتعود علينا بشيء ، وما نكسب تشركنا فيه ، فأنِفَ من قولهم ، فخرج يَؤُمّ بغداد ، ولم يدخل بغداد قبل ذلك ، وليس له حميم ولا قريب بها . فدخلها ومَرَّ على وجهه ، فمر على باب يعقوب بن داود كاتب المهدي ، فرأى قوماً جلوساً عليهم بِزَّة ، فقال : ما أخلق هؤلاء دُعوا إلى وليمة ، لو دخلت معهم ، لعلِّي أصيب شَبْعة ، فاندسَّ معهم ، فخرج الإذن ، فقال : ادخلوا ، فدخلوا إلى دار قَوْراء كبيرة ، وإذا بَهْوٌ في صدر الدار ، فجلسوا في البهو يَمْنَة ويَسْرة ، وأخلوا الصدر فجاء يعقوب فسلم عليهم وقعد ، ثم قال : ياغلام ، هات ، فجاء بصوانٍ عليها مناديل مغطى بها ، وإذا فيها أكياس ، فقال : أعطهم ، فوضَعوا في حِجْر كل رجل منهم كيسا ، ووضعوا في حجري كيسا ، حتى فرغ منهم ، ثم قال : أعد عليهم ، فوضع في حجر كل رجل منهم كيساً ، ووضعوا في حجري كيساً ، حتى والى بين خمسة أكياس ، ثم قال : قوموا مباركٌ لكم ، فقاموا ، وقد ارتاب فيه

الخدم ، وليس له عندهم اسم ولم يعرفوه . فلما بلغ الدهليز ر بطوه فصاح وصاحوا ، وسمع يعقوب الصوت ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : رجل دخل مع هؤلاء القوم لا نعرفه ، فقال : عليّ به ، فقال له : ياعبد الله ، ما أدخلك هذه الدار ؟ فقص عليهم القصة والسبب الذى دخل له ، فقال له : من أين أنت ؟ قال : من أهل الكوفة ، قال : من يعرفك بالكوفة ؟ قال : يعرفنى فلان وفلان . فسمى له قوماً يعرفهم ، فقال : خلوا عن الرجل ، إنا كاتبون إلى هؤلاء القوم ، فإن كان الأمر على ما ذكرت ، فتعال كل سنة فى هذا الوقت ، ولك عندنا مثل هذا ، وكتب إلى القوم ، فسألهم فكتبوا بمعرفته ، فكان يجيء أيام حياته فيأخذ خمسة آلاف وينصرف .

ذكر الحث على الضيافة وإطعام الطعام

حدثنا حامد بن محمد بن شعيب البلخى ببغداد حدثنا منصور بن أبى مزاحم حدثنا أبو الأحوص عن أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤْذِ جاره » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إنى لأستحب للعاقل المداومة على إطعام الطعام والمواظبة على قِرَى الضيف ؛ لأن إطعام الطعام من أشرف أركان الندَى ، ومن أعظم مراتب ذوى الحِجَى ، ومن أحسن خصال أولى النُّهَى ، ومن عرف بإطعام الطعام شَرُفَ عند الشاهد والغائب ، وقصده الراضى والعاتب ، وقِرَى الضيفِ يرفع المرء وإن رَقَّ نسبه إلى منتهى بغيته ، ونهاية محبته ، ويُشَرِّفه برفيع الذكر وكمال الذخر .

حدثنا محمد بن زنجويه القشيرى حدثنا أبو مصعب حدثنا الدراوردى عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : كان إبراهيم الخليل أولَ من أضاف الضيف .

حدثنا الانصارى حدثنا الغلابى حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب حدثنا الأصمعى أخبرنى نافع بن أبى نعيم قال : قال رجل ممن قد أدركُ الجاهلية « قدمت المدينة ، فإذا منادٍ ينادى : من أراد الشحم واللحم فليأت دار دُليم ـ وهو جد سعد ابن عبادة بن دليم سيدِ الخزرج ـ ثم ضرب الزمان مِنْ ضربه ، فقدمتُ المدينة . فإذا مناد ينادى : من أراد الشحم واللحم فليأت دار عبادة ، ثم ضرب الزمان مِنْ ضربه فقدمتها ، فإذا مناد ينادى : من أراد الشحم واللحم فليأت دار سعد » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : كل من ساد فى الجاهلية والإسلام حتى عرف بالسؤدد ، وانقاد له قومه ، ورحل إليه القريب والقاصى ، لم يكن كمال سؤدده إلا بإطعام الطعام ، وإكرام الضيف .

والعرب لم تكن تعدُّ الجود إلاَّ قرى الضيف ، وإطعام الطعام ، ولا تعد السخى من لم يكن فيه ذلك ، حتى إن أحدهم ربما سار فى طلب الضيف الميلَ والميلين .

ولقد حدثنى محمد بن المنذر حدثنا على بن الحسن الفلسطينى حدثنا أبو بكر السنى حدثنا محمد بن سليمان القرشى قال : بينما أنا أسير فى طريق اليمن إذا أنا بغلام واقف على الطريق فى أذنيه قُرْطَان . وفى كل قرط جوهرة يضىء وجهه من ضوء تلك الجوهرة ، وهو يمجد رَبَّه بأبياتٍ من شعر ، فسمعته يقول :

مليكٌ فى السماء به افتخارى عزيزُ القدر ليس به خفاء

فدنوت إليه . فسلمت عليه ، فقال : مْأنا براد عليك سلامك حتى تؤدى من حقى الذى يجب لى عليك ، قلت : وما حقك ؟ قال : أنا غلام على مذهب إبراهيم الخليل ، لا أتغدى ولا أتعشى كل يوم حتى أسير الميل والميلين فى طلب الضيف ، فأجبته إلى ذلك ، قال : فرَحَّبَ بى ، وسرت معه حتى قربنا من خيمة شَعَر ، فلما قربنا من الخيمة صاح : ياأختاه ، فأجابته جارية من الخيمة يالَبَّيْكاه قال : قومى إلى ضيفنا هذا ، قال : فقالت الجارية : اصبر حتى أبدأ بشكر المولى الذى سبب لنا هذا الضيف ، قال : فقامت وصلَّت ركعتين شكراً لله ، قال :

فأدخلنى الخيمة ، فأجلسنى ، فأخذ الغلام الشَّفْرة ؛ وأخذ عَنَاقاً له ليذبحها[1] ، فلما جلست فى الخيمة نظرت إلى جارية أحسن الناس وجهاً ، فكنت أسارقها النظر ، ففطنت لبعض لحظاتى ، فقالت لى : مَه ، أما علمت أنه نقل إلينا عن صاحب يثرب — تعنى النبى صلى الله عليه وسلم — : أن « زِنَا العينين النظر » أما إنى ما أردت بهذا أن أوبخك ، ولكنى أردت أن أؤدبك ، لكيلا تعود لمثل هذا ، فلما كان وقت النوم بتُّ أنا والغلام خارج الخيمة ، وباتت الجارية فى الخيمة . قال : فكنت أسمع دوىَّ القرآن الليل كله أحسن صوت يكون وأرقَّه ، فلما أن أصبحت قلت للغلام : صوت من كان ذلك ؟ قال : فقال : تلك أختى تُحيي الليل كله إلى الصباح ، قال فقلت : ياغلام ، أنت أحق بهذا العمل من أختك ، أنت رجل وهى امرأة ، قال : فتبسم ، ثم قال : ويحك يافتى ! أما علمت أنه موفَّق ومخذول .

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطى :

إذا ما أتاك الضيفُ فابدأ بحقه ... قبـل العيال ، فإنَّ ذلك صوبُ[2]

وعظِّم حقوق الضيف واعلم بأنه ... عليك بمـا توليه مُثْنٍ وذاهب

أنبأنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز حدثنا إبراهيم بن محمد الذهلى عن الحسن بن عيسى بن ماسَرجَس قال : صحبت ابن المبارك من خراسان إلى بغداد فما رأيته أكلَ وحده .

حدثنى محمد بن عثمان العقبى حدثنا أبو أمية حدثنا عصام بن عمرو أبو حميد الطائى حدثنا عمرو بن هانىء قال : كان رافع بن عميرة بن عمرو السنبسى — فخذٌ من طيء — يُغَدِّى أهل ثلاثة مساجد ويعشيهم ، يوماً بثرائد ، ويوماً برطبة — يعنى الحيس — وماله قميص إلا قميص هو لجمعته وهو للبيت .

---

(١) الشفرة — بالفتح — السكين . والعناق — بوزن السحاب — الأنثى من ولد المعز

(٢) عجز هذا البيت لا يستقيم مع صدره ولا مع ما بعده

قال أبو حاتم رضى الله عنه : يجب على العاقل ابتغاء الأضياف ، و بذل الـكِسَر ؛ لأن نعمة الله إذا لم تُصَنْ بالقيام فى حقوقها ترجع من حيث بدأت ، ثم لا ينفع من زالت عنه التلهف عليها ، ولا الإفكار فى الظفر بها ، و إذا أدى حق الله فيها استجلب النماء والزيادة ، واستذْخر الأجر فى القيامة ، واستقصر إطعام الطعام .

وعنصر قرى الضيف هو ترك استحقار القليل ، وتقديم ماحضر للأضياف ، لأن من حَقَّر منع ، مع إكرام الضيف بما قدر عليه ، وترك الادخار عنه .

ولقد حدثنى كامل بن مكرم حدثنا محمد بن يعقوب الفرجى حدثنا الوليد ابن شجاع حدثنا عقبة بن علقمة ومبشر بن إسماعيل أنهما سألا الأوزاعى : ما إكرام الضيف ؟ قال : طَـلَاقَة الوجه ، وطيب الـكلام .

وأنشدنى الـكريزى فى قوم لم يكونوا يضيفون :

أقاموا الدَّيدبانَ على يَفَاعٍ[1] وقالوا : لا تنَمْ للديدبان
إذا أبصرت شخصاً من بعيـد فصفِّق بالبنـان على البنان
تراهم خشية الأضـياف خُرْسًا يُصَلُّون الصـلاة بلا أذان

قال أبو حاتم رضى الله عنه : أبخل البخلاء من بخل بإطعام الطعام ، كما أن من أجود الجود بذله ، ومن ضَنَّ بما لا بد للجثة منه ، ولا تربو النفس إلا عليه : كان بغيره أبخل ، وعليه أشح .

ومن إكرام الضيف : طيب الـكلام ، وطلاقة الوجه ، والخدمة بالنفس ، فإنه لا يَذِلُّ من خدم أضيافه ، كما لا يعزُّ من استخدمهم ، أو طلب لقراه أجراً .

وأنشدنى كامل بن مكرم أنشدنى محمد بن سهيل :

وإنى لطلق الوجه للمبتغى القِرَى وإنَّ فِنـائى للقرى لرحيبُ
أضاحك ضيفى عند إنزال رحله فيخصبُ عندى ، والمحلُّ جديبُ

---

(١) اليفاع : الأرض المرتفعة .

وما الخصب للأضياف أن يكثُرَ القِرَى ولكنما وجه الكريم خصيب

وأنشدنى الأبرش :

لا تبخلنَّ بدنيا ، وهى مقبلة فليس ينقصُها التبذير والسرفُ
وإن تولَّتْ فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خَلَفُ

أنبأنا الأنصارى حدثنا الغلابى حدثنا العقبى عن أبى مخنف لوط بن يحيى حدثنى هشام بن عروة عن أبيه : أن قيس بن سعد بن عبادة خرج من مصر ، فمرَّ بأهل بيت من القَيْنِ . فنزل بهم ، فنحر لهم صاحب المنزل جَزوراً وأتاهم به ، فقال : دونكم ، فلما كان من الغد نحر لهم آخر ، ثم حبستهم السماء اليوم الثالث ، فنحر لهم مثله ، فلما أراد قيس أن يرتحل وضع عشرين ثوباً من ثياب مصر وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل ، وخرج قيس ، فما سار إلا قليلا حتى أتاه صاحب البيت على فرس كريم ورمح طويل ، وقدامه الثياب والدراهم ، فقال : ياهؤلاء ، خذوا بضاعتكم عنى ، قال قيس : انصرف أيها الرجل ، فإنا لم نكن لنأخذها ، فقال الرجل : لتأخذُنَّهَا ، أو لاينفذ منكم رجل ، أو تذهب نفسى ، فعجب قيس منه ، وقال : لِمَ ؟ لله أبوك . ألم تكرمنا وتحسن إلينا ؟ فكافأناك ، مافى هذا من بأس ، فقال الرجل : إنا لا نأخذ لقرى ابن السبيل وقرى الضيف ثمناً ، لا والله لا أفعل أبداً ، قال لهم قيس : أما إذ أبى فخذوها منه ، فأخذوها ، ثم قال قيس : مافضَلنى[١] رجل غير هذا .

حدثنى أحمد بن عمرو الزنبقى بالبصرة حدثنا الحسن بن مدرك السدوسى حدثنا عبد العزيز بن عبد الله القرشى حدثنا سعيد عن قتادة عن سعيد بن المسيب قال : لأن أشبع كبداً جائعة أحب إلىَّ من حجة بعد حجة .

حدثنا محمد بن سعيد القزاز حدثنى عيسى بن أبى موسى الأنصارى حدثنى أبى حدثنا أحمد بن بشير عن هشام بن عروة عن أبيه ، قال : كان من دعاء قيس

(١) فضلنى : زاد على فى الفضل وأربى .

ابن سعد بن عبادة « اللهم ارزقنى مالاً وفعالاً ؛ فإنه لا يصلح الفعال إلا بالمال »

ذكر الحث على المجازاة على الصنائع

حدثنا الفضل بن الحباب الجمحى حدثنا عبد الرحمن بن بكر بن الربيع ابن مسلم ، قال: سمعت الربيع بن مسلم يقول: سمعت محمد بن زياد يقول: سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على من أُسْدى إليه معروف أن يشكره بأفضل منه أو مثله ؛ لأن الإفضال على المعروف فى الشكر لا يقوم مقام ابتدائه وإن قَلَّ ، فمن لم يجد فلْيُثْنِ عليه ؛ فإن الثناء عند العدم يقوم مقام الشكر للمعروف وما استغنى أحد عن شكر أحد .

ولقد أنشدنى محمد بن زنجى البغدادى :

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد　　لعزَّة مُلْك ، أو علوِّ مكان
لما أمر الله العباد بشكره　　فقال : اشكرونى ، أيها الثقلان

وأنشدنى الكريزى :

إذا المرء لم يشكر قليلاً أصابه　　فليس له عند الكثير شُكور
ومن يشكر المخلوق يشكر لربه　　ومن يكفر المخلوق فهو كفور

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى :

حافظ على الشكر كَىْ تستجزل القسما　　مَنْ ضَيَّع الشكر لم يستكمل النِّعما
الشكر لله كنز لا نفاد له　　من يلزم الشكر لم يكسب به ندما

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابى حدثنا العقبى قال : مر سعيد بن العاص بدار رجل بالمدينة ، فاستسقى فسَقَوْه ، ثم مر بعد ذلك بالدار ومناد ينادى عليها فيمن يزيد ، فقال لمولاه : سَلْ ، لم تباع هذه ؟ فرجع إليه فقال : على صاحبها دين قال : فارجع إلى الدار ، فرجع ، فوجد صاحبها جالساً وغريمه معه ، فقال : لم تبيع

دارك ؟ قال : لهذا عليّ أربعة آلاف دينار ، فنزل وتحدث معهما ، و بعث غلامه فأتاه ببدرة ، فدفع إلى الغريم أربعة آلاف ، ودفع الباقي إلى صاحب الدار، وركب ومضى .

وأنشدني المنتصر بن بلال :

ومن يُسدِ معروفاً إليك ، فكن له شكوراً يكن معروفُهُ غير ضائع
ولا تبخلن بالشكر ، والقَرْضَ فاجْزِهِ تكن خير مصنوع إليه وصانع

وأنشدني بعض أهل العلم .

فكن شاكراً للمنعمين لفضلهم وأفضِلْ عليهم إذ قدرت وأنعم
ومن كان ذا شكر فأهلُ زيادة وأهلٌ لبذل العُرْف من كان يُنْعِم

وأنشدني الكريزي :

أحق الناس منك بحسن عون لمن سلفت لكم نعم عليه
وأشكَرُهُمْ أحقهم جميعاً بحسن صنيعة منكم إليه

قال أبو حاتم رضي الله عنه : الحر لا يكفر النعمة ، ولا يتسخط المصيبة ، بل عند النعم يشكر ، وعند المصائب يصبر ، ومن لم يكن لقليل المعروف عنده وقع أوْشَكَ أن لا يشكر الكثير منه ، والنعم لا تستجلب زيادتها ولا تدفع الآفات عنها إلا بالشكر لله جل وعلا ، ولمن أسداها إليه .

ولقد حدثني أحمد بن محمد القيسي حدثني محمد بن المنذر حدثنا إسحاق بن إبراهيم القرشي قال : سمعت أبا عبيدة مَعْمَر بن المثَنَّى يقول : ماتت لعبيد بن معمر بنت ، فقعد في المأتم في مسجده في سكة سبانوش ، فجاء عبيد الله بن أبي بَكْرَة معزيا ، و إذا الأشراف قد أخذوا موضعهم ، فنظر إليه رجل قد كان سبق إلى مجلسه مع الأشراف قد عرفه ، فقام قائماً ، وجعل يقول له : ههنا ، حتى أخذ بيده فأقعده في مجلسه ، ثم ذهب فقعد في أخريات الناس ، فأمر عبيد الله غلاماً كان معه أن يتعاهده إلى قيامه ، فلما قام دعا الرجل ، فقال : أتعرفني ؟ قال : نعم ، قال من أنا ؟ قال : أنت عبيد الله بن أبي بكرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : فما حملك على تركك مجلسك لى ؟ قال : إجلالا لولد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أوجب الله على أمثالى خصوصاً من التبجيل ، فقال له عبيد الله : هل لك على أن تصحبنا إلى ضيعة نريد أن نصير إليها ؟ قال : نعم ، قال فصحبه الرجل إلى تلك الضيعة فى نهر مكحول ، ضيعة فيها ثلاثمائة جريب نخل وعلى وجه الضيعة قصر بُنى بآجُرٍّ وجص وخشب ساج ، فلما دخل الضيعة أخذ عبيد الله بيد الرجل وجعل يدور به فى تلك النخيل ، فقال للرجل : كيف ترى هذه الضيعة ؟ قال : تالله ما رأيت نخيلا أحسن منها ، ولا أكثر ثمرة ، ولا أسرى ضيعة منها ، قال : قد جعلناها لك بما فيها من الخدم والآلة نبعث إليك بصكها ، قال : فاستطار الرجل فرحاً و بكاء . وقال : أنعشتنى وأنعشت عيالى ، فقال عبيد الله : وكم لك من العيال ؟ قال : ثلاثة عشر نفساً ، قال : فإنى قد جعلت اسم عيالك فى اسم عيالى : أنفق عليهم ماعشت ، فقال له عبيد الله : من تكون له مثل هذه الضيعة يحتاج أن يكون منزله فى سرة البصرة ، إذا صرنا إلى منزلنا فاغد علينا نأمر لك بشراء دار تشبه هذه الضيعة ، ورأس مال وخدم تصلح لدارك تعيش بها إن شاء الله ، قال : فغدا الرجل عليه ، فأمر له بشراء دار بخمسة آلاف دينار ، وأعطاه عشرة آلاف دينار ، ودفع إليه صك الضيعة ، وأمر له بدابة و بغل وسائس وكسوة وصرفه .

وأنشدنى الأبرش :

الشكر يفتح أبواباً مُغلّقة ... لله فيهــا على مَن رامه نِعَمُ
فبادر الشكر ، واستغلق وثائقه ... واستدفع الله ماتجرى به النِّقَمُ

حدثنا أحمد بن الحسن المدائنى بمصر قال : سمعت الربيع بن سليمان يقول : أخذ رجل بركاب الشافعى ، فقال : ياربيع أعطه أربعة دنانير ، قال : فأعطيته إياها

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب :

ومن يشكر العرف الصغير فإنه ... سينمى ، ويجتر المزيد أصاغره

ومن يشكر المعروف يحمد إلهه ويضعف أضعافاً على الحمد شاكره

وأنشدني ابن زنجي البغدادي :

وإذا اصطنعتَ إلى أخيـ ـك صنيعة ، فانسَ الصنيعهْ

والشكر من كرم الفتى والـكفر من لؤم الطبيعه

والصبر أكرم صاحبٍ فاصحبه ، إن نَزَلَتْ فجيعه

حدثنا أحمد بن قريش بن بشر بن عبد العزيز حدثنا إبراهيم بن محمد الذهلي حدثنا أحمد بن خليل حدثنـا يحيي بن أيوب عن أبي عيسى قال : كان إبراهيم ابن أدهم إذا صنع إليه أحد معروفاً حرص على أن يكافئه ، أو يتفضل عليه ، قال أبو عيسى : فلقيني وأنا على حمار ، وأنا أريد بيت المقدس ، جائياً من الرَّمْلَة ، قال : وقد اشترى بأربعة دوانيق تُفاحاً وسَفَرْجَلا وخَوْخاً وفاكهة ، فقال : ياأبا عيسى ، أحب أن تحمل هذا ، قال : وإذا عجوز يهودية في كُوخ لها ، فقال : أحب أن توصل هذا إليها ، فإنني مررت وأنا مُمْسٍ ، فبيتتني عندها ، فأحب أن أكافئها على ذلك .

وأنشدني الـكريزي .

يدُ المعروف غُنْمٌ حيث تُسدَى تحمَّلها شكورٌ ، أم كفورٌ

كفى شكر الشكور لها جزاءً وعند الله ما كفر الـكفور

وأنشدني بعض أهل العلم :

رهنتُ يدي للعجزعن شُـكر بِرِّه وما فوق شكري للشكور مزيد

ولو كان شيء يستطاعُ استطعته ولـكنَّ مالا يستطاع شديدُ

قال أبو حاتم رضي الله عنه : الواجب على المرء أن يشكر النعمة ، ويحمد المعروف على حسب وُسْعِه وطاقته ، إن قدر فبالضِّعف ، وإلا فبالمثل ، وإلا فبالمعرفة بوقوع النعمة عنده ، مع بذل الجزاء له بالشكر ، وقوله : جزاك الله خيراً ، فمن قال له ذلك عند العدم فكأنه أبلغ في الثناء .

ومن الناس من يكفر النعم ، وكفران النعم يكون من أحد رجلين : إما رجل لا معرفة له بأسباب النعم والمجازاة عليها ، لما لم يُركَّبْ فيه من التفقد لمراعاة العشرة ، فإذا كان كذلك وجب الإغضاء عنه ، وترك المناقشة على فعله ، والرجل الآخر : أن يكون ذا عقل لم يشكر النعمة ، استخفافاً بالمنعم ، واستحقاراً للنعمة وتهاوناً فى نفسه لهما أو لأحدهما ، فإذا كان كذلك يجب على العاقل ترك العود إلى فعل مثله ، والخروج باللائمة على نفسه إذا كان له خبرة به .

وأنشدنى على بن محمد :

علامة شكر المرء إعلان حمده ... فمن كتَم المعروف منهم فما شكَرْ
إذا ماصديقى نال خيراً ، فخاننى ... فما الذنب عندى للذى خان أو فجرْ
ولكنْ إذا أكرمته بعد كفره ... فإنى مَلوم حيث أُكرم مَنْ كفرْ

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب :

إذا أنا أعطيتُ القليل شكرتم ... وإن أنا أعطيتُ الكثير فلاشكرُ
وما لمت نفسى فى قضاء حقوقكم ... وقد كان لى فيما اعتذرت به عذر

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إنى لأستحب للمرء أن يلزم الشكر للصنائع والسعى فيها من غير قضائها ، إذا كان المنعم ذوى القَدْرِ فيه ، والاهتمام بالصنائع لأن الاهتمام بما فاق المعروف ، وزاد على فعل الإحسان ، إذ المعروف يعمله المرء لنفسه ، والإحسان يصطنعه إلى الناس ، وهو غير مهتم به ، ولا مشفق عليه ، وربما فعله الإنسان وهو كاره ، والاهتمام لا يكون إلا من فَرْط عناية وفضل وُدٍّ ، فالعاقل يشكر الاهتمام أكثر من شُكْره للمعروف .

أنشدنى عبد العزيز بن سليمان :

لأشكرنك معروفاً هممتَ به ... إنَّ اهتمامك بالمعروفِ معروفُ
ولا ألومُكَ إن لم يمضه قدَرٌ ... فالشىء بالقدر المجلوب مصروف

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى :

بَطِرَ النعمة مَنْ ضَيَّعها ومُضَيِّع الشكر مُستدعى الغِيَرْ
فاجعل الشكر عليها حارساً ربما ابتزَّ الفتى النعمى البطر

حدثنى عمرو بن محمد حدثنا محمد بن زكريا حدثنا محمد بن عبد الله الجشمى حدثنا على بن محمد قال : مر عمر بن هبيرة — لما انصرف فى طريقه — فسمع امرأة من قيس تقول : لا والذى ينجى عمر بن هبيرة ، فقال : ياغلام ، أعطها مامعك، وأعلمها أنى قد نجوت .

ذكر الحث على سياسة الرياسة ، ورعاية الرعية

حدثنا عبد الله بن قحطبة حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبرى حدثنا مؤمل ابن إسماعيل حدثنا سفيان حدثنا عبد الله بن دينار قال : سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير راع على رعيته ، ومسئول عنهم . والرجل راع على أهل بيته ، وهومسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت زوجها ، وهى مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : صرحت السُّنة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم بأن كل راع مسئول عن رعيته ، فالواجب على كل من كان راعياً لزوم التعاهد لرعيته ، فرُعاة الناس العلماء ، وراعى الملوك العقل ، وراعىْ الصالحين تقواهم وراعى المتعلم معلمه ، وراعى الولد والده ، كما أن حارس المرأة زوجُها ، وحارسَ العبد مولاهُ ، وكلُّ راع من الناس مسئول عن رعيته .

وأكثر مايجب تعاهد الرعية للملوك ؛ إذ هم رعاةٌ لها ، وهم أرفع الرعاة لكثرة نفاذ أمورهم ، وعقدُ الأشياء وحلها من ناحيتهم ، فإذا لم يراعوا أوقاتهم ولم يحتاطوا لرعيتهم هلكوا وأهلكوا ، وربما كان هلاك عالَم فى فساد ملك واحد ، ولا يدوم مُلْكُ ملك إلا بأعوان تطيعه ، ولا يطيعه الأعوان إلا بوزير ، ولا يتم ذلك إلا بأن يكون الوزير ودوداً نصوحاً ، ولا يوجد ذلك من الوزير إلا بالعفاف

والرأى ، ولا يتم قِوَام هؤلاء إلا بالمال ، ولا يوجد المال إلا بصلاح الرعية ، ولا تصلح الرعية إلا بإقامة العدل ، فكأن ثبات الملك لا يكون إلا بلزوم العدل ، وزواله لا يكون إلا بمفارقته .

فالواجب على الملك : أن يتفقد أمور عماله ، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ، ولا إساءة مسيء ؛ لأنه إذا خفي عليه أعمال عماله لم يكن قائماً بالعدل .

ولقد أنشدنى على بن محمد البسامى :

إذا سُسْتَ قوماً فاجعل العدل بينهم ... وبينك : تأمن كلَّ ماتتخوفُ

وإن خِفْتَ من أهواء قوم تشتتاً ... فبالجود فاجمع بينهم يتألفوا

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابى ، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب القاضى حدثنا الأصمعى قال: قال ملك طُخَارِستان لنصر بن سَيَّار : ينبغى للأمير أن يكون له ستة أشياء : وزير يثق به ويفضى إليه بسره ، وحصان يلجأ إليه إذا فزع أنجاه يعنى فرساً ، وسيف إذا نازل به الأقران لم يخف أن يخونه ، وذخيرة خفيفة المحمل إذا نابته نائبة أخذها ، وامرأة إذا دخل إليها أذهبت همَّه ، وطباخ إذا لم يَشْتَه الطعام صنع له شيئاً يشتهيه .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لا يجب للسلطان أن يفرط البشاشة والهشاشة للناس ، ولا أن يُقِلَّ منهما . فإن الإكثار منهما يؤدى إلى الخفة والسخف ، والإقلال منهما يؤدى إلى العجب والكِبْر ، ولا ينبغى له أن يغضب ؛ لأن قدرته من وراء حاجته ، ولا أن يكذب ، لأنه لا يقدر أحد على استكراهه ، ولا له أن يبخل ؛ لأنه لا عذر له فى منع الأموال والجاه معاً ، ولا له أن يحقد ؛ لأنه يجب أن يترفع عن المجازاة ، فأفضل للسلطان مالم يخالطْهُ البَطَر ، وأعجزهم آخذُهُمْ بالهُوَينَى ، وأقلُّهمْ نظراً فى العواقب ، وخير السلطان من أشبه النَّسرَ حوله الجيف ؛ لامَن أشبه الجيف حولها النسور .

ويجب عليه استبقاء الرياسة ، ومافيه من نعمة الله عليه ، بلزوم تقوى الله ، وتفقد

أمور الرعية ، و إنصاف بعضهم بعضاً ؛ لأنه مامن قوى فى الدنيا إلا وفوقه أقوى منه ، فمتى ماعرف السلطان فضل قوته على الضعفاء فَغَرَّه ذلك من قوة الأقوياء كانت قوته حَيْنًا عليه وهلا كا له ، والضعيفُ المحترِس أقرب إلى السلامة من القوى المغتر ؛ لأن صرعةَ الاسترسال لا تكاد تُستقال ، ولا يجب أن يعجل فى سلطانه بعقاب من يخاف أن يندم عليه ، ولا يثقنَّ بمن عاقَبه من غير جرم .

وما أشبَّهُ السلطان إلا بالنار ، إن قصَّرت بطلَ نفعها ، و إن جاوزت عظم ضرُّها ، فخير السلطان من أشبه الغيث فى أحيانه فى نفع من يليه ، لامن أشبه النار فى أكلها مايليها .

والسلطان إذا كان عادلا خير من المطر إذا كان وابلا ، وسلطان غشوم شر من فتنة تدوم ، والناس إلى عدل سلطانهم أحوج منهم إلى خِصْبِ زمانهم .

ولقد حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، حدثنا مرجيّ بن مؤمل بن المثنى المرى عن أبيه قال : قال الأحنف بن قيس « الولى من الرعية مكانُ الروح من الجسد الذى لاحياة له إلا به ، وموضع الرأس من أركان الجسد الذى لا بقاء له إلا معه » .

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى للأفوه الأودِى :

لايَصْلُحُ الناس فَوْضى لاسَرَاةَ لهم ولا سَرَاةَ إذا جُهَّلُهُمْ سادوا
والبيتُ لا يُبْتَنَى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم تُرْسَ أوتادُ
فإن تجمَّعَ أوتادٌ وأعمدة وساكنٌ أدركوا الأمر الذى كادوا
تُهْدَى الأمور بأهل الرأى ماصلحت فإن تولَّت فبالأشرار تنقادُ

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على السلطان قبل ـ كل شىء ـ أن يبدأ بتقوى الله ، و إصلاح سريرته بينه و بين خالقه . ثم يتفكر فيما قلده الله من أمر إخوانه ، ورفعه عليهم ، ليعلم أنه مسئول عنهم فى دِق الأمور وجِلها ، ومحاسبٌ على قليلها و كثيرها ، ثم يتخذ وزيراً صالحاً عاقلا عفيفاً نصوحاً ، وعمالا صالحين

بَرَرَة راشدين ، وأعواناً مستورين ، وخدماً معلومين ، ثم يقلد عماله مالا غنى له عنهم ، ويشترط عليهم تقوى الله وطاعتهُ ، وأخذَ المالِ من حله ، ويفرقه فى أهله ، ثم يتفقد أمرَ بيت المال بأن لا يُدْخِلَهُ حبةً فما فوقها من قَهْر أو جور ، أو سلب أو نهب أو رشوة ؛ فإنه مسئول عن كل ذَرَّة منه ، ومحاسب على كل حبة فيه ، ثم لايخرجه إلا فى المواضع التى أمر الله جل وعلا فى سورة الأنفال[١] .

ثم يتفقد أمور الحرمين وطريق الحاج ومجاورى بيت الله ، وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يتفقد ثُغور المسلمين ، ولا يولى على الثغور من عماله إلا من يعلم أن القتل فى سبيل الله يكون آثر عنده من البقاء فى الدنيا ، ليغزى الناس ولا يعطل الثغر .

ثم يتفقد ثغور المسلمين ومَراقبهم والأبراج التى بين المسلمين و بين عدوهم ، بأن يعمرها ، ويقيم فيها أعيناً من المسلمين تتجسس أخبار العدو ، ويُجْرى عليهم من بيت مالهم .

ثم يتفقد أولاد المهاجرين والأنصار بعطاياهم ، ويعرف فضيلتهم ، وسابقة آبائهم ، وأنه إنما نال مانال بهم .

ثم يتفقد أمور الحكام بأن لا يولى أحداً على قضاء المسلمين إلا من يعلم منه العفاف والعلم ، وترك الميل إلى الهوى ، والحكم بغير مايوجبه العلم .

ثم يتفقد أهل العلم والقراء والمؤذنين والصالحين وضعفاء المسلمين ، وليكن لمن هو أصغرُ سِنًّا منه أبا ، ولمن هو أكبر منه ابناً ، ولأتْرَابه[٢] أخاً ، فيكون فى تفقد أمورهم ولصلاح أسبابهم أكثر من تفقدهم بأنفسهم .

---

(١) فى قوله تعالى (٨ : ٤١ واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ـ الآية) والآيات فى هذا المعنى كثيرة .

(٢) الأتراب : جمع ترب ـ بكسر أوله ـ المساوى لك فى السن .

ثم يختار من الرعية أقواماً أمناء ، يبعث بهم فى كل سنة إلى المدن ؛ ليشرفوا على العمال والحكام ، و يتفقدوا أسبابهم وسيرهم ، و يخبروه بها ، فيعزل من استحق منهم العزل ، و يقر من اتبع الحق .

ثم يجعل لنفسه موضعاً لايمنع منه لطرح القصص ، ويبرز للرعية فى كل يوم مرة ، أو فى كل ثلاثة أيام ، أو فى كل أسبوع ، ليرفعوا إليه حوائجهم . وليجتنب الحِدَّة ، وليلزم الحلم الدائم فيما يرد عليه من أسبابهم .

ولقد حدثنا عبد الله بن قحطبة ، حدثنا محمد بن زنبور ، حدثنا أبو بكر ابن عياش : أن أهل الجاهلية لم يكونوا يسوّدون عليهم أحداً لشجاعة ولا لسخاء إنما كانوا يسودون من إذا شُتِمَ حَلُمَ ، و إذا سئل حاجة قضاها ، أو قام معهم فيها .

وأنشدنى الأبرش :

وقد يُبْغِضُ الحياتِ أولادُ آدم وأبغضُ مافيها إليهم رءوسها

وما ابتليتْ يوماً بِشر قَبيلةٌ أضرَّ عليها من سَفيه يسوسُها

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لايستحق أحد اسم الرياسة حتى يكون فيه ثلاثة أشياء : العقل ، والعلم ، والمنطق .

ثم يتعرى عن ستة أشياء : عن الحدة ، والعجلة ، والحسد ، والهوى ، والكذب ، وترك المشاورة .

ثم ليلزم فى سياسته على دائم الأوقات ثلاثة أشياء : الرفق فى الأمور ، والصبر على الأشياء ، وطول الصمت .

فمن تعرّى من هذه الأشياء ـ وهو ذو سلطان ـ عمى عليه قلبه ، وتشتتت عليه أموره ، ومن لم يكن فيه خصلة من هذه الخصال نقص من ضوء بصر قلبه مثلها ، ودخل الخلل فى أموره نحوها .

و إنما مثل الرئيس والرعية ، كمثل جماعة ليس فيهم إلا قائد واحد . فإن لم يكن

ذلك القائد أحدَّ الناس بصراً ، وألطفهم نظراً ، كان خليقاً أن يوقعهم و إياه فى وَهْدة تَنْدَقُّ اعناقهم وعنقه معهم .

والواجب على السلطان أن لا يغفل عن الأشياء الأربعة ، التى صلاحه فى دينه ودنياه فيها ، وهى ماحدثنا به عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى حدثنا محمد بن عبيد الله الجشمى حدثنا المدائنى قال : « خرج الزهرى يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : مارأيت كاليوم ، ولا سمعت به ، كأربع كلمات تكلم بهنَّ رجل آنفاً عند هشام بن عبد الملك ، فقيل له : وما هنَّ ؟ قال : قال له رجل : يا أمير المؤمنين ، احفظ عنى أربع كلمات ، فيهن صلاحُ ملكك ، واستقامة رعيتك ، قال : هاتهن ، قال : لا تَعِدنَّ عِدَة لاتثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقَى ، و إن كان سهلا ، إذا كان المنحدَرُ وَعْرا ، واعلم أن للأعمال جزاءاً ، فاتق العواقب ، وأن للأمور بغتات ، فكن على حذر » .

وأنشدنى المنتصر بن بلال :

بلاء النـاس مـذ كانوا ... إلى أن تأتىَ الساعَهْ
بحبِّ الأمر والنهى ... وحب السـمع والطاعهْ

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لايجب للعاقل طلب الإمارة ؛ لأن من أُوتيها عن مسألة وُكِلُ إليها ، ومن أعطيها من غير مسألة أعين عليها ، ومن اشتهر بالرياسة فليحترز ؛ لأن الريح الشديدة لا تحطم الـكلأ ، وهى تحطم دَوْح الشجر ومَشْيد البنيان .

وليلزم المشورة . فإن فى المشورة صلاح الرعية ، ومادة الرأى ، وليصنع إلى الناس كافة فى الوقت الذى يقدر على الصنائع والمعروف ، قبل أن يجيئه الوقت الذى يفقد فيه القدرة عليها ، وليعتبر بمن كان قبله من الملوك والأمراء والسادة والوزراء لأن من ظفر بأمر جسيم فأضاعه فاته ، ومن أمكنته الفرصة فأخَّر العمل فيها لاتكاد تعود إليه .

والسلطنة إنما هى قول الحق والعمل بالعدل، لا التفاخر فى الدنيا واستعمال البذل.

ولقد حدثنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندى، حدثنا عبدالله بن سليمان قال: قال أبو عمرو بن العلاء «كانوا لا يسوِّدُونَ إلا من تكاملت فيه ست خصال: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والتواضع، وتمامهن فى الإسلام السابعة: الحياء»

وأنشدنى الكريزى:

إذا نلتَ الإمارة فاسْمُ فيها إلى العليــاء بالعمــل الوثيق

بمحض خليقةٍ لا عيبَ فيها وليس المحضُ كاللبن المذيق[1]

ولا تكُ عندها حلواً فتُحسَى ولا مرًّا فتَنْشَبَ فى الُحلوق

وكلُّ إمارة إلا قليــلا مُغَيِّرة الصديق عن الصديق

قال أبو حاتم رضى الله عنه: من صحب السلطان فلا يجب أن يكتمه نصيحته؛ لأن من كتم السلطان نصيحته، والأطباء مرضه، والإخوان بَثَّه[2]، فقد خان نفسه. ومن يصحب السلطان لا ينجو من الآثام، كما أن راكب العجل لا يأمن العثار، ولا يجب أن يأمن غضب السلطان إن صدقه، ولا عقوبته إن كذبه، ولا يجترىء عليه، وإن أدناه؛ لأن الحازم العاقل لا يشرب السُّم اتكالا على ماعنده من الترياق والأدوية.

وإنى أستحب لمن امتحن بصحبة السلطان أن يعلمه لزوم تقوى الله، والعمل الصالح، كأنه يتعلم منه، ويؤدبه كأنه يتأدب به، ويتقى سخطاته، والسخط إذا كان من علة كان الرضا عنه موجودا، وإذا كان من غير علة ينقطع حينئذ الرجاء ولا يجب أن يعلم كلَّ ماتأتى الملوك من أمورها؛ لأن فى معرفتهم إياها بعض الفتنة

---

(١) المحض: الخالص فى جنسه، لا يشوبه شىء من جنس آخر، واللبن المذيق: المخلوط بالماء.

(٢) البث ـ بفتح الباء ـ الحزن.

وهيهات ! من ذا صحب السلطان فلم يفتتن،ومن اتبع الهوى فلم يعطب ؟ إن الشجرة الحسنة ربما كان سبب هلاكها طيب ثمرتها ، وربما كان ذَنَبُ الطاووس الذى فيه جماله ــ سببَ حتفه ؛ لأنه يثقله حتى يمنعه من الهرب ، ومن صحب السلطان لم يأمن التغير على نفسه ؛ لأن الأنهار إنما تكون عذبة مالم تنصب إلى البحور ، فإذا وقعت فى البحور ملحت ، على أن قعود العلماء عن أبواب الملوك زيادة فى نور علمهم ، وكثرة غشيانهم إياهم غشاوة على قلوبهم (١) ، ومن صحب الملوك لم يأمن تغيرهم ومن زايلهم لم يأمن تفقدهم ، وإن قطع الأمور دونهم لم يأمن فيها مخالفتهم ، وإن عزم على شىء لم يجد بُدًّا من مؤامرتهم ، وأسمج شىء بالملوك : الحدة .

ولقد حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفى ، حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا المبارك بن سعيد الثورى قال : كان يقال : خمس خلال هنَّ أقبح شىء بمن كنَّ فيه : الحدة فى السلطان ، والكبر فى ذى الحسَبِ ، والبخل فى الغنى ، والحرص فى العالم ، والفتوة فى الشيخ .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : رؤساء القوم أعظمهم هموماً ، وأدومهم غموماً ، وأشغلهم قلوباً ، وأشهرهم عيوباً ، وأكثرهم عدواً ، وأشدهم أحزاناً ، وأنكاهم أشجاناً ، وأكثرهم فى القيامة حساباً ، وأشدهم ــ إن لم يَعْفُ الله عنهم ــ عذاباً .

ومن أحسن مايستعين به السلطان على أسبابه : اتخاذ وزير عفيف ناصح ، على ماتقدم ذكرنا له ، فإن الوزير إذا غفل الأمير ذكَّرَهُ ، وإن ذكر أعانه ، وإن سَوّلت له نفسه سيئة صده ، وإن أراد طاعة نشَّطه ، فهو المحبب له إلى الناس ، والمستجلب له دعاءهم .

ولقد أنشدنى على بن محمد البسامى :

إذا نسيَ الأمير قضاء حق ... فإنَّ الذنب فيه للوزير
لأن على الوزير ، إذا تولى ... أمورَ الناسِ ، تذكيرَ الأمير

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على كل من يغشى السلطان وامتحن

---

(١) ذلك إذا كان الغشيان لغير النصيحة ، وكفهم عن الظلم .

بصحبته أن لايعد شتمه شتما ، ولا إغلاظه إغلاظاً ، ولا التقصير فى حقه ذنباً ؛ لأن ريح العزة بسطت لسانه و يده بالغلظة ، فإن أنزله الوالى منزلة رفيعة من نفسه فلا يثقنَّ بهـا ، وليجانب معه كلام المَلَقِ ، والإكثار من الدعاء فى كل وقت ، وكثرة الانبساط ، فربَّ كلمة أثارت الوحشة ، بل يجتهد فى توقيره وتعظيمه عند الناس ، فإن غضب فليَحْتَلْ فى تسكين غضبه باللين والمداراة ، ولا يكون سبباً لتهييجه .

ولقد حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، حدثنا ابن عائشة عن أبيه قال : بعث أبو جعفر إلى جعفر بن محمد قال : إنى أستشيرك فى أمر ، إنى قد تأنيت أهل المدينة مرة بعد أخرى فلا أراهم يرجعون ، ولا يُعتبون(١) . وقد رأيت أن أبعث فأحرق نخلها ، وأُغَوِّر عيونها ، فما ترى ؟ فسكت جعفر . فقال : مالك لاتتكلَّم ؟ قال : إن أذِنت لى تكلمت . قال : قل ، قال : ياأمير المؤمنين ، إن سليمان أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتُلى فصبر ، وإن يوسف قَدَر فغفر . وقد جعلك الله من النسل الذين يعفون و يصفحون . قال : فطفىء غضبه وسكن .

حدثنى محمد بن أبى على الخلادى ، حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد عن محمد ابن حميد بن فروة عن أبيه قال : لمـا استقرت للمأمون الخلافة ، دعا إبراهيم بن مهدى ، المعروف بابن شَكلة ، فوقف بين يديه ، فقال : أنت المتوثب علينا تدعى الخلافة ؟ فقال إبراهيم : ياأمير المؤمنين ، أنت ولىُّ الثأر ، مُحَكَّم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فإن أخذت أخذت بحق ، وإن عفوت عفوت بفضل ، ولقد حضرت أبى ـ وهو جدك ـ أتى برجل كان جرمه أعظم من جرمى ، فأمر الخليفة بقتله وعنده المبارك بن فضالة ، فقال المبارك بن فضالة : إن رأى أمير المؤمنين أن يستأنى فى أمر هذا الرجل حتى أحدثه بحديث سمعته من الحسن يحدث به عن رسول الله

(١) يعتبون ــ بضم حرف المضارعه ــ يزيلون عتبى عليهم بترضيهم إياى .

صلى الله عليه وسلم ؟ قال : إيهٍ يامبارك ، قال : حدثنى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بُطْنان العرش : ألا لِيَقُمْ العافُونَ من الخلفاء ، فلا يقوم إلا من عفا » فقال الخليفة له : يامبارك ، قد قبلت الحديث ، وعفوت عنه ، أخرجْ أيها الرجل ، فلا سبيل لأحد عليك . فقال المأمون : ياعم ، ههنا ، ياعم ههنا .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على مَنْ ملك أمور المسلمين الرجوع إلى الله جل وعلا فى كل لحظة وطرفة ؛ لئلا يطغيه ماهو فيه من تسلطه ، بل يذكر عظمة الله وقدرته وسلطانه ، وأنه هو المنتقم ممن ظلم ، والمجازى لمن أحسن ، فليلزم فى إمرته السلوك الذى يؤديه إلى اكتساب الخير فى الدارين ، وليعتبر بمن كان قبله من أشكاله ؛ فإنه لا محالة مسئول عن شكر ماهو فيه ، كما هو لامحالة مسئول عن حسابه ، إذ المصطفى صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تبارك وتعالى ، يوم القيامة : ألم أحملك على الخير ، ورزقتك النساء ، وجعلتك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى ، فيقول : فأين شكر ذلك ؟ » .

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى :

يدبّرُ أسبابَ الرجال ِمؤمَّر إذا صلحت فى الصدر أشفى وأبينُ
من العقل أن تحتاط فيما وَلِيته وتحسم ماتخشاه ، والأمر ممكن

ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها

حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد السلام ، حدثنا عبد الله بن هانىء بن عبد الرحمن بن أبى عبلة ، حدثنا أبى عن عمه إبراهيم بن أبى عبلة عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح معافى فى بدنه ، آمناً فى سَربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حِيزت له الدنيا[1] يا ابن

(١) كذا فى الأصل ، وليس لسراقة بن مالك بن جعشم ذكر فى الحديث ، ولعلهما حديثان مندمجان ، وفى الترغيب والترهيب : يروى عن ثوبان قال : قلت «يارسول الله =

جُعْشُم ، يكفيك منها ماسد جَوْعَتك ، ووارى عورتك ، فإن يكن ثوباً تلبسه فذاك ، وإن كانت دابة تركبها فَبخ بخ ، فان فِلَق الخبز ، وماء الحب ، وما فوق الإزار حساب عليك » .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل : أن لا يغتر بالدنيا وزهرتها ، وحسنها وبهجتها ، فيشتغل بها عن الآخرة الباقية ، والنعم الدائمة ، بل ينزلها حيث أنزلها الله ؛ لأن عاقبتها لامحالة تصير إلى فناء ، يخرب عمرانها ، ويموت سكانها ، وتذهب بهجتها ، وتبيد خُضْرتها ، فلا يبقى رئيس متكبر مؤمَّر ، ولا فقير مسكين محتقر ، إلا ويجرى عليهم كأسُ المنايا ، ثم يصيرون إلى التراب ، فيبلون حتى يرجعون إلى ما كانوا عليه فى البداية إلى الفنـــاء ، ثم يرث الأرض ومن عليها علام الغيوب . فالعاقل لايركن إلى دار هذا نعتها، ولا يطمئن إلى دنيا هذه صفتها، وقد ادخر الله له مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فيضن بترك هذا القليل ، ويرضى بفوت ذلك الكثير .

حدثنا محمد بن المسيب بن إسحاق ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقى قال : سمعت بشر بن الحارث يقول :

لاتأس فى الدنيـا على فائتٍ وعنـدك الإسـلام والعـافيهْ
إن فاتَ أمر كنت تسعى له ففيهما من فائت كافيهْ

وأنشدنى الكريزى ، أنشدنى شعيب بن أحمد لسليمان بن يزيد العدوى :

ألم تر أنَّ المرء يودِى شبابه وأنَّ المنـايا بالرجال تشعَّبُ
فمن ذائق كأساً من الموت مُرَّة وآخرَ أخرى مثلها يترقبُ
لها منهم زاد حثيث وسائق وكل بكأس الموت يوماً سيشربُ
وما وارث إلا سيورث ماله ولا سالبٌ إلا وشيكا سيُسْلَبُ

= مايكفينى من الدنيا ؟ قال : ماسدجوعتك ، ووارى عورتك ، وإن كان لك بيت يظلك فذاك ، وإن كانت لك دابة فبخ » رواه الطبرانى فى الأوسط .

ولا آلفٌ إلا سيتبع إلفـه ولا نعمة إلا تبيـد وتذهب
وما مُعَان والمصائب جَمـة يعاورها العصران إلا سيعطبُ
أرى الناسَ أصنافا أقاموا بغربة تقلبهـم أيامُهـا وتَقَلَّبُوا
بدارِ غرور حـلوة يعمرونها وقد عاينوا فيها زوالا وجربوا
يذمون دنيا لا يريحون دَرَّها فلم أر كالدنيـا تذم وتحلب
تَسرهم طوراً ، وطَوْراً تُذيقهم مَضِيضَ مكاوٍ حَرُّها يتلهب

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، حدثنا محمد بن عبيد الله قال : عاد رجل مريضاً ، فسمع قائلا يقول من ناحية البيت :

ناد ربَّ الدارْ ذا المـال الذى جمع الدنيا بحرص : ما فَعَلْ ؟

فأجابه مجيب :

كان فى دار سواها دارُه عللتـه بالمنَى ، ثم انتقـل
لم يُمتَّـع بالذى كان حَوَى من حُطام المال ، إذ حلَّ الأجل
إنمـا الدنيـا كظلٍّ زائل طَلَعَتْ شمسٌ عليـه فاضمحل

قال أبو حاتم رضى الله عنه : رأيت على حجر بطبرستان مكتوب :

العيش لونان : فحلو ، ومرّ والدهر نصفان : فريف[1] وضر
والنطق جـزآن : فبعر ، ودُرّ والنـاس اثنان : فنـذل ، وحر
يومك يومان : فخير ، وشر نهـار يزول ، وليـل يَـكِرُّ
وكذاك الزمان على من مضى وكل السـنين على ذا تَمُرُّ

وأنشدنى الأبرش :

إنمـا الدنيـا نهـارٌ ضوءها ضوءٌ معـارُ
بينما غُصنُك غِضٌّ ناعمٌ فيـه اخضرار

(١) الريف ـ بالكسر ـ أرض فيها زرع وخصب ، وسعة فى المأكل والمشرب . والأبيات غير متسقة الوزن .

إذ رمّاه زمناه فإذا فيه اصفرار
وكذلك الليل يأتى ثم يمحوه النهار

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى :

يالائمَ الدهر إذا مانبا لا تلم الدهر على غَدْرِه
الدهرُ مأمور ، له آمر ينصرف الدهر إلى أمره
كم كافرٍ بالله أمواله تزداد أضعافاً على كفره
ومؤمن ليس له درهم يزداد إيماناً على فقره
لا خير فيمن لم يكن عاقلا ، يبسط رجليه على قدره

وأنشدنى الكريزى :

ما الدهر إلا ليلةٌ ويومُ والعيش إلا يقظة ونومُ
يعيش قوم ، ويموت قوم والدهر قاضٍ ، ما عليه لوم

أنبأنا عبد الله بن محمد بن سلم ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا إسحاق الموصلى قال : قال أبو حازم : بضاعة الآخرة كاسدة ، فاستكثر منها فى أوان كسادها ؛ فإنه لو جاء أوان نفاقها لم تصل منها لا إلى قليل ولا إلى كثير .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الدنيا بحر طفّاح ، والناس فى أمواجها يعومون ، وفى أمثال تضربها الأيام للأنام ــ وما أكثر أشباهَها منها ــ لأن كل مايصير إلى فناء منها يشبهها ، فمن أوتىَ من الدنيا أشياء ثلاثة فقد أوتى الدنيا بحذافيرها : الأمن ، والقوت ، والصحة ، لا يغتر بشىء منها إلا كل خداع ، ولا يركَنْ إليها إلا كل منّاع .

فالعاقل يعلم أن مالم يبق لغيره عليه غير باق ، وأن ماسلب عن غيره لايترك عليه ، فالقصد إلى ما يعود بالنفع فى الآخرة للعاقل من الدنيا أحرى من السلوك فى قصد الضَّنِّ بها والجمع لها ، من غير تقديم مايقدم عليه فى الآخرة من الأعمال الصالحة ، وترك الاغترار بها ، والاعتبار بتقلبها بأهلها ، ولا شىء أعظم خطراً من

الحياة ، ولا غَبن أعظم من إفنائها لغير حياة الأبد ، ومن اشتهى أن يكون حرًّا فليجتنب الشهوات ، و إن كانت لذيذة ، وليعلم أن كل لذيذ ليس بنافع ، ولكن كل نافع هو اللذيذ ، وكل الشهوات مملولة إلا الأرباحَ فإنها لا تمل ، وأعظم الأرباح الجنة ، والاستغناء بالله عن الناس .

وأنشدني على بن محمد البسامى :

فأعظم بصبر للزمان ، فإنه ... على حالة المكروه ليس بدائم

تدورُ لنا أفلاكه بعجائب ... إذا ماانقضت كانت كأحلام نائم

سُرُورٌ وَهَمٌّ وانتعاشٌ ، وسقطة ... إلى أجل دانٍ لذلك هادم

و بالله دون الناس فاستغن واستعنْ ... إذا نزلت إحدى الأمور العظائم

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي :

والناس فى هذه الدنيا على رتب ... هذا يحُطُّ ، وذا يعلو فيرتَفِعُ

فأخلص الشكر فيما قد حُبيتَ به ... وآثِرِ الصبر ، كلٌّ سوف ينقطع

وأنشدني المنتصر بن بلال :

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوماً نُسَاءُ ، ويوماً نُسَرْ

كذاك التقارُض بين الأنا ... م فخير بخير ، وشرٌّ بشرْ

أنبأنا محمد بن عبد الله بن الجنيد ، حدثنا عبد الوارث بن عبد الله عن عبد الله عن مسعر عن معن بن عون قال : كم من مستقبِل يوماً لا يستكمله ، ومنتظرٍ غداً لايُدْرِكه ، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره ، لأبغضتم الأمل وغروره .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : السبب المؤدى للعاقل إلى إنزاله الدنيا منزلتها ، ترك الركون إليها مع تقديم ماقَدرَ منها للعيش الدائم ، والنعيمُ المقيمُ هو تركُ طول الأمل ، ومراقبة ورود الموت عليه فى كل لحظة وطرفة ؛ لأن طول الآمال قطع أعناق الرجال ، كالسراب أخلف من رجاه ، وخاب من رآه .

فالعاقل يلزم تركها ، مع الاعتبار الدائم بمن مضى من الأمم السابقة ، والقرون

الماضية ، كيف عَفَتْ آثارهم ، واضمحلت أنباؤهم ، فما بقى منهم إلا الذكر ، ولا من ديارهم إلا الرسم ، فسبحان من هو قادر على بعثهم ، وجمعهم للجزاء والعقاب ،

ولقد أنشدنا عمرو بن محمد ، قال : أنشدنا الغلابى قال : أنشدنى مهدى بن سابق :

كنا على ظهرها ، والعيش ذو مَهَلٍ والدهرُ يجمعنا ، والدارُ والوطنُ
ففرق الدهرُ ذو التصريف ألفتنا فاليوم يجمعنا فى بطنها الكفن
كذلك الدهر لايبقى على أحد تأتى بأقداره الأيامُ والزمنُ

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

حتى متى يبقى حليفَ الأسى مستشعراً للدهر أحزانا ؟
فلا يردُّ الحزنُ شيئاً ، ولا يُعْتِبُ هذا الدهر إنسانا
قد يُقبل الدهر بسرَّائه طَوْراً ، وقد يدبر أحيانا
فاصبر على ماجرَّ من حادث مازال غدَّاراً وخوانا
وأحسن الظنَّ بمنْ لم يزل عليك مفضلا ومنانا

وأنشدنى عمرو بن محمد قال : أنشدنا الغلابى ، لابن أبى عيينة المهلبى :

ماراحَ يوم على حى ، ولا ابتكرا إلا رأى عبرة فيها إن اعتبرا
وإن أتت ساعة فى الدهر فانصرفت حتى يؤثِّر فى قوم لها غيرا
إن الليالىَ والأيامَ أنفسها عن غيب أنفسها لم تكتب الخبرا

أنبأنا على بن سعيد العسكرى ، حدثنا إبراهيم بن الجنيد ، حدثنا الحسن بن سعيد الجرجانى ، قال : سمعت أبا مريم الصلت بن كلثم يقول : كانت امرأة من بنى إسرائيل متعبدةً ، وكانت تفطر كل سبت ، فبينا هى ذات يوم قد وضعت إفطارها بين يديها ، جعلت تقول : محب يحب حبيبه يتشاغل بالأكل عن خدمة محبه ، فيوشك أن يقدم غليه رسول حبيبه وهو متشاغل بأكله عن خدمته ، فلا تَقَرَّ عينه فى لقائه ، فمكثت كذلك مدة لا تفطر . قال : ثم وضعت إفطارها بين يديها وجعلت تقول مثل ما كانت تقول ، وإذا شابٌّ من ناحية البيت جميل

الوجه ، طيب الريح ، فقال : سلام عليك ورحمة الله ياحبيبة الله ، أو ياولية الله ، قالت : وعليك السلام ، من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت ، قالت : ياملك الموت ، أتأذن لى أن أسجد سجدة أناجى فيها ربى ، فإذا رأيتنى قد فعلت ذلك قبضت روحى ؟ قال : لك ذلك ، قال : فنحَّت إفطارها ، ثم وثبت فسجدت ، فقبض روحها فى اجتهادها رضى الله عنها(١) .

ذكر الحث على لزوم ذكر الموت ، وتقديم الطاعات

حدثنا عبد الله بن محمدبن سليمان السعدى ، حدثنا يحيى بن أكثم ومحمود ابن غيلان قالا : حدثنا الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت » .

قال أبوحاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يضم إلى رعاية ماذكرنا من شُعَب العقل فى كتابنا هـذا لزومَ ذكر الموت على الأوقات كلها ، وترك الاغترار بالدنيا فى الأسباب كلها ، إذ الموت رَحًى دوارة بين الخلق ، وكأس يدارُ بها عليهم ، لابد لـكل ذى روح أن يشربها و يذوق طعمها ، وهوهاذم اللذات ، ومنغص الشهوات ، ومكدر الأوقات ، ومزيل العاهات .

ولقد أنشدنى عبد العزيز بن سليمان :

أيا هاذم اللذات ، مامنك مهربُ تحاذر نفسى منك ما سيصيبها
رأيتُ المنايا قُسِّمت بين أنفس ونفسى سيأتى بعدهنَّ نصيبها

وأنشدنى الـكريزى :

إنَّ من عاش آمنـاً فى سرورٍ قاعدٌ من سروره فى غرور
ما لمن يذكـرُ المقـابر والمو تَ إذا كان عاقلا من سرور

حدثنا عمرو بن محمد الغلابى ، حدثنا مهدى بن سابق قال : قرىء على قصر هذه الأبيات :

---

(١) لـكن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم خير من هذا جداً .

هذى منازل أقوام عهدتُهمُ ... فى ظل عيش عجيب ، ماله خطَرُ
صاحتْ بهم حادثات الدهر، فانقلبوا ... إلى القبور ، فلا عينٌ ، ولا أثَرُ

حدثنا محمد بن إبراهيم الخالدى ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنى إبراهيم ابن عبد الملك ، حدثنى على بن سلمة الحلبى قال : سمعت أبى يقول : كان معاوية يقول « أنا والله من زرع قد استَحْصَد » ونُعى له عبد الله بن عامر بن كريز ، والوليد بن عقبة ، وكان أحدهما أ كبرَ منه ، والآخر دونه ، فقال :

إذا سار مَنْ خلفَ امرىء وأمامه ... وأُفرد من إخوانه فَهُوَ سائرُ

حدثنا أحمد بن محمد بن مصعب الشافعى ، حدثنا عبد الله بن محمد قال : سمعت عبيد الله بن مسلم بن زياد الهمدانى قال : سمعت عمر بن ذر يقول :

ورث فتى من الحى داراً عن آبائه وأجداده ، فهدمها ، ثم ابتناها وشيدها ، فأُتىَ فى منامه فقيل له :

إن كنت تطمعُ فى الحياة ، فقد ترى ... أرباب دارِك ساكَنُوا الأموات
أنَّى تُحِسُّ من الأكارم ذكرهم ؟ ... خلت الديار وبادت الأصواتُ

قال : فأصبح الفتى مغتاظاً قد أمسك عن كثير مما كان يصنع ، وأقبل على نفسه .

حدثنا عمر بن حفص البزار ، حدثنا إسحاق بن الضيف ، حدثنا جعفر بن عون ، قال سمعت مسعراً يقول :

ومُشَيِّدٍ داراً ليسكن داره ... سكن القبور ، ودارَهُ لم يسكن

وأنشدنى ابن زنجى البغدادى :

لو أننى أعطيت سؤلى لما ... سألت إلا العفو والعافيـة
فكم فتى قد بات فى نعمة ... فسُلَّ منهـا الليـلةَ الثانيـة ؟

حدثنا حمزة بن داود بن سليمان ، بالأُبُلَّة ، حدثنا ذهل بن أبى شراعة القيسى ، قال : حدثتنى سُكَينة ــ وكانت علامة ــ قالت : قال لى أبو العتاهية : دخلت

على هارون أمير المؤمنين ، فلما بَصُرَ بى قال : أبو العتاهية ؟ قلت : أبو العتاهية ، قال : الذى يقول الشعر . قلت : الذى يقول الشعر . قال : عظنى بأبيات شعر ، وأوجز ، فأنشدته :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نَفَسٍ ولو تمتعت بالحجّاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مُدَّرِعٍ منا ومتّرس
ترجو النجاة ، ولم تسلك مسالكها ؟ إن السفينة لا تجرى على اليبس

قال : فخر مغشيًّا عليه ، أو كما قال .

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابى ، حدثنا أبو جعفر البغدادى قال : قرأت على باب قصر بالسند :

نزل الموت منزلا سلب القوم وارتحل

فقلت : ماهذا ؟ فقالوا : مات أهل القصر كلهمْ ، فأصبحوا وهذا الكتاب على الباب لايدرى من كتبه ، وأنشدنى البسامى :

قد يصح المريض بعد إياس كان منه ويهلكُ العوّاد
يُصَاد القطا فينجو سليما بعد هُلْك ، ويهلِكُ الصَّياد

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل لا ينسى ذكر شىء هو مترقب له ، ومنتظر وقوعه ، من قدم إلى قدم ، ومن لحظة إلى شزرة ، فكم من مكرَّم فى أهله ، معظم فى قومه ، يختال فى حبرته ، لا يخاف الضيق فى المعيشة ، ولا الضَّنك فى المصيبة ، إذ ورد عليه مذلل الملوك ، وقاهر الجبابرة ، وقاصم الطغاة ، فألقاه صريعاً بين أحبته وجيرانه ، مفارقاً لأهل بيته وإخوانه ، لا يملكون له نفعاً ، ولايستطيعون عنه دفعاً ، فكم من أمة قد أبادها الموت ، و بلدة قد عطلها ، وذات بعل قد أرملها ، وذى أب قد أيتمه ، وذى إخوة أفرده .

فالعاقل لا يغتر بحالة نهايتها تؤدى إلى ماقلنا ، ولا يركن إلى عيش مغبته ماذكرنا ، ولا ينسى حالةً لا محالة هو مُوَاقعها : ومالاشك يأتيه ، إذ الموت طالب لايعجزه المقيم ، ولا ينفلت منه الهارب .

ولقد حدثنا محمد بن إبراهيم الخالدى ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنى سلمة ابن حبيب حدثنا سهل بن عاصم قال : سمعت الوضاح بن حسان يقول : سمعت ابن السماك يحدث قال : بينما صياد ـ فى الدهر الأول ـ يصطاد السمك ، إذ رمى بشبكة فى البحر ، فخرج فيها جمجمة إنسان ، فجعل الصياد ينظر إليها و يبكى ، و يقول : عزيز ، فلم تُترك لعزك ، غنى ، فلم تُترك لغناك فقير ، فلم تترك لفقرك ، جواد ، فلم تترك لجودك ، شديد ، فلم تترك لشدتك ، عالم ، فلم تترك لعلمك ؟ يردد هذا الكلام و يبكى .

وأنشدنى الكريزى :

أموالنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها
والنفس تكلف بالدنيا ، وقدعلمت أن السلامة فيها : ترك مافيها
فلا الإقامة تنجى النفس من تلف ولا الفرارُ من الأحداث ينجيها
وكل نفس لها زَوْرٌ يصبِّحُها من المنية يوماً أو يمسيها

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، قال : سمعت ابن واقد المدينى قال : حدثنا عبد المنعم الرياحى قال : فُقِد مالكُ بن دينار يوماً ، فقالوا : أين كنت ياأبا يحيى ؟ قال : خرجت إلى الأبلة ، قالوا : ماأحسنُ مارأيت ؟ قال : مارأيت شيئاً أعجبت به ، إلا أنى رأيت امرأة تصلى ، فقالوا له : ياأبا يحيى ، فما أعجبُ شىء رأيت ؟ قال : رأيت بالبحرين قصراً مشيداً ، و إذا على بابه مكتوب :

طلبتُ العيش أنعد ناعميه وعشتُ من المعايش والنعيم
فلم ألبَثْ وَرَبِّ الناس طَوْرًا سلبت من الأقارب والحميم

وأنشدنى الأبرش :

والنفوس و إن كانت على وجل من المنية آمال تقويها
والمرء يَبْسُطها ، والدهر يقبضها والنفس تنشرها ، والموت يطويها

أنبأناحمزة بن داود بن سليمان بالأبلة ، حدثنا الهادى ، حدثنا جليس الكلبى

عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة قال : لقينى عمران بن حطان فقال لى : يا أعمى ، إننى عالم بخلافك ، ولكنك رجل تحفظ ، فاحفظ عنى هذه الأبيات :

حتى متى تسقى النفوس بكأسها ريب المنون ، وأنت لاهٍ ترتعُ ؟
أفقد رضيت بأن تعللَ بالمنى وإلى المنية كلَّ يوم تدفع ؟
أحلام نوم ، أو كظل زائل إنَّ اللبيب بمثلها لا يخدع
فتزودنَّ ليوم فقرك دائباً واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع

حدثنا محمد بن نصر بن نوفل المروزى ، قال : سمعت أبا داود السنجزى يقول : خرج أبو معاذ النحوى يوماً مع أصحابه ، فقال : إنى قدْ نُعيت إلىَّ نفسى البارحة ، أتانى آت ، فقال :

يا أيها الإنسان ، إنك ميتٌ عما قليل ، قمْ لنفسك واقعدِ
فكأنَّ ماقد كان لم يك إذ مضى وكأنَّ ماهو كائن فكأن قَدِ

حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا حرملة بن يحيى قال : سمعت الشافعى كثيراً ما ينشد :

تمنىَّ رجال أن أموتَ ، وإن أمتْ فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحَدِ
فقل للذى يبقى خلافَ الذى مضى تهيأ لأخرى مثلها فكأن قدِ

حدثنا أحمد بن محمد الشافعى ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنى إسماعيل بن عبد الله العجلى قال : أنشدنا رجل ، ونحن فى المقابر :

ألا يا عسكر الأحيا ء هذا عسكر الموتى
أجابوا الدعوة الصغرى وهم منتظروا الكبرى
يحثون على الزاد وما زاد سوى التقوى
يقولون لكم : جدوا فهذا آخر الدنيا

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن الله جل وعلا خلق آدم وذريته من الأرض ، فأمشاهم على ظهرها ، فأكلوا من ثمارها ، وشربوا من أنهارها ، ثم لا محالة تنزل

المنية بهم ، وتغنيهم عن السعى والحركات ، مع تعطيل الجثث والآلات ، ثم تعيدهم إلى الأرض التى منها خلقهم ، حتى تأكل لحومهم ، كما أكلوا ثمارها ، وتشرب دماءهم كما شربوا من أنهارها ، وتقطع أوصالهم كما مشوا على ظهرها ، فالقبر أول منزل من منازل الآخرة ، وآخر منزل من منازل الدنيا ، فطوبى لمن مهد فى دنياه لقبره ، وقدم منها لآخرته ، فكم عَفَّرت الأرض من عزيز ، وأفقدت من أنيس .

حدثنى محمد بن إبراهيم الخالدى ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنى محمد بن عباس ، حدثنا إبراهيم بن يزيد قال : رأيت أعرابياً وقف على مقبرة وهو يقول :

لِكُلِّ أناسٍ مَقْبَرٌ بفنائهم   فهم ينقصون ، وَالْقُبورُ تزيد
وما إن تَرَى داراً لحيٍّ قد أُقفرت   وقبراً لميْتٍ بالفناء جديدُ
فهم جيرةُ الأحياء ، أما محلهم   فدانٍ ، وأما الملتقى فبعيد

وأنشدنى أحمد بن عبدالله الكرجى لعمر بن شبة فى نفسه :

يا ابن سَبعين وعشرٍ   وثمان كاملات
غرضاً للموت مشغو   لا بُخذْ منيٍّ وهات
ويكَ لا تعلم ماتلـ   ـقى به بعد الممات
من صغار موبقات   وكبار مهلكات
يا ابن من قد مات مـ   ـن آبائه والأمهات
هل ترى من خالد   من ذى طغاةٍ وعُتاةٍ ؟
إن من يبتاع بالديـ   ـن خسيسات الحياةِ
لغبى الرأى محفـ   ـوف بطول الحسرات

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، حدثنا شعيب بن واقد المرى عن عبد المنعم الرياحى قال : سمعت صالح المرى يقول : دخلت المقابر يوما فى شدة الحر ، فنظرت إلى القبور خامدة ، كأنهم قوم صموت ، فقلت : ياسبحان الله ! من يجمع بين أرواحكم وأجسامكم بعد افتراقها ، ثم يحييكم وينشئكم من طول البلى ؟

قال : فنادانى مناد من بين تلك الحفر : ياصالح (٣٠ : ٢٥ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) قال : فسقطت والله مغشيًّا علىَّ .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قد ذكرنا اليسير من الكثير من الآثار ، والقليل من الجسيم من الأخبار ، فى كتابنا هذا ، بما نرجوا أن القاصد إلى سلوك سبيل ذوى الحجى ، والسالك مقصد سبيل أولى النهى ، يكون له فيها غُنْية إن تدبرها واستعملها ، و إن كنا تنكَّبنا طرق المسانيد ، وتخريج الحكايات ، وأناشيد الأشعار ، إلا مالم نجد بدا من إخراجها ، كالإيماء إلى الشىء ، والإشارة إلى القصد .

جعلنا الله ممن دعته تباشير التوفيق إلى القيام بحقائق التحقيق . إنه منتهى الغاية عند رجاء المؤمنين ، والمانُّ على أوليائه بمنازل المقربين .

وصلى الله وسلم على محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطاهرين الطيبين ، والحمد لله رب العالمين .

وجد فى النسخة الأصلية ماصورته :

فرغ من نسْخه بعون الله ورحمته العبد الفقير إلى عفو ربه أحمد بن محمد بن سالم بن جناب المنبجى ، بالرها المحروسة ، يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم سنة ثمان وعشرين وستمائة . ختم الله له بخير ولوالديه ولجميع المسلمين !

وتم طبعه — للمرة الثالثة — بمطبعة السنة المحمدية فى غرة جمادى الأولى سنة ١٣٧٤ من هجرة عبد الله ورسوله الكريم محمد خاتم المرسلين صلى الله وسلم عليه وعلى آله أجمعين .

فهرس

روضة العقلاء ونزهة الفضلاء